

اليس كذلك؟!!

يوسف إدريس

obeykhan.com

الكنز



obeykhan.com



مخبّر بوليس .. طويل أسمر ، وعلى
ظهر يده اليمنى سمكة ، فمها مفتوح ، وذيلها
مشقوق ، وعلى عينها نقطة .

عبد العال مخبر ، ومع هذا فله عيلة ، وزوجة ، أحيانا تناكفه ،
وأحيانا ترضى عنه ، وأحيانا يحلف عليها يمين الطلاق ، ونادرا ما يقع
اليمين .

ولعبد العال ماهيه ، عشرة جنيهات بما فيها كل ما ناله وما لم
ينله من علاوات .

وعبد العال سعيد جدا بحكاية المخبر . اذا ركب الأوتوبيس ،
وجاء الكمسارى ، قال : بوليس . وأحس بأهميته وهو يقول ،
بوليس ، والناس يرمقونه ويضربون له بعيونهم السلام

وعبد العال مثل كل الناس يحلم بالمستقبل .. وهو لا يحلم حلما
عاديا مثل أن يصبح ضابطا أو مساعد حاكم . هو فى الحقيقة
يحلم أن يكون وزيرا للداخلية . يا سلام . يصحى الواحد ويلقى
نفسه وزيرا له عربة ، وله حاجب ، ويقف على باب منزله عسكري
على الأقل بشريطين . بسيطة . وليست على الله بعبرة ، فالذى

خلق الارض والسموات من العدم ، ألا يمكنه أن يخلق من العسكرى
وزيرا . ثم لماذا لا يخلق منه وزيرا وهو دونا عن رفاقه يجيىء
القراءة والكتابة ، ويرطن أحيانا بالفاظ انجليزية ، ويلتهم الصحف
ويعرف كوريا ، ويستطيع أن ينطق اسم همرشولد صحيحا .

وعبد العال من مدة كان معه تحقيق وسين وجيم . فقد اشترك
مرة فى ضبط واقعة . واستلم هوالمضبوطات وأمضى بذلك . وبعد
أيام جردت الأحرار فوجدوا حرزا ناقصا . وجاءوا بعبد العال .
وسألوه . وأنكر . وألحوا فى السؤال وأغلظوا . وتلجلج . وشك
فيه الضابط وهدده بالتفتيش . ورأى عبد العال من عينيه أنه ينوى
حقا تفتيشه ، وحينئذ مد يده فى جيبه وأخرج منها الحرز المفقود .
وكان الحرز هو الدليل المادى فى القضية فقد كان شيكا مزورا ،
شيكا بمبلغ مائة ألف جنيه أتقن تزويره .

واستغرب الضابط . وفتح محضرا وراح يسأل . وتوقف عند
السين التى تقول : لماذا احتفظت بالشيك المزور معك . ولم يستطع
عبد العال أن يدل بسبب واضح .

همهم وغمغم وقال كلاما فارغا كثيرا لم يقنع الضابط ، ولم يقتنع
به هو .

وفى آخر النهار عاد عبد العال من القسم منهوكا محطم القوى .
عاد وقد خصم من مرتبه نصفه ، ونقل من المباحث ، وأنذر بالفصل .
عاد وهو حزين ساخط ، ومع ذلك كانت فى أعماقه طراوة رضا
وسعادة . فلا أحد قد فطن الى أنه كان قد احتفظ بالشيك المزور
ليستخرج له صورة فوتوغرافية طبق الأصل ، صورة كلفته كثيرا ،
ودفع فيها خمسة عشر قرشا .

ومضى اليوم . ومضت وراءه أيام . وذهب حزن عبد العال
وسخطه ، ولكن بقيت صورة الشيك المزور .

وللآن لا تزال أسعد لحظات عبد العال هى تلك التى يهرب فيها
من زحمة الناس ، ويختلى بنفسه ، ويطمئن الى أن أحدا لا يلحظه
أو يراه ، ثم يخرج حافظة نقوده بعناية ، ويستخرج من جيب مخصوص
منها صورة الشيك ، ويحس بالرعد فى أذنيه ، والتنميل فى أطرافه
وهو يرى شعار البنك ، والحروف المطبوعة ، ثم وهو يقرأ الجملة
الجالدة ويملس عليها بأصابعه :

ادفعوا لحامل هذا مبلغ مائة ألف جنيه مصرى لاغير .

ويستمر يحدق فى الشيك حتى تهجع الزوابع التى فى جوفه ،
ثم يطويه بعناية ، ويعيده الى جيبه الخاص فى المحفظة ، ويتنهد

وكأنما قد انتهى من اعتراف أو صلاة ، ثم يعود هو فى بطاء الى
الناس وزحمتهم . يعود كما كان ، عسكريا طويلا وأسمر ، وعلى
ظهر يده اليمنى سمكة ، فمها مفتوح ، وذيلها مشقوق ، وعلى عيناها
نقطة .



الحالة الرابعة



obeykhan.com



العشاء وهب الدكتور مازن كى يقوم بنو بتجيته
فى الاستقبال . كان عشاء بيت الامتياز سخيفا فى
ذلك المساء ، كعاداته كل مساء . كان مكونا من

بطاطس مفروضة أنها محمرة ، ولم تكن لا محمرة ولا مسلوقة ولا شىء
من هذا القبيل ، انما كتل لزجة متراسة من مادة البطاطس يفصلها
زيت رخيص ، ثم أرز باللبن ، أو بطاطس باللبن ، أو حجارة وحصى
و (زلط) باللبن ، كله ماشى ، وكله لا يقيم أود مخلوق . كان العشاء
محنة ، يضطر اليها الاطباء الذين لا يملكون سوى مرتباتهم ، وحتى
لا يملكونها كلها ، فجزء غير قليل منها يذهب الى عائلاتهم التى رأت
المركى تنفق عليهم وتجعلهم فى نهاية الامر أطباء « قد الدنيا » أما
الدكتور مازن فلم يكن يحفل بالعشاء أو بالغذاء أو حتى بطعام بيت
الامتياز كله . كان أبوه أحد كبار الاطباء فى وزارة الصحة ، ومن
صغره وهو يذهب الى المدرسة فى عربة ويعود فى عربة . وحين كان
فى كلية الطب لم يره زملاؤه الطلبة أبدا الا ثمة شىء جديد قد أضيف
اليه ، قد يكون جاكته ، وقد يكون فى أحلك الاحوال منديل صدر جديد
وكان العمل بالنسبة للدكتور مازن شيئا مهما حقا . اليوم الذى

ياخذ نوبتجيته فيه كان يسبقه اعداد أيما اعداد . فلا بد أن يتفق مع اثنين من زملائه (الغلابة) على أن يأتوا ليسلوه فى وحدته نوبتجيته . ويختارهم مازن بعناية ، فأحدهم لابد يجيد رواية النكت ، ويخلق من التفاهة فكاهة ، والآخر لابد يكون عليمًا ببواطن الأمور ، يحدثه حديث العارف عن الاسرار الرهيبة التى تدور داخل جدران المستشفى ، وعن الزملاء الأطباء وعلاقاتهم الخفية مع المرضات والحكيما ، وعن الفضائح . ثم لابد أيضا من اعداد للعشاء . فقبل الثامنة يرسل عبد الغنى فراش بيت الامتياز الى جروبى أو الاكسلسيور ومعه قائمة معدة ومنتقاة بعناية لعدد كبير من الساندويتشات . ثم لابد آخر الامر من احضار عدد من المجلات المصورة الامريكية والفرنسية ، تحتوى على عدد من الوجوه والاجساد الجميلة يكفى للتفرج عليها ليلة بأكملها . كان لابد من اعداد هذا كله فى يوم النوبتجية حتى لا يحس مازن بأى سأم أو ملل ، ومع كل هذه الاحتياطات ، ولو فرض ووقع المحال ، وأحس بشئ من الملل والسأم فهناك التليفون ، وهناك ثلاث فتيات وامرأة متزوجة تملك أجمل صدر فى جاردن سىتى ، مستعدات أن يقضين معه الليلة فى كلام ودردشة وفكاهات .

هبط الدكتور مازن الى الممر الطويل ، وكل شئ على أتم مايرام .

البالطو أبيض ونظيف ومكوى ، والبنطلون الابيض حده كحد
السيف ، والسماعة معلقة فى صدره يلمع معدنها ، والحمام
الدافىء الذى أخذه بعد اغفاء الظهر يخدر وجهه ، ويجعل من
خلاياه دوامات صغيرة تدور بها السعادة . كل شىء حتى شكله ،
كان قد ألقى نظرة طويلة على نفسه فى مرآة التسريحة الحكومية
الجادة فى بيت الامتياز واطمان - كعادته - الى الصورة التى
سيكون عليها حين يراه الناس . جسده طويل رياضى لا انبعاج
فيه ، وسنواته لم تتعد الخامسة والعشرين ، ووجهه أبيض حليق
ناعم جميل ، والشعر موزع توزيعا أنيقا على رأسه ، أربعة أخماسه
تتموج الى اليمين ، والخمس الباقي يستكين الى اليسار ولا تنفر منها
شعرة واحدة .

كان الممر طويلا قد حل الفساد فى بعض مصابيحه فانطفأت تنتظر
الاستثمارات ومصلحة المبانى لاستبدالها ، وكان النور يتسرب الى
الممر من الاقسام التى على يمينه وعلى يساره فيضىء الممر بنور
شاعرى رقيق . وكان ابالطو الابيض يحف حفيفا خافتا كلما اصطدم
بساقيه الطويلتين السائرتين ، والكولونيا تدفع ببرودة ذات
رائحة جميلة الى ذقنه ، وكان جيب البنطلون على صغره يضيق بباقي
الورقة ذات العشرة جنيهاً ، والدنيا فى نظره لحن جميل كأنغام
الكمان فى رقصة شهر زاد .

وكان يلقي التحيات ذات اليمين وذات اليسار ، تحيات المساء ، كان يلقيها من أنفه الى تلميذات الاقسام الساھرات ، وكان دقيقا فى القاء تحياته ، فهو يعرف أنه جميل وغنى ومن عائلة ، وأن التلميذات لابد يحلمن به ، وبإبتسامة منه ، ولكنه أعرف الناس بالبيئة التى ينشأون فيها ، ويقبلون منها الى المستشفى ، تدفعهم الحاجة لاكل العيش والعمل وأهدار سيرتهن على اللسنة والافواه . ولهذا لم يفكر أبدا فى مصاحبة احدهن أو حتى فى التحدث معها . كان حديثه مع الواحدة منهن لا يستغرق لحظات ، وكله «حديث عمل» لا يزيد كلمة ولا ينقص كلمة . ولكنه لم يكن يحب أن يبدو متكبرا فى نظر الناس ، وكان عليه أن يحييھن ، ولكنها لابد ان تكون تحية مضبوطة لا تغرى بالالفة ، ولا تهبط بمستواه ، ولا ترتفع بمستواھن . مضى فى الممر المظلم الحالم يلقي بتحيات المساء بإيماءاته ، ويحس أن الناس كلهم لابد فى مثل دقته ونشاطه ، وأن الوجود لا يستحق ملليجراما واحدا من التعاسة ، والحياة لو أخذت هكذا سهلة بسيطة بلا أحقاد أو تعقيد لما أصبح للناس فى الدنيا مشاكل.

ووصل الى قسم الاستقبال . . كان زبائنه كثيرون فى تلك الليلة ، وكانوا ينتظرونه لابد من قبل أن تغرب الشمس . وعلى الرغم من كل شئ فالدكتور مازن كان يحب نوبة المساء . . كانت بالنسبة اليه فترة مستحبة ، لا تملكه فيها عصبية النهار ، ولا يقاسى من كثرة المرضى

الذين يقفون أمامه فى طابور لا أول ولا آخر ، ويقبلون الى المستشفى مع الفجر .

وتصاعدت الهمهمات من الجمع الصغير لمقدمه . ولم يكن قد تمعن فيهم أو حتى ألقى اليهم بـتحية المساء . اكتفى بالتفاتة سريعة يعرف بها كم عددهم ، وكان واضحا أنهم أكثر من العدد الذى وجدته فى التوبة السابقة . وأحس لهذا بنوع من الزهو . وحين وقف أكثرهم وأفسحوا له الطريق ، ودلف من بينهم تحفة التحيات والدعوات من الجانبين ، ملأه يقين بأهميته ، ودون وعى امسك بوق السماعه بأصابعه وازداد احساسا بضرورته ، وشغط فى التمورجية العجوز فقد وجد مقبض الباب لا يلمع وبقايا بصاق عالقة بالحائط ، وأسرعت المرأة بأعوامها الخمسين ، تجرى ، ويترقع قبقابها على البلاط ، وتزيل البقايا وتلعن المرضى وقذارتهم .

ودخل الدكتور مازن الى غرفة الكشف ، وكعادته أمر التمورجية بالوقوف على الباب والحيلولة دون دخول أحد الابناء على أمره وطلبه . وانبعج الكرسي وهو يحتويه ، وأمر بفنجال قهوة - سكرشوية - وأكد على التمورجية وتوعدها اذا لم تأت القهوة « سكرشوية » . . . ومضى يقلب صفحات مجلة « ومن » ويتوقف لدى كل صفحة . وأخيرا جاء الفرج حين دق الجرس ، وأشار للمرأة برأسه دون أن ينطق حرفا .

ودخلت الحالة الاولى تجار . وقبل أن تنطق كان قد عرف كل شيء ، وكتب فى التذكرة حقنة تداوى المخص ، كان يعرف أنها غير موجودة ، وأنها نفدت من الاجزاخانة ولا زال طلبها من الوزارة جارى . . . وكان يعرف عن ظهر قلب ألفاظ المحاورة التى سوف تدور بعد قليل بينه وبين المريض . حين يعود اليه خالى الوفاض من الدواء ، والتى يعلم أيضا أنها تنتهى فى العادة بطرد المريض وادخال آخر ودخلت الحالة الثانية والثالثة .

وكان لايزال مستغرقا فى المجلة ، يتحقق فى صورة ممثلة فرنسية ترتدى (مايوه) مصنوع من جلد رأس فهد ، وبه ثقوب مكان العينين والفم ، والثقوب تظهر أجزاء من جسدها ، ويخفى الجلد أجزاء ، وهو منفعل يحاول أن يشعل خياله ليجد ما وراء الجلد أو يخمنه ، كان كذلك حين دخلت الحالة الرابعة .

ولم يتنبه ، ولم يعد من الوديان التى كان يمرح فيها خياله ، ثمة سؤال صغير مضى يشغله ، ترى أهى حالة مخص أو تسمم . وكالعادة مضى يسأل دون أن يعنى بسماع الجواب . . اسمك ايه ، وعاوزه ايه وببوجعك ايه . .

ولم يعتدل الا حين خبط عسكرى كان واقفا أمام مكتبه ، خبط قدميه فى سلام عظيم ، وقدم له أوراقا كثيرة يحتويها دبوس واحد وممر الدكتور مازن على الاوراق مرور الكرام . اشارات ومكاتبات

مكتوبة بسماجة لا طريف فيها ولا جديد .. ولم يقرأ منها ولا فهم حرفا .

وتطوع العسكرى بالشرح ، وقال ان الحانة التى يستصحبها امرأة مراقبة ، ليس لها منزل تراقب فيه ، ولذلك تقضى الليل فى القسم ، وقد أبلغت الليلة أنها مريضة و ..

ولم يدعه يكمل هذه السخافات ، أشار اليه أن يصمت ، وتطلع الى المرأة بحب استطلاع حقيقى . لم يكن فى حياته قد رأى امرأة مسجونة أو حتى مراقبة ، وكان يعتقد أن الواحدة منهن لا بد مجرمة طويلة عريضة تفوح منها القوة ، وينضج جلد لها شراسة ، ولها عين فيها قحة لا يطفئها الرصاص ، وأخرى فيها دهاء الثعالب وسم الافاعى .

ودهش . فأمامه ، وعلى الارض المصنوعة من بلاط كانت تجلس المرأة وقد ضمت أجزاءها الناحلة ، ووضعت رأسها بين زكبتها بينما راحت عيناها الحابيتان تطلان اليه فى وهن القطة الجائعة المتعبة . وأصيب بخيبة أمل ، كانت المرأة دودة صغيرة ، قد التفت حول نفسها ، لا قوة فيها ولا جبروت . ولا شراسة فيها ولا غدر ، ولا يصدر من عينيها الا استسلام ذليل .

وهز الدكتور مازن كتفيه بعدم اكتراث وقد فشل فى اقناع نفسه باجرام الدودة التى أمامه . وارتسم على شفتيه الاحتقار .

وبنفس الاحتقار هز لها رأسه ، وأشار لها بيده أن ترقد ، وهو يحس في قرارة نفسه باشمئزاز مفاجيء .

وحدق برهة في جسدها الاصفر الشاحب ، وفي بطنها الذي يتموج الجلد المشوه فوقه ، وفي يديها الموضوعتين تحت رأسها وقد أغلقت عينيها وكأنها في سبات عميق ، وكثر اللعاب في فمه وهو يطيل تحديقته .

ولو كان في النهار لما حفل بالكشف عليها ، ولكنه الليل ، ومزاجه المعتدل ، وهكذا أخذ يستمع الى أنفاسها ، ويعد نبضات قلبها ، وهو حريص كل الحرص على لم معطفه حتى لا يلامسها أو يحف بشيا بها .

وسألها في فتور وهويأمرها بإدارة فمها بعيدا عنه ، لماذا سجنوها وكان وهو يسألها يعرف أنها ستنكر ، وتصر على براءتها وعلى أنها مظلومة مضطهدة ، كلهم مجرمون كذابون ، يقتلون القليل ويمشون في جنازته ، ولكن المرأة قالت في هدوء غريب :

— مسجونة بحشيش .

وخلع الدكتور مازن السماعة عن أذنه كمن لسعه معدنها ، وعبر جسدها بنظرة واحدة ، وتطلع اليها ، ثم عاد الى كشفه وهو مضطرب يكاد يخاف .

وقال لها : كحى . فكحت ، وانهجى ، فنهجت ، وصرخ فيها أن

• تتنفس بعمق ففعلت •

• وانتهى الكشف •

وحين كانت المريضة تصب فوق يده الكحول ليطهرها ، مع أن يده لم تكن قد لامست المرأة ، ولا علقت بملابسها ، كان وهو يفرك يديه ضيقا بهؤلاء الناس الحمقى الذين لا يجدون الا الاجرام وسيلة لقتل أنفسهم •

وقال لها فى تشفى ، وكأنه يعاقبها ، ويحس بالارتياح وهو يعاقبها :

• انتى عيانة •

• فقالت وهى ترتدى ملابسها وتتناءب الكلمات •

• بايه يابيه •

وضايقته الطريقة التى سألته بها • ان هؤلاء الناس لا يحسون • ان كلمة المرض كلمة مرعبة تبعث القشعريرة فى الاوصال ، فكيف بها تتلقاها هكذا دون أن يتحرك لها ساكن • ضايقته الطريقة فقال :
• انت عندك سل •

قالها وهو مقدر أنها ستشعل النار فى رماد تلك المرأة ، فتنتفض وتصرخ ، وتتوب عن لهجتها المتثأبة ، وتبكى ، وتلطم وجهها على الاقل ، ولكنها أجابت وكأنها تحلم وتريد اغاظته :

• طب مانا عارفه •

وهم برش الكحول فى وجهها وعينيها ، ولكن هدوءها أعداء ،
وترأخت يده القابضة على الزجاجاة ، وترأخت معها أعصابه ،
وجلس على الكرسي ، وأشعل سيجارة ، وبدأ ينظر الى المرأة من
جديد . انه بالتاكيد ليس أمام حالة أخرى ، ليكش فيها فترتعد
خوفا وهلعا . انه أمام مريضة من نوع جديد ، لا يفلح معها
تهويشه . ثم انها مريضة بالسل . ومع أنه طبيب الا أن خوفه من
السل ومرضاه كان لا يقل عن خوف غيره من الناس . وقال لها فى
لهجة رقيقة نوعا :

- وعرفت ازاي ؟

وبانت لها سنة صفراء . تلمع فى فمها ، وابتسمت ، أجل
ابتسمت ، وجهها الاصفر كالكرمان تداخلت فيه أجزاء وتقلصت
أجزاء وأفلح فى رسم ابتسامة ، وقالت انه ليس أول طبيب يراها ،
والمرض له قصة ، فهو قد داهمها فى السجن ، فى الايام الاول من
سجنها ..

وعبثت أصابعه بالسيجارة ، وضغط عليها فى عصبية ، وكانت
سحب الدخان قد حملها الهواء بعيدا ، فبدت المرأة واقفة أمامه ،
نصف مستندة الى الحائط ، وكلامها ينساب فى هدوء غريب محير ،
وملامحها لا تنفعل لكلامها كأنما هى تتحدث عن كارثة أصابت
انسانة أخرى .

وتحت وقع حديثها المنخفض اللين ترعرعت رغبته فى معرفة
حكايتها • لم يكن هذا طبعه ، فهو لم يتعود أبدا أن يأخذ ويعطى
مع أحد من مرضاه ، ولكنه لم يستطع المقاومة ، ونسى نفسه ،
والمرضى المنتظرين ، وسألها فى طفولة أن تحكى له قصتها •
ولم تعتدل أو تتنحج أو تصطنع التذكر ، انما ، وهى نائمة
صاحبة ، والكلمات تجهضها شفتاها فتخرج ميتة لا حرارة فيها
ولا أنفعال ، مضت تقول :

- ياخويا لا حكاية ولا حاجة •• أنا أصلى م الفيوم •• وأوعى
ألقى نفسى شايله الشاى مع أبويا فى الموقف •• ولما مات المرحوم
بقيت أعمل أنا الشاى •• وحبني جدع سواق •• وحبلى ••
وسقطتنى مرات أبويا •• ولما ضاقت الفيوم فى وشى جيت مصر ••
مصر أم الدنيا • هيء • هيء • هيء •• جيت مع سواق •• ومن
سواق لسواق اتبدل على الموقف لحد ما اتلميت على واد نشال
بقى ياخذ على فلوس •• وعلمنى الصنعة •• أهه قلمك بالكر
أهه •• حسيت بحاجة •• هيء •• هيء •• والنبي نفسى أبوس
شفايفك الحلوين الحمر دول •• يوه •• ما أطولشى عليك خدنى الواد
فى قمتيه وتحبست مرة •• وطلعت •• وراقبونى وتفكر سكت
بقيت انشل برضك •• وتاجرت فى الحشيش كمان •• وبقيت
أكسب ومعلمة قد الدنيا •• ولما رجاله •• ومشيت مع العسكرى
الى كان بيراقبنى واتمسكت أنا وهو •• وآدى انت شايف

أهسى عيشة .. إلى يحب النبي يزق ..
كانت تتكلم كمن يحلم ، غير حافلة بمن يسمع كلامها أو مقيمة
وزنا للطبيب وسماحته ومعطفه ، ولاحتى ملقية بأى اعتناء الى
العسكري الواقف بجانبها منتصبا كماسورة العادم . وكما بدأت
فى هدوء ، انتهى كلامها فى خفوت حتى سكنت .

وطوال الحكاية كان وجه الطبيب كشاشة العرض تتغير عليها
الالوان وتتبدل . كان يسمع أشياء خطيرة تقال هكذا بسهولة ، وكان
وجهه يحمر ويصفر كالعدراء حين تمتد اليها يد جريئة وتعبث
بأقدس ممتلكاتها وقيمها . وكانت المرأة تعترف بكل شئ دون حياء
أو خجل ، كأنها استاذة تحاضر فى علم النفس .
ورغم كل ما اعتراه وأذهله فقد كان عليه أن يقول شيئاً يبدد به
الانتظار الصامت الذى ساد الحجرة ، فسألها ، وهو يفقه ولا يدري
لماذا يسأل أو يفقهه :

- وانت .. مالكىش أهل .. مالكىش أهل ؟

فقالت وهى تريح رأسها على الحائط :

- لى ..

- ايه

- بنت

وعاد يسأل ، وهو لا يدري لماذا يسأل .

- ليه ٠٠ انت أجوزتي ٠٠ والا ٠٠

فقاطعته وهى تسبل عينيها :

- وح تفرق ايه لما تكون بنت العسكرى والا المعلم ٠٠ أهم الاتنين

أزفت من بعض .

ومضى فى أسئلته التى كان يلقيها من وراء عقله :

- وبنتك فين دلوقت

ولح أولى دلائل الحياة فى بريق لمع من عينيها وهى تقول :

- فى المدرسة ٠٠٠

- ايه

- بتروح المدرسة ٠٠ وبتطلع الاول ٠٠ دى بت شاطرة قوى

تعجبك ٠٠

- وبتصرفى عليها منين

- ربك ما بينساش عبيده

وسألها وقد انتابه بعض الضيق :

- ومودياها المدرسة ليه ٠٠ انت ناقصة

وازداد البريق فى عينيها الخابيتين وهى تقول :

- عايزاها تطلع دكتورة

وأعقبت اجابتها بسرب من الضحكات الخليعة الميته .

وتمتم فى سره : جتك نيله . وفى نفس الوقت عثر على السبب

الذى من أجله كان يردد أسئلته التى بدت له سخيقة لا معنى لها
وليس وراءها طائل . كان عقله حتى تلك اللحظة يضرب أخماسا فى
أسداس ، ويفكر فيما يفعله من أجلها ، فهو لا يستطيع إدخالها
المستشفى فليست هناك أسرة خالية ، ولا يستطيع رفع الرقابة عنها
فليست له السلطة ، وليس لها بيت ..

وقلب الاوراق التى أمامه بيد غير مستقرة ، وتمتم وكأنما يحدث
نفسه :

- طب وح أعملك ايه بس ؟

وفوجئ بصوتها الهادئ يخترق حيرته كاليد الجريئة العابثة
ويقول :

- لا تعمل لى ولا أعمل لك .. ادينى الاجازة وخلص .

وحملق فيها وكأنه يرى شبحا من الاشباح . وبدا له كأن المرأة
مارد سيبتلعه ، وأحس بضيق ، وتبدلت لهجته فجأة وأظلمت ملامحه
وقال : طب أخرسى أنت

وأمسك بالقلم ، وحركه فى الهواء مرات قبل أن يكتب الجملة
التى لا يملك غيرها :

حضرت وعمل لها اللازم وتحتاج لأجازة من المراقبة قدرها عشرة
أيام .

وخطت ناحيته متمائلة فى ضعف ، والتقطت البقية الباقية من
سيجارته الثالثة التى كانت ترقد على الارض ، وأخذت نفسا ، ثم

أخرجت دخانا كثيرا عاليا ، ورنّت منها ضحكة خافتة وهى تقول :

— مش برضه عشرة أيام يادكتور .

وكان أمامه رد واحد : أن يصفعها ، ولكنه خجل فليس هناك سبب واحد معقول يتيح له صفعها ، وسكت . وقالت وهى تأتى على الانفاس الاخيرة من السيجارة . .

— والنبي لطلع فاطمة دكتورة حلوة زيك كده . . والنبي . .
وكادت تسترسل لولا النظرات النارية التى تفجرت من عينيه ،
فقالت :

— سبتك يعاقية بقى .

وفى هدوء بطيء ذهبت الى الركن ، وأخذت منه صرة ملابسها ،
وخرجت منحنية على نفسها وبقايا السيجارة تحرق أصابعها الجافة ،
وذرات الدخان تشيعها .

وخبط العسكرى الذى يحرسها قدميه فى سلام صاحب ، وأخذ
الاوراق ومضى .

وجلس الدكتور مازن صامتا وقد توقف تفكيره ، وشمّة غيظ
يخنقه ، واحساس بالخوف . . خوف ميت بليد يزحف عليه من حيث
لا يدرى ولا يعلم . وتحسس بلا وعى سماعته ، وزرر الباطلو . ثم
خبط المكتب فجأة بقبضة يده حتى قفز قلمه وسقط على الارض
وانقصف سنه .

وجاءت التمورجية العجوز على الخبطة ، ولم يكد يراها حتى انفجر
وراح يعيد توبييخها لقذارة القبض والبصاق العالق بالحائط . ولم
يكتف بهذا بل أقسم أنه سيكتب مذكرة للمدير تخصم ثلاثة أيام من
مرتبتها .



المحفظة



obeykhan.com

الساعة الثامنة وسامى جالس على ذلك الكرسي

الصغير فى ركن الحجرة ، وأمامه المنضدة ، والكتب

والواجبات ، والجدول ، وأمامه فوق إهاته جميعا ،



المشكلة الضخمة الكبيرة التى كان قد حدد ليلتها بالذات ليحلها .

انه لم يعد يستطيع ، فليست هذه أول أو ثانى مرة . له شهر

وهو يتفق مع صلاح وعبد المنعم على الذهاب الى السينما ، وفى كل

مرة : غدا ، أجل غدا . خلاص ياسامى خلاص ياصلاح . الساعة

تلاته أمام شباك التذاكر ، الساعة تلاته . ثم يأتى الغد ولا

يذهب . لا يستطيع الحصول على الشلن ولا يستطيع حتى أن يرى

صديقيه وجهه ليبدى لهم عذره . وهذه المرة . من أسبوع وهو

يحاول . أن (المصروف) الذى يتناوله بين كل آن لا يكفى .

والمطلوب خمسة قروش ، قال لأبيه أنه يريد كراسة ، وقال مرة

ورق أشغال ولم يحصل على ثمن لهذا أو لذاك . حاول مع أمه .

بلا فائدة . كلما ألحف عليها رفعت كفيها الى السماء وطلبت من الله

أن (يسبك) ما معها من نقود على عينيها ، ان كان معها نقود .

ما هى حكاية هؤلاء الناس ؟ انه ما طلب منهم أبدا نقودا وأعطوه ،

دائما : والله ما معنا . وأبوه ، أبوه بطوله وعرضه وكرشه الودود

وأصابه الغليظة . أبوه كله لا يتورع عن القسم أمامه بأغلظ
الايمان أن ليس معه ولا (خردة) وهل هذا معقول ؟ أمعقول أن
أباه مفلس تماما كما يحاول أن يفهمه ؟ أبدا . غير معقول بالمرّة . أنه
قادر على كل شيء . انه يستطيع أن يفعل أى شيء ، فقط ، لو أراد .
أليس هو الذى أدخله المدرسة بعدما دخل الأولاد كلهم ورفضت
أوراقه هو ؟ أليس هو الذى أقسم يومها أن لا بد من دخوله فى
اليوم التالى ، وغاب عن المنزل طيلة ما بعد الظهر وأدخله فى اليوم
التالى ؟ أنه يستطيع أن يفعل المستحيل . مرضت أخته . كانت
أمه تقول أنها ستموت وكانت تبكى . وكان سامى يبكى . وكان
أبوه هو الوحيد الذى لم يبك ، والذى قال أنها لن تموت ، وهو
الذى أخذها الى الحكيم واشترى الدواء . ولم تمت سامية . أبوه
هذا ، القادر على كل شيء قال له أمس وأول أمس واليوم أيضا أنه
مفلس . حدثه سامى عن اتفاقاته السابقة مع صلاح وعبد المنعم ،
واتفاقه ذاك ، وضحك أبوه الطيب وقال : خليك لأول الشهر
وأكثر من الطلب . وأكثر أبوه من القسم . والله ما معى يابنى .
وهل هذا معقول ؟ بيتهم كله اذن ليس فيه شلن ؟ . انهم يضحكون
عليه . انهم يظنونهم طفلا صغيرا من السهل خداعه . انهم لا يعنيه
أبدا ذهابه الى السينما ولا يقدرّون قيمته لانهم لم يجربوها ولم
ينهبوا اليها . ان المسألة بالنسبة اليهم ليست خطيرة انها ليست

كمريض سامية • ويعتقدون أنه غر أبنته يكفي أن يقسموا أمامه
لكي يصدقهم؟!!

لقد أحكم التدبير • وكل لحظة معدة اعدادا دقيقا في رأسه •
سيحصل على هذا الشئ بأسهل مما كانوا يتصورون • أيعتقد
هؤلاء الناس أنه لا يعرف محفظة أبيه ومكانها وضخامتها ، وما
تحتويه ؟ أحسبوه مغفلا الى هذا الحد ؟

الساعة العاشرة • أبوه وأمه وأخوته كلهم نائمون في الحجرة
الثانية • أنه لا يخاف من أحد سوى أبيه • أمه لا تستيقظ أبدا
في الليل • أبوه هو الذي توقظه كل حركة مهما بلغت تفاهتها •
عليه أن ينتظر قليلا حتى يطمئن الى أنهم جميعا قد استغرقوا في
النوم الى آذانهم •

وأراد أن يقضى الوقت في حل مسألة الحساب الباقية من
الواجب • ولم يستطع • كان (ثمن الشراء) يقفز أمامه ويصبح
(ثمن البيع) • وكان يضع (العلامة العشرية) على يمين الرقم
فاذا بها تساهيه وتنسل وتصبح على يساره • ونفض يده من المسألة
وراح يتأمل كالتائه محتويات الحجرة التي يذاكر فيها هو وأخته
والتي يأكلون فيها أيضا ويستقبلون الضيوف وتناله فيها
الصفعات أحيانا •

وانتبه الى نفسه على صوت يأتي من الخارج • وأصاح أذنيه •

كان بيتهم كالقبر لا يسمع فيه الا خرير الماء القليل الذى يتسرب
من الحنفية ، وسرسة الصراير فى المطبخ • وكان الحى بأكمله
ساكنا سكونا أبديا لا يقطعه سوى ذلك الصوت • • صوت وحيد
متهدج كأنما يعزى الناس على خيبتهم •

وأدرك سامى بعدما تسمع قليلا أنه صوت المذيع يقول نشرة
الأخبار •

ودق قلبه •

لقد حانت الساعة •

وغادر مكانه على أطراف أصابعه • واختار • أيطفى نور الحجرة
أم يبقيه • يبقيه • أنه خائف • والنور يونسه • وتوقف فى
الصالة الصغيرة التى تفصل حجرتى شقتهم • أبوه يشخر • عظيم •
وتقدم من باب حجرة النوم • وأدار (الاكرة) • الباب يزيق
كلما فتح • عليه اذن أن يفتحه مللى بمللى • ها هو قد أصبح فى
الداخل • الظلام ثقيل • أنه لا يرى شيئا المرة • ماذا حدث
لعينيه ؟ شعاع واحد يتسرب من الباب الموارب • أبوه يشخر •
أخته تقرض مثل الفأرة على أسنانها كعادتها حين تنام • أنه يرتعش
لماذا يدق قلبه هكذا ؟ اذا لم يهدأ سيوقظ أباه بدقة الملعون ولماذا
كل هذا العرق ؟ تقدم يا ولد • تقدم •

وتقدم سامى أكثر • فى منتهى الحذر • السرير الذى يرقد فيه

والداه وأخته على يمينه ، أخوه الصغير يرقد على (الملة) التى يشاركه فيها . الدولاب بعد خطوات قليلة على يساره . عليه أن يزحف بتقديمه حتى لا يسهو ويضطدم بأخيه النائم ويصرخ وتكون الكارثة . كف عن الدق أيها القلب اللعين . شخر يا أبى شخر . ارفع من صوتك هذا الذى طالما أرق نومي .

وحدث أن توقف أبوه فجأة عن الشخير . وتوقف قلب سامى هو الآخر ..

ولكن أباه عاد وجذب نفسا عميقا مصحوبا بشخير أعمق .. نعم .. هكذا .. هكذا .. يا أبى .. أرجوك ..

لملمس الدولاب الناعم كالحرير أصبح يحسه . ها هى قبضته المكسورة ، عليه ليفتحه ، أن يمسك المقبض بقوة ، ويرفع (الضلفة) الى أعلا قليلا ثم يجذبها بسرعة ، هكذا جرب أن يفتحها فى النهار دون أن تحدث صوتا ..

وفتح الدولاب ..

وأصبحت الملابس المعلقة داخله فى متناول يده . كان لديهم شماعتان . أمه قد أخذت شماعة بأكملها للملابسها وقاسمت أباه فى الأخرى . ولم يكن عسيرا عليه أن يفرق بين الشماعتين ، فلملمس بدلة أبيه الخشنة واضح ، والرائحة التى تنفثها البدلة واضحة أيضا ، انها رائحة أبيه .. أنه يعرفها فطالما شمها وهو يعانقه ..

وطالما شمها في « جاكته » القديمة التي يرتديها وهو يذاكر حتى لا يبرد .

بحث في أول جيب صادفه . ليس فيه سوى المنديل مكورا وأشياء في قاعه تستقر كحبات الرمل . ولم يجد في الجيب الآخر شيئا . .

وكان سامي يتوقع هذا . . اذ ليس من المعقول أن يضع أبوه نقودا في جيوبه الخارجية ، النقود في المحفظة . . في الجيب الداخلي . . ورغم هذا بحث - من قبيل الاحتياط - في الجيب الصغير الذي توضع فيه « الفكة » كان خاليا تماما . . ليس هذا فقط . . بل لم يجد له قاعا أبدا !! . .

وأحس بشيء من الرهبة وهو يدخل يده في الجيب الداخلي . ودق قلبه بعنف حين عثرت أصابعه على المحفظة . . وحين استخرجها من الجيب أحس بشيء داخل نفسه يشتمه ويلعنه وأجفل . . ولكن المحفظة كانت قد أصبحت في يده . . وكانت ثقيلة سميقة . . لها رائحة خاصة مقبضة . . وارتبك . .

كانت الحطة التي وضعها منذ الأمس تنتهي بحصوله على المحفظة . . ثم . . ثم ماذا يفعل ؟

وفي سرعة كان قد أدرك أنه من المستحسن أن يأخذها الى الحجرة

الأخرى ، ويأخذ منها القروش الخمسة ، يأخذها من « الفكة » . .
فأبوه قطعا يعرف عدد النقود الورق ، أما « الفكة » فانه لا يعرف
عددها ، ولن يلحظ غياب خمسة قروش منها . .

وتسلب خارجا . وتقلببت أمه وغمغمت وهو يمرق بين ضلقتي
الباب ، ولكن الموقف كان قد دبغ أعصابه فلم تعد تهزه أصوات أو
غمغمت . . وما كاد يصبح فى الحجرة الأخرى حتى أغلق الباب
وجر الكنبه ووضعها خلفه وجهر حكاية يقولها لأبيه اذا صحا
وضبطه مُحكما اغلاق الباب على تلك الصورة . .

وجلس أخيرا على نفس الكرسي الذى دبر عليه الخطة . ووضع
المحفظة أمامه . كانت شيئا ضخما كبيرا فى حجم الكتاب المجلد ،
وكأنها محفظة بنك . وكانت من النوع القديم الأجرى الكالنج .
وكان يعرف أن أباه يضع الفكة فى جيبها الرئيسى الطويل ، وفتحها
بسرعة ، ومد يده داخلها . ولم يجد شيئا . وقلبها وظل يرجها .
وسقط منها شيئان : نص فرنك ممسوح معضوض لا بد أنه كان
لازقا فى طياتها . . والشئ الآخر كان غريبا عجيبا . . « زلطة »
سوداء صغيرة مفلطحة شكلها لزيد . . ماذا يفعل أبوه بتلك
الزلطة ؟ ولماذا يحافظ عليها ويضعها هكذا فى أعماق المحفظة ؟ . .
أفيها سر ؟ . . وهل يتقى بها العفاريت ؟ . . أو يستعين بها على
جلب النقود الى المحفظة ؟ . .

ولم يلبث أن ترك الزلطة وأمسك بالقرشين .. قرشان ؟ ..
كل مامعه من فكة لا يتعدى « النص فرنك » .. وليته نص فرنك ..
صالح للاستعمال ، أنه يشك كثيرا فى امكان تداوله .
ما هذه المصائب ؟ .. كل ماتوقعه يصفى على قرشين ؟ !
وأخرج سامى كل ما فى باقى جيوب المحفظة من أوراق .
وتفحصها جميعا بنظرة واحدة سريعة . ولمح من خلال الكومة التى
أصبحت أمامه عشرة قروش تكاد تزهب روحها من كثرة ما تراكم
فوقها .. وكان من المستحيل أن يصدق أنها كل ما فى المحفظة
من نقود . لا بد أن البقية يحتويها ظرف من تلك الظروف اذ كثيرا
ما رأى أباه يضع فيها الأوراق الخضراء والصفراء ..
ومضى يفتح الظروف ويستخرج محتوياتها . كانت رغبته العارمة
فى العثور على الشلن هى التى تدفعه أول الأمر الى فض المظاريف
والبحث بينها ، ولكن بعد لحظات غلبه حب الاستطلاع على أمره .
كانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يطلع على مكنون محفظة أبيه ،
وعلى ما فيها من أوراق لابد أنها مهمة جدا ، لها أهمية غير عادية ، والا
لما احتفظ بها داخل تلك الحوصلة الجلدية . كثيرا ما رأى المحفظة
وهى خارجة داخلية الى جيب أبيه ، وهى مفتوحة ومطوية ، وهى فى
مكانها المعتاد ، ثم هى تترقد تحت « المخذة » أحيانا .. كثيرا
ما ألحت عليه الحواطر والهواجس تخمن ما تحتويه وتدفعه اليها دفعا

.. ومحتوياتها كلها أمامه الآن ، فأية فرصة ذهبية جاءت من السماء !! ..

لم يكن يفهم ما يقرأه تماما ، ولكنه كان مسرورا قلقا ، ذلك النوع الغريب من القلق البهيج الذى يعترى الانسان كلما أتيحت له معرفة سر من الأسرار بطريقة محرمة ..

وجد خطابا من خاله .. يتكلم فيه عن ميراث .. وعن مبلغ .. ويسلم فيه عليه .. ترى لماذا لم يبلغه أبوه السلام ؟ .. ثم ماتلك الأوراق الصدئة المهرية التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ؟ .. ان خبرها من نوع أسود قديم لم يره أبدا ، وخطها حلو ، وهذا الشيء المرسوم عليه مئذنة وقبة .. قد صار زواج فاطمة بنت عبد الله .. من تكون فاطمة تلك ؟ أ تكون أمه .. لا بد .. ولا بد أن يكون ابراهيم ابن منصور أباه .. وهذه الورقة الحمراء ؟ .. ادارة الغاز والكهرباء ؟ .. نرجو عند الرد ذكر رقم ٢٨٤ .. ايه ده ؟ .. واذا مش عارف ايه سنقطع التيار .. ماهو ذلك التيار الذى سيقطعونه وبأى شىء سيقطعونه .. وهذا الظرف المكتوب عليه : قطعة من كسوة الكعبة الشريفة هدية من العبد الفقير الى الله تعالى الحاج مبارك محمد حسن ، قطعة القماش السوداء هذه التى فى الظرف من الكعبة ؟ يااه !! ان راثحتها صعبة .. امسك ذاك أم عنبر .. هى السبب اذن فى تلك الرائحة المقبضة التى تنبعث من المحفظة ؟ ..

وكان ممكنا أن يظل سامى مستغرقا فى نشوة الاضطراب الحفى تلك ، ولكنه وفى خضم ما كان فيه ، وعت أذنه صوت السلام والراديو يذيعه ويختم به برامج السهرة ..

وفى الحال عاد الى نفسه مضطرب الحواس ، وكأنما ضبط متلبسا .. وأصبح همه فى اللحظة التالية أن يعيد الأوراق كلها الى ماكانت عليه ، بنفس ترتيبها ونظامها حتى تبدو وكأن لم يمسه بشئ . وفى الحق كانت مهمة صعبة ، ولكنها انتهت . وبقيت العشرة قروش راقدة أمامه على المنضدة ، منطوية على نفسها كالخرقة البالية . لم يرجعها الى المحفظة ، وكذلك لم يدسها فى جيبه . وكان عليه أن يقرر أمرا من الاثنين . ولم يكن القرار سهلا . اذا أخذها لابد ستتكشف السرقة . واذا تركها فقد آخر أمل فى الوفاء بالميعاد والذهاب الى السينما .

والعجيب أنه لم يفكر فى واحد من الأمرين ، كان قد آفاق من النشوة التى اتخم بها حب استطلاعها وامتلات نفسه بالحنق الشديد . كيف لا يعثر الا على عشرة قروش مہرأة .. ونص فرنك ماسح معضوض ؟ .. هذا الاب الضخم الطيب الذى يصنع المعجزات ولا يقف أمام قدرته شئ .. كيف لا يكون معه سوى مبلغ تافه كذاك ؟ ..

هذه خديعة . هذا ضحك من نوع آخر عليه . لماذا لم يعمل

حسابه . لماذا لم يكن فى المحفظة مبلغ كبير كما توقع . أين صرف النقود ؟ أين الماهية ؟

وامتدت يده الغاضبة ودست العشرة قروش فى جيبه . سوف يذهب الى السينما بخمسة . ويصرف الخمسة الأخرى . يأكل (بغاشة) و (جيلاتى) كما يأكل كل الأولاد وليكن بعد ذلك مايكون . وهو ماله ؟ وماذنبه اذا كانوا يرسلونه الى المدرسة ولا يعطونه نقودا واذا سألهم ضحكوا عليه وأقسموا أن ليس معهم واذا فتشهم لم يجد سوى ورقة صغيرة بالية .

وحتى وهو فى طريقه الى حجرة النوم ليعيد المحفظة الى الجيب الداخلى ، كانت خطواته لاتزال تحفل بالاستنكار والغضب . وحين فتح الباب وجد كل شئ كما كان ، أبوه يشخر ، وأخته تقرض على أسنانها والظلام مخيم .

ولم يأخذ حذره هذه المرة ويقفل الباب وراءه ، اذ لم يعد يهمه وهو فى قمة الغيظ مايحدث . ودلف وراءه من الباب المفتوح شعاع باهت من النور أضاء الحجرة قليلا وسقط على وجه أبيه .

وألقي عليه سامى نظرة وكأنما ليصب عليه جام غضبه . ولكنه تسمر فى مكانه وظل يحدق فيه كالآبله . كانت رأس أبيه منزلقة من فوق (المخدة) ومثنية على كتفه ، وكانت عارية ، وقد سقطت عنها الطاقة التى يرتديها وهو نائم وكان شعره خفيفا مشوشا

تلمع من تحته صلعته ، وكان فكه مدلى وفمه مفتوحا والشخير
يتصاعد منه فى غير انتظام . وسامى دائما كان يرى أباه فى
النهار ضاحكا أو مبتئسا ، راضيا أو ساخطا ، ولكن ملامحه على أية
حال كانت دائما فيها قوة وصحة وحياة تجعل أباه يبدو كالأسد
الأنيف الذى يوحى مرآة بالثقة . ولحظتها ، ورأسها منزلقة ، وفمه
مفتوح وشعره مهدل مشوش ولامحه متراخية مستسلمة ، لحظتها
رآه طيبا جدا . . . وغلبانا جدا . . . ليس هذا فقط . . . بل ان محفظته
الكبيرة الضخمة ليس فيها كلها سوى قروش عشرة ، وزلطة ، ونص
فرنك . . .

ظل سامى واقفا فى مكانه يحدق فى أبيه وكأنه يراه لأول مرة .
كان من كثرة ماتعود رؤيته قد ألفه ، وألف أن ينظر اليه كأبيه ،
وإذا به الآن يراه وكأنه ليس أباه ، وكأنه قد أصبح انسانا
مستقلا عنه ، رجلا آخر ، غريبا . . . طيبا . . . غلبانا . . . منفصلا
عنه تماما . . . له جسد ، ورأس ، وساق قد انكشف عنها ثوبه
وبدت ضامرة مليئة بالشعر . . .

وأحس بألم حاد ينتشر فى نفسه ، وشئ يريد خنقه ، ثم أحس
برغبة عارمة فى البكاء ، ثم أحس أنه يود أن يلقي كل ما بنفسه
ويندفع الى الرجل الغلبان الراقد أمامه يعانقه ويضمه بشدة .

ويقبل فمه المفتوح الطيب ذاك وذقنه النابتة الحسنة وعيونه.
المغلقة فى استسلام .

ولم يكف أبوه طوال الوقت عن الشخير . يستريح وجهه لحظة ،
ثم تخرج الأصوات من أنفه وفمه . . أصوات ممدودة غلبانة هى
الأخرى . . تكاد تقسم وتقول : والله مامعى ولا أمثلك . .
لم يضحك عليه أبوه اذن ولم يخدعه ، وهو ليس كما ظن سامى .
قادرا على كل شىء . . أنه نائم . . مستسلم . . وطيب . . ولم
يكن يخدعه . .

وتللمل الألب واضطرب شخيرة .
وتحرك سامى والأحزان تملؤه . وأغلق الباب . وأخرج
القروش العشرة من جيبه ودسها بغير حماس فى المحفظة ثم أسقطها
فى الجيب الذى كانت فيه . .

وبعدما أطفأ النور فى الحجرة الأخرى رقد بجوار أخيه على
(الملة) .

وكان يحب تلك الفترة التى يرقد فيها وينتظر النوم ، اذ كان
يحلم فيها بالقلم الأحمر الذى رآه فى المكتبة والخمسين ن خمسين
فى الانجليزى أو يفكر فى الحيلة الجديدة التى عليه أن يبتكرها
ليحصل على قرش فى الصباح .

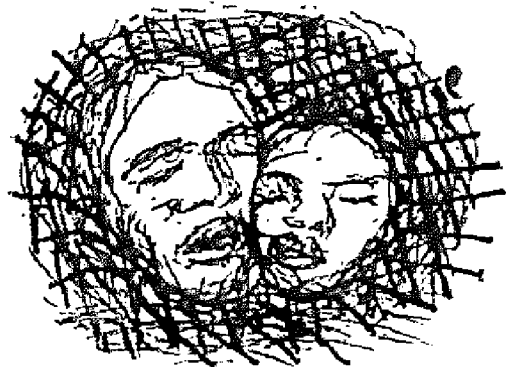
ولكن أفكاره طوال الوقت لم تغادر الرجل الراقد غير بعيد .

عنه فوق السرير ، وثمة احساس كبير يملؤه وكأنه كان يستند الى جدار واذا بالجدار ينهار من خلفه ويتركه مستندا الى الفراغ وكلما استعاد مشهد ملامحه ومحفظته أحس بهواتف خفية تنبثق في صدره وتهيب به أن يفعل شيئا .. لا بد أن يملأ محفظته بالنقود .. بمئات الجنيهات .. لا بد أن يجلب له كنزا .. لا بد أن يشتغل .. يعمل أى شئ .. وعلى الأقل يقبض عشرة جنيهات فى الشهر يعطيها لأبيه قائلا : خذ ولا تزعل .. قم وانهض ، وغط ساقك ، واستعد ملامح الأسد . قم يا أبى .. قم أنا لم أعد طفلا . أنا والله رجل . رجل كبير يا أبى لاتخف على ، سأحميك ولن أطلب منك نقودا . ولن احتال عليك لأحصل على القروش . وحياتك يا أبى لن أفعل هذا .

وتقلب أخوه وزام كمن يحلم ، ثم علا صوته ، وغمغم .. عاوز أشرب .. هه .. عاوز أشرب .

وكثيرا ماسمع أخاه يغمغم ويطلب الماء فى الليل فيظل ساكنا على مضض ولا يتحرك حتى توقظ الضجة أباه فيقوم ويسقيه .. ولكنه ماكاد يسمعه هذه المرة حتى هدهد عليه وهو يقول : حاضر . ثم قام فى حماس زائد ، وملاً له الكوب ، وعاد به ، وحده ، فى الظلام .

وقبل أن يغلق عينيه ، اعتدل كمن تذكر شيئا ، ومد يديه .
وإراح يعبك الغطاء حول أخيه ، كما يفعل أبوه تماما ، وتأكد أن
قدميه ملفوفتان في (البطانية) ، ورأسه معدولة فوق المخذة .
ثم أخذه في حضنه .
ونام .



obeykhan.com

الناس



obeykhan.com

كان

فى بلدنا شجرة (طرفة) • لم تكن كبيرة ولا عالية
أو ذات سيقان وفروع • كانت ضئيلة الحجم ،
قصيرة قميئة ، ورقها كورق العبل ، رفيع
واسطواني ، ولونها أخضر قاتم ، ولا تعرف ربيعا أو خريفا فهي تورق
على الدوام ، ولا تعرف ضعفا ولا قوة ، فهي لاتنمو ولا تصغر ، ولم
يزد حجمها أو ينقص طوال أجيال •

ولا يدري أحد كيف نبتت تلك الشجرة فى بلدنا اذ أن شجر
الطرف نادر الوجود فى الارض الطمى فهو لاينمو الا فى مناطق
المستنقعات • وكذلك لايدري أحد لماذا اختارت ناحيتنا بالذات •
كل مانعلمه أن أهل بلدنا اعتقدوا فيها ، ونظرا لوحداثيتها حف
بها نوع من التقديس ، وآمن الناس أن لابد وراء وجودها سر
باتع وكبير •

ومنذ أجيال وأهل بلدنا لايتبركون بها فقط ، ولكنهم يستخدمونها
كدواء لامراض العيون • مامن كائن وجعته عينه الا ووصف له أحدهم
ورق الطرفة • تذهب بعد الفجر الى الشجرة وتنتظر الى أن يهبط
الندى ، ثم تأخذ عدة عقل من أوراقها وتكسرها ، فيسيل منها ماء لزج

تقطر في العين الموجهة منه قطرتان ، لا ثالث لهما ، وبأذن واحد أحد
يحل الشفاء .

وأغرب مافى الامر أن الشفاء كان يحل فعلا . صحيح أنه في أحيان
كثيرة لم يكن يحل الشفاء . أحيانا كان يتضاعف المرض ، وأحيانا
نادرة كان يحل العمى أو العور ، ولكن الناس لم يكونوا يعززون الفشل
الى ورق الطرفة بقدر ما يعزونه الى نجاسة المريض مثلا أو أحد من
أهله ، أو أن المرض قد زاد واستمكن ، أو أنك لا بد قد أخطأت ولم
تنتظر حتى يهبط الندى .

ووعينا نحن فوجدنا شجرة الطرفة من معالم بلدنا الازلية ، تحف
بها القداسة وتكتنفها الاسرار ، فكنا نخاف منها ونرهبها ، ونتخيلها
بقامتها القصيرة وورقها الرفيع المسنون كعجوز شمطاء تقطع الطريق
الى التربة ، أو كأنها خالتنا أم الغول .

وشببنا فوجدنا اعتقاد أهل بلدنا فيها لا يتزلزل أو يصيبه وهن .
غزا الطب الريف ، وافتتحت في البنادر عيادات رمد ومستشفيات ،
وهم مصرون على تلك الشجرة ، فخورون بها . يحمدون الله على وجودها
في بلدنا دون سواها ، ويكونون لها أعمق التقدير حتى ليكاد الواحد
منهم يقرأ لها الفاتحة اذا ما مر عليها .

والعجيب أن الاعتقاد فيها كان شاملا . الكل يؤمن بها . الكبير
والصغير ، والفقر وصاحب القرشين ، بل امتد هذا الايمان الى

ما جاورنا من قرى ، وأصبح من المناظر المألوفة فى بلدنا أن ترى أناسا جالسين بعد الفجر حول شجرة الطرفة ينتظرون فى صمت وفى رهبة ، هبوط الندى .

وأصبحنا تلامذة ، وتعلمنا ، وعرفنا التاريخ والجغرافيا والهندسة والطب وقانون الغازات لبويل .
وبدأنا نكفر بشجرة الطرفة .

وكان أكثرنا حماسا ابن الصراف الطالب بكلية الزراعة الذى لم يكفه الكفر والالحاد بالطرفة بل راح يضيق بأهل بلدنا أنفسهم سخافتهم وعقولهم الجامدة الضيقة التى تحجرت على الايمان بشجرة لا حول لها ولا قوة .

ثم أصبحنا كلنا نجاهر بهذا الكفر ، وما لبث ضيقنا وسخطنا أن تحول الى حركة ، ودعوة ، وجاء اليوم الذى أعلننا فيه الجهاد ، وقسمنا أنفسنا . فريق يخطب فى المساجد ويقول : يا أهالى ، الطرفة تعمى كل ذى عينين . وفريق يلف على الناس والمصاطب ويقول : يا اخوانا الحكومة فتحت مستشفيات ، عليكم بها ودعوا الطرفة . وفريق وقف بجوار الشجرة يستقبل كل من جاء ويشرح له ويحاول أن يشنيه عن عزمه . وكان الناس ينظرون الينا ونحن نفتح أفواهنا ونخرج منها كلاما سريعا كثيرا ، ويهزون رؤوسهم ويقولون لبعضهم البعض : كلام حلو يا أخى . كلام مضبوط .

واعتبرنا أن المسألة قد انتهت وإن عيون الناس قد سلمت على أيدينا وإننا نستحق على مجهوداتنا تماثيل شكر وآيات تكريم . ولكننا بعد مضي أيام اكتشفنا أن الناس لم تكف عن استعمال أوراق الطرفة ولا حتى اختفى الجالسون تحت الشجرة ينتظرون هبوط الندى .
وقلنا إلى الجهاد من جديد .

وظللنا أياما كثيرة نكلم الناس ونناقشهم ونضرب لهم الامثال فيهزون رءوسهم ويوافقون بل يغالى بعضهم فى لوم نفسه ويقول :
لا مؤاخذه يا فندى انت وهوه . أصلنا جهلة . والجاهل أعمى . والعتب على النظر .

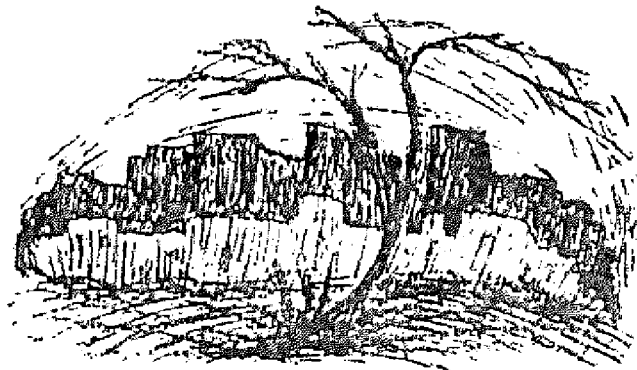
ولا نتركهم حتى يبدو عليهم الاقتناع الصادق الاكيد . وما أن يمرض منهم مريض حتى تكون أوراق الطرفة هى أول دواء يوصف وأول ما يستعمل .

وظللنا أعواما كثيرة نحاول ونىأس ونفشل ونفشل . وكالعادة لم يستمر جهادنا كثيرا ، فما لبثنا أن نفطنا أيدينا من الامر وقد بدا أن ليس ثمة قوة نستطيع زلزلة ايمان الناس بالطرفة .

ولكن ابن الصراف ، وكان نحيفا عصبيا عنيدا ، وإن كان قد أصابه اليأس كما أصابنا الا أنه لم يسلم بالهزيمة ، وظل الامر يشغل باله ويكاد لا يفكر فى غيره .

وذات يوم عنت له فكرة ، فأخذ أوراقا من الطرفة وذهب إلى أستاذ

- غى كليته ، وحكى له الحكاية وطلب منه تحليل الاوراق .
- وفوجئنا حين أثبت التحليل أن فى الورق نسبة من كبريتات النحاس التى تصنع منها القطرة .
- وأشعنا الحبر فى البلدة ، أشعناه ونحن نصفق ونهلل وكأننا اكتشفنا كنزا كان مجهولا . وقلنا للناس :
- لا ضير عليكم من استعمال الطرفة ، ففى أوراقها قطرة .
- وهز الناس رؤوسهم بلا حماس وغمغموا : جالكو كلامنا .
- كل ماحدث أنه ، حين مرت أعوام كثيرة ، وعدنا الى بلدنا موظفين وخبراء ومحترمين ، وجدنا أن شجرة الطرفة لم يعد لها ذلك التقديس القديم ، وانها هزيلة شاحبة لم يعد حولها منتظرون ، ولا تخيف كما تخيف أم الغول .
- ووجدنا الناس قد كفوا عن استعمال أوراقها فى علاج العيون .
- وحين كنا نسألهم عن السبب ونحن مذهولين ، كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون : سيبك ياشيخ .. القطرة برضك أنصف ..



obeykhan.com

الوجه الآخر



obeykhan.com



الواحد منا اذا عشر على «نص فرنك» وهو صغير
طار من الفرحة . وحين كبرنا أصبح مايفرحنا أن
نعثر على انسان ، أو كلمة طيبة . . !

والحركة ، كما يقولون ، بركة ، وأن تقص شعرك كل مرة عند
نفس الحلاق شيء ممل حقا . ولم أكن أستقر عند أحدهم . ولم أكن
أطمع أن أدخل صالونا ذات صدفة فأجد صاحبه انسانا كالاسطى
زكى . كان كل همى اذا مادخلت عند الحلاق أن أعد نفسى لعملية
التعذيب القادمة : وقص الشعر عملية تعذيب يؤديها
الانسان كالواجب الثقيل المفروض ، اذ ما معنى أن يجلس
الواحد نصف ساعة أو أكثر ، ورأسه مثنية على وضع معين ،
وعروق رقبته متصلبة تكاد تنقطع وكل هذا ليقصر شعره بضعة
مللمترات ، أو ل يبدو وجهه أكثر سامة . . !

كان الاسطى زكى الذى أسلمته رأسى أمرى رجلا غريبا ، فصوته
رقيق كأصوات النساء ، ووجهه أحمر كولاة الاتراك ، وهو
قصير سريع الحركة كمخلوقات والت ديزنى ، وفى عينيه ذكاء ،
والاعجب من هذا سيجار توسكانيللى ، لا يغادر فمه مطلقا ولا مشتعلا

وكانما ولد به ، اذا أشعله يفعل هذا بثلاث عيدان كبريت ، ويكتفم
الدخان المتصاعد منه أنفاسى ، دخان ثقيل قابض كأنه مصنوع من ذرات
رصاص ، واذا انطفأ تركه بين شفثيه وكلما نطق يتلاعب السيجار
الى أسفل وأعلى وكانما أصبح جزءا من تقاطيعه . وكان أكثر شعر
رأسه أبيض منكوشا كشعر المذهولين ، وهناك وجوه لا تحس
بملامحها ، وكنت تحس أن فى وجهه أنفا . ولم يكن يرتدى البالطو
الذى تعود الحلاقون ارتدائه ، كان يرتدى قميصا وبنطلونا ، القميص
من قماش لا يستعمل للقمصان ذو خطوط غامقة كثيرة وليس له ياقة
ومفتوح عند العنق يظهر بقعة حمراء من صدره فيها شعر كثيف
أبيض ، والبنطلون حائر فى وسطه لا يعرف على أى جزء من كرشه
المقوس الأملس يستقر . وهو كالمكوك لا يهدأ فى نفس الوقت
الذى يقص فيه شعرى كان مشتبكا فى ثلاث مناقشات مع زملاء ثلاثة
له ، واحد دخل معه قافية حول البامية والقرون ، والاخر يحدثه
عن طريقة مبتكرة لعلاج المرارة ، والثالث يضحك معه على الاثنين .
وينثنى فجأة ويهمس فى أذنى بتعليق أو كلمة ترحيب . ويسألنى
ان كنت فى حاجة لجريدة ، ولا ينتظر جوابى ، ويرتفع صوته باحثا
عن « الاثنين » ولا يجدها ، ويشتم الصبى ، ويجد أن « آخر ساعة »
قد طارت ، ويعود الى بالأهرام وعلى وجهه ابتسامة خجولة آسفة ،
تكاد من برودتها تطفى « ولعة سيجاره » .

والمقص بين اصبعيه ، لا يكف عن الطقطقة به لحظة ، وكأنه حاو
يقوم باستعراض أمام الناس ويريههم معجزة

ويبدو أنه كان معروفا مشهورا ، واسمه تتقاذفه الأفواه كالكرة
الشراب ، والداخل والخارج والزبون والزميل والجميع يعاملونه كما
لو كان لعبة طيبة لطيفة مهما سخرت منها فلن تعقب ، واللعبسة
تغرى باللعب ، وهكذا لم يكن أحد يدعه على حال ، ولم يكن يبدو
عليه الضيق بأمثال تلك المداعبات ، بل لعله كان مسرورا . كنت
الوحيد المغيظ ، فرقبتى هى المثنية ، والعبث كله على حساب رأسى
وأعصابى ، والرجل كان باديا أنه تعدى الخمسين ، ولا يستطيع
الانسان أن ينهره بسهولة .

وبلغ بى الضيق منتهاه ، ومن كثرة ضيقى أمرت الصبى الواقف
ينش عنى الذباب أن يكف ، فان يحس الانسان بالعذاب لأنه يقضى
نصف ساعة وهو جالس أمر قد يحتمل ، أما أن يقضى صبى صغير
فى العاشرة من عمره اليوم بطوله واقفا فى مكانه لا يتحرك ، ولا
يفعل سوى نش الذباب عن وجهه الزبائن وكأنه آلة ، فأمر لا
يحتمل .

والظاهر أن الأسطى زكى لم ينتبه الى أنى السبب فى توقف
النش فقد نهر الصبى وأمره بمضاعفة جهوده فى طرد الذباب . ولم
يكون هناك الا ذبابتان ، واحدة لا تتحرك من فوق المرأة ، والأخرى

تحوم حولنا ، اذا نفث الأستطى زكى دخانه فرت . واذا كف عادت .
وانتهزت الفرصة وانفجرت أطلب من الصبى أن يكف وأقول
للأستطى زكى : حرام هذا تعذيب وقلة انسانية .. الخ .. الخ .
وابتسم ردا على غيظى وقال : امال .. امال .. ينش ..
لازم .. !

وعسدت أردد له ما قلته ، وعاد يقول وهو حائر بين الضحك
والابتسام :

- أبدا .. أبدا .. الا دى .. دا لازم يقف كده .. لازم كده .
- ليه ؟ ..

- امال .. امال .. عشان يتعلم .. ينش ويتعلم .. لازم كده
.. لازم يقف هنا عشان يشوفنى وأنا بشتغل ويتعلم .. الا دى ..
والى حد ما كاد رأيته يقنعنى ، ولكن الصبى على أى الحالات كان
يتعذب ، ورد على قولى . بقوله :

- آه .. عذاب .. معاك عذاب .. انما .. أصول الكار ..
يتعلم ازاي أمال .. سيدنا أيوب كان صياد .. وسيدنا عيسى كان
نجار .. أنا اتعلمت كده .. كلنا كده .. أصول .. الواحد لازم
يكون له صنعة يأكل منها عيش .. الا دى .. هى اللقمة اللى من
غير تعب فكرك يبقى ليها طعم .. الا دى .. كارنا كده .. مش
بالسهل ح يتعلم ازاي الا كده .. نش يا ولد نش .. نش
يا جنس كلب .. نش .. الا دى ..

فقلت وأنا لا أزال ممتعضا : طيب .. ينش ينش .. لكن ضرورى

الشتيمة يعنى ؟

فأغرق فى الضحك وقال : ضرورى .. ضرورى قوى .. يتعلم
ازاى الا بالشتيمة .. دا جاى هنا غصب عنه .. فكرك هو عايز
يتعلم الحلاقة .. الا دى .. أبدا .. دا عايز يجرى ويتنطط زى
التلامذة .. يتعلم ازاى الا اذا خاف .. يخاف يتعلم .. وهى دى
شتيمة .. أنا وأنا قده كان أبويا الله يرحمه يتلعن فى تربته ألف
مرة فى اليوم .. كنت أزعل .. انما ما أغلطشى .. وكده اتعلمت
.. هى دى شتيمة .. احنا كلامنا كده .. أصل لا مؤاخذة الصنعة
الباردة كلامها بارد .. كلامنا كده .. ح نعمل ايه ؟ يا واد حوش
الدبانة دى .. الله .. أنت عايزها تدخل فى بقى .. يعنى ، لازم
أوسخ يعنى .. الا دى ..

وفطنت وهو فى منتصف كلامه الى شىء ، فهو لم يكن قد سألنى
رأى فى الطريقة التى أفضلها لقص الشعر ، وعادة الحلاق أن يأخذ
رأى الزبون ، هو لم يكده يلمح رأسى أمامه حتى انهال عليها قصا
وتوضيبا دون أن يحفل بسؤالى ، فقاطعته ولا يزال غيظى لم
يتبدد :

- تسمح .. والله أنا عايز التدریجة ..

فقاطعنى هو قائلا :

- عارف .. عارف .. سيادتك بتحب تكون متوسطة .. مش

كده .. الا دى ..

ودهشت قليلا وقلت :

- ايش عرفك .. ؟

فقال وهو يرفع عينيه عن رأسى ويعتدل وقد فتحت يده المقص
وأخذ يقطع على الفاضى .. والمشط فى اليد الأخرى ، والسيجار
فى منتصف المسافة :

- عرفت ازاي ازاي .. أنا بعرف كده .. المسألة نظر ..

نظرة واحدة للزبون أعرف هو عايزايه .. الا دى .. نظرة واحدة

.. عرفت ازاي ؟ كده .. بالفهلوة .. آمال الواحد بقاله أربعين

سنة فى الكار ده ازاي .. بنلعب .. الا دى ..

ثم عاد الى العمل ، وقصر قامته القصيرة ، وركز انتباهه على نقطة

لا بد كانت استراتيجية جدا من رقبتي وراح يعمل فيها بطرف المقص

بكل دقة وحنكة ، وعينه مزرورة ، ونار السيجار قد اقتربت جدا

من أذنى حتى لتكاد تلسعها ، وأكمل من خلال فمه المضموم :

- النبى عليه الصلاة والسلام قال : اعمل لدنياك .. واعمل ..

يعنى اعملوا .. مش تهزروا .. لازم الواحد يتفهم الناس .. شفت

ازاي .. أهو حضرتك مش متزوج مثلا .. لا مؤاخذه أنا بس يعنى

حببت أورى سيادتك .. ح تقولى ليه .. كده .. بالفهلوة ..

ح تقولى عرفتها ازاي .. أقول لك ما أعرفشى .. كل واحد بيبان عليه .. المتزوج بيبان عليه ، والعازب بيبان عليه ، وكذلك الفقير . وانقلب سخطى عليه الى سخرية ، ونحن لا نترك فرصة للتنكيت الا انتهنزناها ، فقلت :

- ايه .. أنت بتقرالى قفايا والا ايه ؟

ولم يضحك ، وحسبت السبب أن النكتة لم تعجبه لاني أنا شخصيا حين أعدت النظر فيها وجدتها نص نص ، حسبت هذا لمولا أنه قال :

- بالضبط .. بالضبط كده .. أهى دى الفهلوة بقى .. وخربت بيته فى سرى .. وتركت عملية الحلاقة كلية والتفت الى هذا المخلوق القصير ذى الوجه الأحمر ، أن لحسته قد زادت عن حدها كثيرا .. وقلت له وأنا أهز رأسى كمن يهزها الى مخرف كبير :

- يعنى سيادتك بقى بتقرا القفوات ؟

فقال :

- لا .. مش قوى كده .. يعنى .. الا دى .. هى القفوات لا مؤاخذه فناجين والا كوتشينة .. الحكاية بالويم يعنى .. فسألته ضاحكا :

- هيه .. طيب .. وايه تانى فى قفايا ؟

فابتسم فى تواضع وقال :

- يوهود .. حاجات كتير .. مثلا .. يعنى سيادتك مثلاً عليك
أعصابك .. يعنى لأمراة عصبى شوية .. ومع كده ابن حلال
بتكتم ..

وخربت بيته مرة أخرى فى سرى ، فقد كان ما قاله صحيحا
بعض الشيء .

وهنا التفت للصبي وقال :

- المراية يا ولد ..

وحين عاد الولد بالمرأة تناء لها منه بعد أن شتمه لتلكؤه ، ومسحها
أولا بالفوطة ، ثم أمسكها فى وضع يسمح لى بأن أرى قفاى وحركها
وهو يقول :

- شوف سيادتك بقى .. تعجبك التدريجة .. كويسة ..
كويس كده ..

كان يقول هذا بصوت جاد وملامح متألمة وهو يتطلع الى رقبتى ،
ويرقب نتيجة عمله كما يتأمل الفنان لوحة انتهى منها ..

ورحت بدورى أحقق فى المرأة ، وأحاول أن أستشف ما فى
رقبتى من شذوذ أو بروز يكون قد أوحى للأسطى زكى بما قاله ،
ولكنى لم أجد شيئا ، وعبرت له عما يجول بخاطرى ، فابتسم
ابتسامة الحاوى العجوز ، وقال وهو يضبط المرأة التى خلفى :

- بص سيادتك .. بص كويس .. شايف ايه .. رقيقة ..
مش كده .. وشعر .. الناس بتسميهم قفا .. أنا بسميهم وش ..
.. أنا عندي القفا وش بس من الناحية الثانية .. بنى آدم زى
السكين بوشين فليه نسمى الناحيا دى وش والناحيا دى قفا .. هنا
وش وهنا وش ..

وسكت فجأة ، وسهم ، وهامت عيناه ، ثم نطق بصوت مضموم
خيل الى أنه يخرج من سيجاره الأسود :
- أما حنة وزن !

ورأيت طرف المرأة يطالعنى بجزء من الحنة ، كان نصف امرأة
ماشية فى الشارع طويلة وسمراء وممتلئة ملتبهة ، وكما هام فجأة
عاد فجأة ، وكان أول ما فعله أن شتم الصبى وأمره بنش الذباب ،
وكان الصبى ينش فعلا ولا حاجة به الى أمر أو سباب ثم استطرد :
- ليه ما ينفعش وش .. أنا وجهات نظرى كده .. أنا بشوف
ده .. وأشوف ده .. طول النهار وشى فى قفا الزبون .. بشوف
فيه كل حاجة كأنه وش .

وكان يتحدث طوال الوقت بصوت سريع منخفض وكأنه يخاف أن
يسمعه أحد غيرى ، ولكنه خفض صوته أكثر على حين بغتة وهمس
فى أذنى :

- وبينى وبينك الوش الورانى ده أحسن من القدمانى .

ولم أستطع أن أعلق أو أسأل أو أوقفه لحظة . كان كاللعبة التي
ملئ زميلكها وانطلقت تتحرك وأصبح لا يمكن وقفها حتى تفرغ
شحنتها ، واستمر يقول بصوته الخافت المتلصص الخافل بالحماس
وكأنه نبي يبشر برسائله في السر :

- القدماني دهه حتى باظ .. بقى بترينة .. ما عدش ينفع ..
اتعلم الحركات .. بقى يمثل وباط .. الواحد يبقى قلبه شايل الهم
ووشه بيضحك .. ويبقى وشه بيقول لأ .. وهو من داخلته بيقول
أهين .. الا دى .. شوف يا أستاذ .. على قد ما تقدر قول على الوش
القدماني دهه .. دهه .. الله يلعنه .. لا مؤاخذه ما أقصد كش
.. باردون .. الرك كله على القفا .. هو الوش المظبوط ..
النضيف قفاه نضيف .. والعيان قفاه عيان .. والغنى قفاه ملظاظ
.. هو ده الوش الى بحق وحقيق .. هنا هه .. كل حاجة
هنا هه !

وقاطعه صوت جاءنا من بعيد ، كان صوت زميل له يسأله عن
البودرة ، وحسين هب الأسطى زكى من استغراقه في الكلام معي
ورآه زميله وهو في موقفه ذاك ضحك وقال وهو يخاطبني :

- أظن قاعد يقول لك عن القفا يا بيه .. دا أصله دوشجى ..
خلي بالك منه .. دا اسمه الأسطى قفا ..

وامتلاء الصالون بالضحك والقرقعات ، واحمر وجه الأسطى زكى

قليلا ، وبدأ عليه حزن سريع ، ولكنه التفت لزميله وقال :

- قفا قفا ياسى أنور الا ادى .. قفاك يملا حلة .. قفاك يملا حلة ..
ومرة أخرى دوى الضحك وانصرفت عنه الاُنظار فانقض على
أذنى من جديد .. ويبدو اننا لا نتأثر بمعنى الكلام فقط ولكن
أيضا بالطريقة التى يقال بها . وأول الأمر كان زكى يضحك ويصيح
الهلزل كلامه ، ثم بدأ يتكلم وكأنما ليندهلنى بما يقول .. ثم تطرقت
الى صوته رزانة ووقار وبعد أن كنت أسمع له ساخرا ، تطرقت
الرزانة الى سمعى أنا الآخر ، وبدأت أنصت :

- بيضحكوا .. والله بيضحكوا على أرواحهم .. داحنا فى نومه
والله .. دول بيضحكوا على بعض .. الراجل يبقى مزوق من قدام
وقفاه زى الطين .. يبقى ده لا مؤاخذه راجل مش نضيف وعائز
يقول للناس أنه نضيف .. بيضحك على الناس .. كل الناس
بتضحك على الناس .. بيقولوا على الاسطى قفا .. بيقولوا على
ملحوس .. تعرف سيادتك بيقولوا على ملحوس ليه .. عشان
وشى زى قفايا .. تسمع ..

وخلع رأس الكرسى بسرعة ، وطفى وجهى بالرغوة ، وسن الموسيقى ،
ووضع السيجار جانبا بناء على طلبى ، وبیتما الموسيقى يعمل ، ويزحف
فوق ذقنى بخفة ومهارة . مضى هو يقول :

- أهو أحنا كده يا ولاد العرب .. ثم تعالى هنا .. تعرف ان

الناس ليهم طبايح غريبة .. قلت لى ازاي .. كل واحد عايز يخلي
وشه القدمانى مختلف عن الباقيين ، وكل واحد عايز وشه الورانى
يخليه على قد ما يقدر زى الباقيين .. ده يربى شنب قد كده ، وده
يخليه دوجلاس صغير .. وده دوجلاس كبير .. وده يدوبك خط
.. وده يقول والنبي تخلي القطعة طويلة .. وده يقول خليها
انجليزى وحياتك .. كل واحد عايز وش لوحده .. انما تيجى
للقفا .. الى رقبته قصيرة يقول خلى التدريجة عالية والى طويلة
يقول خليها واطية .. ليه ؟ علشان ما يبقاش مختلف عن بقية
الناس .. عشان يبقى طبيعي . .. اتأمل يا أستاذ فى أحوال الخلق
.. التلميذ ولا مؤاخذه عايز يبقى وشه زى وش البيه ..
والصناعى عايز يبقى وشه زى وش التلامذة .. والفلاح عايز يبقى
زى الافندى .. وكلهم عايزين قفواتهم تبقى زى بعض .. بص
للزباين والناس الى ماشيين فى الشارع .. بص لهم كويس ..
تلاقى لهم مليون وش وقفوا واحد بس .. قفا واحد بس ..
حكمته .. ربنا حط فى كل واحد عقل وقال له امشى .. قوم
شوف .. الا دى .. يقولوا على ملحوس .. يقولوا حلاق ..
يقولوا اللى يقولوه .. انما والله العظيم ثلاثة بالله العظيم الناس
بتضحك على نفسها .. كل واحد بيضحك على نفسه .. وكلهم ليهم
قفا واحد .. قول لى يا أستاذ .. بدمتك قول لى .. مادام قفاهم

واحد ٠٠ ليه عايزين وجوههم مختلفين ؟

فسأله وأنا فى تفكير عميق :

- تفكر ليه ؟

فهز كتفيه وقال :

- والله ما أعرف ٠٠ كله مش داخل مخي ٠٠ أنا يا عم كلهم عندي واحد وحياتك ٠٠ ما فيش حد أزيد من التاني ٠٠ كلهم عندي قفوات ٠٠ نش يا ولد نش ٠٠ نش جك وجع ينشك ٠٠

وكان قد انتهى من ذقنى وأعمل يده وأصابعه فى شعري وسواه،
ومضى يداعب الشعرات القليلة الناشزة ويحاول اخمادها
وقلت له وأنا أغار الكرسي :

- يا أسطى زكى

- نعم ٠٠٠

- نفسى تقول لى ايه الى طلعت بيه من ده كله ؟

ولم يجبنى كان قد لاحظ بضع شعرات فى رقبتى أخطأتها ماكينته،
فرجاني أن أعود الى الجلوس ، وانطلق بخطواته الكثيرة السريعة وهو
يدفع هذا ويشاكس ذاك ، وعاد ومعه ماكينة صغيرة .

وما أن بدأ يعمل حتى نتشت الماكينة الشعر بدل أن تقطعه ،
وسبب لى هذا ألما فقلت : أخ ٠٠ وما كدت أقولها حتى أغرق فى

الضحك ، ضحك خاطف قصير ، والتفت أرى ما يضحكه • ولم أجد
شيئاً وسألته ، فقال وهو يتفرض الشعر عن ملابسى :
- بضحك ليه ؟ أصلى هف على الضحك - ما هى حاجة تضحك •
أنت مش بتسألنى طلعت بايه من الحكاية دى كلها •
ولا حاجة وشرفك عندى •• ولا حاجة •• كل اللى طلعت بيه أن
المكنة دى بقالها خمس سنين بتنتش ، وحلقت بيها لبيجي عشرة
آلاف واحد •• وكل زبون كان لما توجعه النتشة يقول أخ •• كلهم
•• زى أنت ما قلت •• نعيما •• شرفتنا •• ما أعطلكش •• نش
يا ولد •• نش



داوود

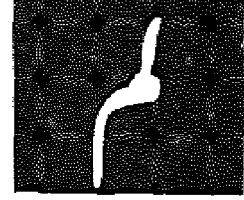


obeykhan.com

بناقش أحد الفتوى التى تطوعت بها « الداية » ،

وكيف يناقشها أحد ؟ العائلة كلها تلهفت

شهورا ، واستعدت للحدث الضخم



ايما استعداد ، الاب ماكاد يرى المولود الجديد ، حتى أحس

وكأن قلبه قد اختفى - برضاه - من صدره ، وأصبح له صراخ

وأنين ، وانتفض حياة جديدة ، لفتها الداية فى اللفائف ، وكان

ابنه الاول . والام ، أم الولد ، ظمت تثن وتتلوى وهى حامل ، وتلعن

الحمل و « سنيته » ، وتصرخ صراخ المستغيث من الحمل بالميلاد

ساعة الميلاد ، ولكن ما كادت تنفصل عنها « حنة اللحمه » ، وتراها

فى لونها الابيض المشرب بحمرة ، وتكشف لها الداية عورتها فتبلغ

قمة السعادة بالولد ، ثم يصرخ هذا الولد ويستغيث ، وتعطيه

ثديها ، وتحس بنغمشة حبيبة تسرى فى جسدها ، والولد النونو

العفريت يطبق بشفتيه الصغيرتين اللذيتين على لحمها ، ويمتص

منها اللبن فى مهارة ودهاء وكأنه تعلم الرضاعة خفية وهو لا يزال

فى بطنها ، ما كاد هذا كله يحدث حتى انقلب الصراخ والالام الى

محبة دافقة مفاجئة تغمر كيائها كلما مص الولد ثديها أو أخذته فى

حُضِنها أو رَفَص المَفائِف بِساقه المَلْظِظَة القَصيرة التي لا تَكَاد تَتَعَدى
أَصْبَع اليَد ..

أَجَل .. كَيْف يَجْرُو أَحَد على مَنَاقِشَة الدَايَة في فَتوتِها ، وَقَدْ
دَخَلت تَصْبِغ على الام بَعْد أن مَضَى على وَلادَتِها يَوْم . وما كادت تَجْلِس
وتَخْرُج عِلْبَة السِجائِر ، وتَشْعَل سِيجارَة وتَأْخُذ نَفْسًا وتَبْتَلِعُه
وتَنفِثُه حَتَّى قالَت :

- بِس أنا خايفه عليكى يا أم سمير (اذ كانت قطعة اللحم قد
تَحولَت بَيْن يَوْم وَليلة الى سَمير) ..
وأَحسَت الام بِنَغمِشَة حَبيبَة مِنْ نَوَع آخَر نَسَرى في نَفْسِها ،
نَغمِشَة فَرَح واحساس بالمسئولية ، تاما كَتَلَك التي أَحسَتِها يَوْم
أن اِكْتَشَفَت لاول مَرَة وهى لا تَزال بَنَتا أَنها أَصْبَحَت أنثى . ولَهذا
قالَت في صَوْت واهن لَمْ يَكفِها وَهَنه وَلَكِنها أَضَافَت اليه وَهنا آخَر
دائِما تَتَصَنعُه الوالِدات :

- كفى الله الشر يا أختى .. ليه ..

فَأَجابَت الدَايَة وهى تَنفِخ نَفْس الدِخان في وَلَعَة السِيجارَة فَتَحْمَر
الْوَلَعَة كَمَا يَفْعَل عَتاة المَدخِنين الرِجال :

- بَقى تَبقى اسم النَبى حارسِك والدِه .. وتَخلى القِطعة قاعِدَة
معاكِ في بَيت .. انْتى مَش عارفِه ادلَعدى ياخْتى اِنها وَلَدَت هِيَه
رِخْرَه ..

- ولدت ؟!

- أي والنبي ياختى .. لقيتها راقدة .. اسم النبي اسم النبي
حارسك فى وش العدو .

- والنبي آدى حد علمى ..

- وأنا ياختى داخله من الباب وألقاها لك راقدة رقدة الندامة
فى سبت الغسيل بتاعكو .. لا ياختى ، لازم تشوفولكم طريقة
.. انتى عايزة ولادها البعيدة ، البعيدة عن البيت وصحابه ،
تكبسك ..

- يانهار اسود .. طيب ادلعدى ياختى ما تفسريش .

- دى مجربة من أيام حوا وآدم يا أم سمير (وكأنها بسلامتها
هى التى أشرفت على وضع أمنا حواء) .. الله يعافيه بالعافية بقى
بنت أخت ألفت هانم عملتها .. وبعيد بعيد عن البيت وصحابه
جرالها الى ما يجرى لعدو ولا لحبيب ..

تم هذا الحديث فى الصباح ، وفى الظهر جاء الاب من الخارج وقد
قام بكل الاجراءات الواجبة التى يتخذها الوالد فى أمثال هذه
الحالات ، فاقترض مبلغا محترما فك به ضائقته باسم الكارثة التى
حدثت ، وقام بابلاغ الخبر الى كل الاهل والاصدقاء . وكاد يوقف
الناس فى الشارع ويخبرهم أنه رزق والحمد لله بمولود ذكر ،
وكذلك حصل على أجازة من عمله استطاع بها أن ينهى بعض.

المشاغل التي تراكمت عليه ، وما كاد يضع قدمه في الحجرة حتى
فوجيء بياسيدي أولاد القطة لا يمكن تقعد في البيت ، لماذا يا ستي؟
الداية قالت كيت وكيت . يا ستي كله تخريف في تخريف . أنا
مالى لابد من ابعاد أولاد القطة حالا . يا ستي ماليش دعوة أنا كوم
وهم كوم يا أنا يا هم . حاضر يا ستي أمرى الى الله ..

وقبل أن يختفى الاب لتنفيذ المهمة عن له أن يحيى القادم الجديد
فاقترب منه وأخذ يزغزغه باصبعه الكبير الحشن ويقول وهو يلعب
حواجه ويقوم بأنفه وفمه وعينييه بحركات بهلوانية :

- سما الله عليكى .. سما الله عليكى .. زقزق زقزق .. سما
الله عليها .. توتو توتو توتو .. عوعو عوعو ..

وكانت الام تراقبه في ضيق ، وكأنه ينتزع منها شيئا يخصها ،
ولكن ماذا تقول .. هو الاب على كل حال . ولكنها حين وجلت أن
ابنها بدلا من أن يضحك أو يبتسم فتح فمه الصغير ، وضم ساعديه
وانبعث منه صراخ لا ينبعث عن بالغسين ، دفعت يد الاب في عنف
وضمت الولد اليها ، وأخرجت « حلمتها » بحركة تلقائية وفرضتها
على فم الصغير فرضا وهي تقول :

- امشي يا ببع .. تعالى يا حبيبي .. تعالى يا ضنايا .. تعالى
يا حنة من كبدة قلب أمك ياخويا ..

ولدهشة الاب سكت الولد قليل الادب ، بل اندفع يتلوى جذلا

كالدودة الصغيرة وهو يمص الثدي بصوت مسموع . .
وخرج الاب من الحجرة كالبعبع المكسور الحاطر . .

وبحث عن القطة كثيرا ، اذ لم يكن يدرى أين سبت الغسيل ،
بل هو بصراحة لم يكن يدرى ، فى أعقاب ذلك الميلاد ، وجهه من
قفاه وكان لا يمكن أن يجدها لو لا المواء الخافت الذى جاءه فدلّه على
السبت والقطة . ووجد الماكرة راقدة فى تلافيف الملابس . ووقف
يراقبها من عل . كانت نائمة على جنبها تكاد تبدو بلونها البنى
المطعم بالاسود كفستان مكور من فساتين امرأته ، وكانت تصنع
برقدها قوسا يكسوه من الداخل شمس بطنها الابيض النظيف
ويحفل التجويف الذى يصنعه القوس بثلاث قطط صغار . كانوا
صغارا جدا . حلوين وكأنهم لعب أطفال مصنوعة من قطط حية . .
وكان من الممكن ألا يقف الاب هكذا طويلا يراقب القطة وأولادها ،
ولكنه لم يدر السر الذى جعله يقف جامدا هكذا يراقب هذه الكتلة
الحية المكومة فى جانب من السبت ، كان أولاد القطة يتناوبون
الرضاعة ، ولا يكفون عن الحركة ، ويدفع الواحد منهم الآخر برأس
مغمضة ليأخذ نوبته على الثدي الصغير حتى اذا ما اكتشف أن
أخاه قد شطب عليه انتقل الى ثدى آخر وأعمل فيه فمه الاحمر
الدقيق . .

وكانت الام متكئة على ما يجاورها من ملابس تراقب الاولاد بعيون

وسنانة نصف مفتوحة ، وشواربها مهدلة على جانبي فمها غبطة ،
وكان يبدو أنها فى قمة السعادة . . وكانت أحيانا تبقى على وضعها
ذاك ، وأحيانا تنقل رأسها فقط دون جذعها ، وتدفعها بين أولادها
فتصبح وكأنها قطعة رابعة هى الأخرى ، وأحيانا تلعقهم بلسانها
النظيف ، وأحيانا تدفع الواحد منهم عن ثديها فى رفق لتعطى
الفرصة لآخر . .

كان الرجل واقفا فوق رأسها فى وضع لا تراه فيه . واقفا
وقد ذهب عنه التحفز الذى جاء به ، وتراخت ذاكرته وذكرياته ،
وتعددت ألوان القطعة فى عينيه وتاهت . لم تكن القطعة هكذا يوم
جاءت . كانت شاحبة عجفاء . يوم جاءت ! لقد استيقظوا يومها
فوجدوا فى المطبخ كارثة ، كانت امرأته قد أبقت حلة الطبخ
مكشوفة بعد أن غلتها حتى لا تحمض ، وإذا بهم يفاجأون بحدثين
خطيرين ، اختفاء قطع اللحم التى كانت فى الحلة كلها ، ومواء قطعة
فى الشقة .

ويومها أمسكت امرأته فردة القبقاب وظلت مدة طويلة تحكم
النیشان ثم قذفت بالفردة . . ولو لا أن القطعة تحركت فى الوقت
المناسب لكانت قد أصبحت فى ذمة التاريخ ذى الذمة الواسعة .
وظلت بعد هذا تتحرك وتزوغ بطريقة لولبية من كل الفرد والمداسات
وقطع الأخشاب والزجاجات وأيدى المقشات ، وأثبتت بهذا أن

القطط ليس لها سبعة أرواح وانما لها روح واحدة طويلة مصنوعة من مطاط يلين ولكنه لا ينقطع .

والمثل يقول ما محبة الا بعد عداوة . وهكذا ، وحين لم تفلح الزوجة فى اصابة القطعة أو اجلائها عن الشقة التى وجدت فيها كل تلك الكمية من اللحم ، سلمت أمرها لله ، واتخذت الاحتياطات اللازمة لتأمين الطعام ، ثم ما لبثت أن أدركت أن صراخ المنزل تتناقص باستمرار ، وأن الفأر المرعب الذى كان يطلع ويبصص لها بذنبه قد اختفى ، وحينئذ أدركت أن لون القطعة جميل وشعرها ناعم ، واذا شبت أصبحت لطيفة مؤدبة ، بنت حلال ، دمها زى الشربات وحينئذ ، وحينئذ فقط أنعمت عليها الزوجة باسمها ، وصارت معها مثل اللبن على العسل . أنيسة عيب ، أنيسة اطلعى بره . أنيسة عمى فى عينك . بل انها أحيانا كانت تشكو لها متاعبها ، وتأخذ رأيها فى كثير من المشاكل . والحقيقة ان أنيسة أثبتت فى كثير من الاحيان أن لها نظرا بعيدا ، على الأقل أبعد من نظر الزوج . .

والذى حدث أن أنيسة شحمت ولحمت ، وصارت حلوة على مر الايام ولا بد أن جودة طعامهم كانت هى السبب ، ومع مقدم الدفء والربيع بدأت أنيسة تكثر من حك نفسها فى الزوج وأحيانا فى الزوجة ، وتكثر من الازيز والسرхан ، ثم جاء اليوم الذى بدأت فيه

تموء مواء غريبا يكاد ينطق ويقول : داوود . . داوود . .

ان الرجل يذكر هذه الآونة تماما . . فامراته هى الاخرى لم يرها
أجمل ولا أروع مما رآها فى تلك الايام . . كانت حدودها الشاحبة
قد أصبح فيها خوخ وتفاخ ، وعيونها امتلأت بأشياء وأشياء ، وهى
كلها قد حدث فيها حادث غيرا وحلاها وجعل منها سنيورة جديدة
فى نظره ، ولكن العجيب أنه بالقدر الذى احلوت به ملامحها فسدت
طباعها . المشاحنات أصبحت لا تنقطع . وثمة غيرة جديدة طرأت
عليها لم يكن يدري من أين جاءت ، وكان يأتيها المرض الشهري
قبل ذلك وهو لا يكاد يحس به ، فاذا به أصبح لا يجيئها الا وهى
راقدة تتلوى وتتأوه ، فاذا أفاقت من المرض ظلت تذكره ، واذا غاب
عنها ذكره اختلقت شجارا ، وخاصمته ، وتبغددت وهى تصالحه ،
وأكثرت من شروط الصلح . ثم حكاية وجع ظهرها الذى كان
لا يلزمها الا فى أوقات معينة ، ولا يحلو لها الشكوى منه الا فى
الليل ، فى عز الليل ، وهو نائم ، تظل تشكو بصوت مسموع
وتتباكى من الألم حتى يستيقظ ، فاذا تناوم جذبت من فوقه الغطاء
لتسند به ظهرها المزعج .

بالضبط . انه يذكر تلك الايام التى بدأ فيها مواء القطة وعواؤها ،
اذ طالما صبحا من نومه على داوود وهى تجلجل فى سكون الليل
وكانت امراته تصحو هى الاخرى اذا لم تكن صاحبة ، ويتأملان

النداء ويلعنانه كثيرا ، ثم يناقشانه فى خجل ويتفقان على أنها
لعوب تجار فى طلب الذكر ، ويدلفان أخيرا الى سجال أكثر امتاعا
يهيجه العواء الانثوى الذى لا ينقطع ..

وما أكثر ما جره العواء من متاعب اذ استجاب له - لسوء الحظ -
أكثر من ذكر وكانوا - لسوء الحظ أيضا - كثيرا ما يقبلون فى وقت
واحد . وتقوم المعارك . معارك حادة لا رحمة فيها ولا هوادة ،
كثيرا ما أفسدت ضجتها النقاش الآخر الذى كان يدور بين الرجل
وامرأته ..

والأدهى من ذلك أن المعركة وصلت ذات يوم الى الحجرة التى
ينامان فيها . ووصلت فى لحظة حاسمة من لحظات النقاش . وكف
الزوج عن الجدل فى الحال ، وراح يشخط ويهدر فى القطة وصاحبيها
واكتفى بالشخط من بعيد لبعيد ، فالقطان كانا غريبين ، لم يرهما
قبل ذلك ، وفى عيونهما شر مستطير ، وكان الواحد منهما يزعم
فى الآخر ، فيقابل الآخر زعيقه بزمجرة لا تقل عنها قسوة ، يعنى حالة
يستحسن فيها الابتعاد قدر الطاقة عن أرض المعركة . وكانت
أنيسة واقفة ترقب العراك بعينين فيهما تهافت وحوار .. وكلمتا
آذنت المعركة بالانتهاء ارتفع صوتها الاخف داوودود .. داوودود ..
وتستعر نيران المعركة من جديد . والغريب أنها كانت مثل المعارك
التي تنشب بين المصريين . كل قط واقف بعيدا عن الآخر يرعد فيه

ويلعن سنسغيل أجداده ، ويحاول اخافته وارساء الرعب فى قلبه ليتراجع فيظفر هو دون اراقة قطرة دم ، والطيب أحسن . ولكن حدث أن تطور أحدهما على الآخر . وهذا الذى تطور كان يبدو أصغر من الآخر سنا ، فاقترب من العجوز وقذفه بصرخة مرعبة ، ولم يتراجع العجوز وكأنما أدرك بحكمته أن المسألة تهويش لا أكثر ولا أقل . وحينئذ فقد صغى السن والخبرة أعصابه ورفع كفه الامامية وأهوى بها على وجه غريمه ، هكذا بسرعة متهورة غاضبة . وما كان من العجوز الا أن كف عن الصراخ فى الحال وحقق فى ضاربه برهة ، ثم ألقى عليه نظرة احتقار هائلة ، واستدار فى عظمة نمر ، وغادر الحجرة ، وكاد يصفق الباب خلفه .

وتحركت أنيسة ، واقتربت من المنتصر ، وحكت كتفها فى كتفه قائلة بصوت خافت آثم : داوود . وغمغم القط فى وقار الفائز كأنما يقول لها : صبرك بالله يا وليه لما ألقط نفسى .

وكان الزوج فى وحدته البعيدة مع امرأته ، كلما شهد معركة كتلك ، يحمد الله على أن امرأته انسانية تزوجها بالحلال وعلى سنة الله ورسوله ، وحجزها لنفسه بقسيمة ، وليست قطرة كان عليه ليفوز بها أن يصارع الذكور الآخرين ، ويموت قلبه من الرعب فى كل مرة ، وقد تناله صفعات الجيل الجديد .

ومع كراياام جاء اليوم الذى عاد فيه السلام الى البيت ، فانقطعت

أرجل الذكور ، وانقطع مواء أنيسة ، وانقطع الوجد الظهورى
والخلافات المزعومة وكذلك انقطع المرض الشهوى وحملت زوجته .
وابتسم الرجل والتاريخ يوقفه عند تلك الايام ، لعله اعتقد
لحظتها أن أنيسة وداوودها كانا السبب فى سميز ، أو على الاقل عجلا
بقدومه . فبعدها انتفخ بطن أنيسة ، وبدأت زوجته تتوحم وتطلب
النادر . . ثم وضعت أنيسة أربعة قطط جميلة احتكرت امرأته
تفريقها على أقاربها ، ثم بدأت أنيسة تعوى مرة أخرى ، وانتفخ
بطنها ، وها هى ذى تلد للمرة الثانية ، وتجىء هذه المرة قبل ولادة
سمير بأيام .

وفى النهاية كان لا بد أن يمد الرجل يده ويتناول القطط
الصغار وينفذ المهمة .

وحدث فعلا أن مدها ، ولكنه جذبها بسرعة وقد أصابته لسعة
طويلة حادة فوق ظهر يده تفجر على أثرها الدم . وبهت الرجل
كمن طعن غيلة . ونظر الى أنيسة نظرة المروع المستنكر . كان هذا
آخر ما يتوقعه منها وعنده بها أليفة أنيسة . .

وما أن مرت الصدمة حتى امتلأ قلبه بغضب جامح وكأنما
استنكر على القطة أن تخدعه بذلك الهدوء المزيف ثم تنشب أظافرها
فيه . وأنشب عينيه فيها وكلهما غضب . وكان فى عينيه خوف
أيضا ، فأنيسة كانت قد انتفضت واقفة ، ووقفت كل شعرة فى

فروتها ، وانتصبت شواربها المتهدلة ، واكتسى وجهها تعبيراً
بشعاً مخيفاً .

وليس هذا كل شيء ، فأفطع ما فى الامر كانت عيونها . أجل
:يونها . فقد خيل اليه أن وجهها يحفل لا بزوج من العينين المتنمرتين
لواسعتى الحداق ، وانما بعشرات من العيون كلها مفتوحة على
آخرها . وكلها تبرق وتلمع وتتلمظ ولا تبشر بأى خير .
وأسقط فى يده .

كانت القطط الصغيرة قد اندست بطريقة ما تحت بطن أمها ،
وكفت عن الرضاعة ، وانكمشت على نفسها وكأنها استشعرت
الخطر . وكان الوصول اليها دونه تلك الأم المخيفة ذات الآلاف
من المخالب والعيون والأسنان .

ولم ينشب الرجل عينيه فيها طويلاً ، لا عن فروغ بال ، وانما
عن خوف . ان التحفز ، ولو كان من قطة ، يخيف . خوف حقيقى
أصابه من العينين . هاتان البليتان الصغيرتان الحضراوان كانتا قد
التهبتا وانطلقت منهما شعاعات لا ترى وانما ترسل الرعدة فى
أشجع الرجال .

دلدل الرجل ناظريه ، ولم يملك الا أن يبتسم فقد وافته - دون
أن يدري - صورة أنيسة الحائرة على نفسها ، الطرية كالخرقة
المبتلة وهى تجأر فى استغاثة خنفاء قائلة . . داوود . . داوود

•• أجل •• شتان بينها ساعتذاك ، وبينها الآن !

واستأنف الهجوم • ولكنه مالبث أن تراجع حالا ، اذ ماكادت تراه يقترب حتى قالت : نو • ولم تك ناوا عادية أبدا • خيل اليه ان جسمها كله قد استحال الى صفارة انذار أطلقت ناوا حادة راجفة حامية تقشعر لهولها الاُبدان • وفي نفس الوقت اندفع الى وجهها سيال لافح من الانفعالات ، أخرج حمما من عينيها ، وكهرب شواربها ، وأبرز أسنانها فبدا فمها كفوهة حية ضخمة من نوع الكوبرا •

ودق قلب الرجل •

دق مرات من الخوف •

ومرات أخرى حين تذكر أن عليه ألا يخاف •

وجمد قلبه •

واشمعنى هوه يعنى ؟

ان له حنجرة هو الآخر •

وأطلق من حنجرتة صوتا عاليا •

امشى

وزارت أنيسه •

واختلطت ناو ناو وامشى • هو يشخط وهى تزأر وكلاهما

ثابت فى مكانه لا يريم •

وأعمل الرجل عقله .

وهكذا جاءت المقشة . ومدها على قدر ما استطاع : ودفعها في وجه أنيسه . وتراجعت القطة الى الوراء وهى تزأر زئيرا متصلا ترتعش له طبلة أذن الأصم .

ولكنها لم تغادر السبت أبدا .

وكان لا بد مما ليس منه بد . ورفع الرجل المقشة وأهوى بها . وقفزت أنيسة جانبا فلم تصبها الضربة ولكنها انقضت على رأس المقشة وضبعت فيها بأظافرها . وما كاد يحاول إعادة الكرة حتى كانت أسبق منه ، وحتى بادرته قافزة ناحيته ، صارخة صرخة متوحشة لا تمت أبدا الى أنيسة ولا الى القطط أجمعين .

وبلا وعى قفز هو الآخر متراجعا ، قفز بشكل لا يمت اليه ، ولا الى الجنس البشرى كله اذ فى قفزتين اثنتين كان قد عبر الصالة وفتح باب الحجرة التى ترقد فيها زوجته ، واستقر بجوار فراشها يلهث .

- خير كفى الله الشر .

وكان لها كل الحق ، فقميصه مفتوح ، وعرقه يسيل ، ونظراته زائغة ، والشحوب قد غمر وجهه .

وحاول أن يرد ، ولكنه كف عن المحاولة . اذ ماذا يقول ؟ كل ماقاله كان « ولا حاجة » قالها وهو يعود خارجا باحتراس

تديد ، ويتفقد الصالة ليطمئن ، ويطمئن ، فأنسه كانت قد
عادت الى السبت • وأمسكت بواحد من أولادها بين أنيابها •
أه •• تريد بلا ريب أن تحمل أولادها وتهاجر الى مخبأ آخر •
ولكن حيلك ياست أنيسه •

كانت المقشة فى مكان بعيد عن خط النار ، فتناولها من جديد ،
ولجأ الى الحيلة فرفعها وأهوى بها وحين قفزت أنيسه بعيدا عن
السبت ، مد المقشة وظل يجذبه وهى واقفة فى مكانها تصرخ حتى
أصبح فى تناول يده •• وحينئذ تناول القطط الثلاث واحتواهم
بين كفيه ••

وكان يتوقع مثلا أن تقفز عليه وتشبعه خربشة وعضا ، أو
تنهش وجهه وتدمى عينيه ، وكان قد جهز نفسه لكل ذلك •
ولكنها ظلت واقفة فى مكانها ، بنفس تحفزها تصرخ وتنكمش

على نفسها وتنقبض وتكاد لاتدرى ماذا تفعل •

• ووقف الرجل أيضا لا يدرى ماذا يفعل •

• كان خائفا أن يتحرك فتتحرك وتنقض •

• وتحرك ببطء أول الامر •

• ولم تغادر أنيسة مكانها حتى حين وصل الى الباب وخرج •

ماذا حدث ؟

ألا تدرى الغيبة أنه قد أخذ أولادها ؟

أم أنها خافت ؟

أو هي تدافع عنهم فقط اذا كانوا فى حوزتها ، تحسبهم
بشعراتها ، وتلمسهم بلسانها ، حتى اذا ما صاروا فى حوزة الغير
أصبحت المسألة أعقد من أن تستطيع حلها ؟

وهل هى تستطيع الدفاع فقط ولكنها لاتستطيع الاخذ عنوة أو
الاغتصاب ؟

وهل الدفاع هو الغريزة الأصلية والاغتصاب هو التفكير
الشاذ الذى يحتاج الى تدبير وتفكير وغدر ؟

قد تكون أسئلة مثل تلك قد دارت فى عقل الرجل وهو يغادر
البيت ، وقد لا تكون قد خطرت له بالمرّة . فى تلك الاثناء كان
يستمتع بلذة الانتصار فقط . . . وحين لاحت له مشكلة التخلص من
القطط وهو سكران بخمرة النصر ومغرور ، وجد حلها أمرا سهلا
فما عليه سوى القائهم فى أية حارة .

المغرور ، وأسكت الانتصار وحين هدأ قليلا وذهب عنه خمر
بعض الجوع للثقة فى نفسه ، جاءته الانسانية . وقرر أن يهبهم
قد تكون أسئلة مثل تلك قد دارت فى عقل الرجل وهو يغادر

— خلاص ياستى ولا تحملى هم .

ولم يفت الزوجة وهى تبتسم له شاكرة أن تتأوه وتشكو من

الآلم والوهن .

ولم يفتته وهو يروى لها تفاصيل المعركة أن يبالغ . قليلا أول الامر . ولما لم يجد لدى الزوجة مانعا ساق فيها وفتح باب المبالغة على مصراعيه . .

وظنا أن المتاعب قد انتهت عند هذا الحد .

ولكنهما قضيا أتعس ليلة .

جدران البيت ظلت تردد نداء واحدا لا ينقطع . . ناو . . ناو . . ناو . . ناو . .

كان الصوت غاضبا أول الامر ، قصيرا رفيعا كالسكين الحادة حين تقطع فى الجسد .

وكلما امتد الظلام والسكون ، كان الصوت هو الآخر يمتد ويطول . . ناو . . ناو . . ناو . . ناو . .

ولم يعد الرجل يحتمل . اقتحم الصالة خارجا ورمى أنيسه التى كانت تروح وتجيء ولا تكف عن النوتة لحظة ، رماها بفردة الحذاء ، ولم تحاول هى أن تتجنب القذيفة فأصابته وأوقعته ، وقامت ، واستأنفت غدوها ورواحها ولم تسكت ، بل أضيفت الى الزاوة نغمة جعلتها تبدو أكثر حزنا ، ووقعها يبدو أكثر مرارة ، كما لو كانت السكين التى تقطع فى الجسد قد تلمت حافتها فأصبح صوتها بطيئا قاسيا له أزيز وأنين .

وبدأ الصوت يتغير ويتبدل . . ويصبح آى . . آى منفردة وآى

متصلة طويلة تكاد تنطق مخارجها وتتجسد حروفها . آهات حقيقية
كانها صاعدة من صدر آدمي ممزق .
ولم يكن في استطاعة الرجل أن يفعل شيئاً . الحذاء ورماله به ،
وصوته قد بح من الكش فيها ومطاردتها . كان عليه فقط أن
يستلقى على الكنبه ويستمع الى امتعاضات امرأته وتعليقاتها على
نباح القطه . .

وقالت له الزوجة بغتة في الظلام .

- أبو سمير

- مالك ؟!

- أنا خايفه

- ليه ياستى

- القطه . . دى بتبكي زى البنى آدمين

فقال ليفحما :

- شورتك

فأجابت :

- أmaal يعنى عايز الولد يموت . . عايزنى أنكبس . . آه ياميلة
بختى . .

وانطلقت تئن وتتوجع ثم سكتت طويلا حتى خيل اليه أنها
نامت ولكنها قالت فجأة .

- أبو سمير

- مالك

- تروح تجيب لها أولادها •

فأجاب الرجل فى غيظ

- انتى عايزه الولد يموت • ثم أجيبهم ازاي دلوقتى •

وحل سكون آخر • ختمته الزوجة بمفاجأة اذ راحت تنهنسه

وتبكي • وأصبحت القطة تن فى الخارج وتعوى ، وهى تبكى

وتستجيب وتعدد •



وفى الصباح كان العواء قد خبى ، ووجدوها ملفوفة على نفسها

فى الصالة نائمة على البلاط الرطب • وقدموا لها الطعام فلم

تتحرك لها شعرة • واشتروا لها نصف رطل من اللبن لأول مرة

فلم تعره أنيسه أى التفات • بقيت مغلقة عينيها ، لا ترى ولا تحس ،

تزوم وتئن وتحيا فى سكوت ذاهل آخر •

ومضت أيام ..

وتحركت أنيسة ، وطلبت الطعام بنفسها ، وعادت تصطاد

الصراصير وتغتالهم • ثم بدأت صداقة غريبة بينها وبين الرضيع •

لايدرى أحد كيف اكتشفته ، فقط لاحظت الأم أنها تفضل النوم

بجواره فى الليل ، فاذا أصبح الصباح داعبته • أحيانا تضع

بوزها فوق قدمه ، وأحيانا تفتح فمها وتكاد تقضم أصبعه الكبير (كده وكده) . ثم تقوس ظهرها وتلعب ذيلها وتحك شعرها فى وجهه . وكان الرضيع يصرخ أول الامر ويستغيث ، وكانت الام تصرخ هى الاخرى مخافة أن يقتل هذا العبت (بطريقة ما) ابنها . ولكن الرضيع وأمه أدركا أخيرا أن الامر لا يتعدى حدود المداعبات البريئة . .

ولم يستمر الوضع هكذا . فقد مرض الطفل . وحاولت الداية علاجه ، والداية لا تكتفى بتوليد الاطفال وانما هى تعالجهم بعد مولدهم وترعاهم ، وتطاهرهم حين يكبرون ، ثم تخطب لهم وتزوجهم اذا شبوا ، وأحيانا هى التى (تلتهمهم) وتغلق عيونهم اذا واثاهم الاجل المحتوم . حاولت الداية علاجه . ولم ينفع علاجها وزادت شدة المرض . وفى طابور الامهات المنتظرات أمام شباك التذاكر فى مستشفى (رعاية الطفل) مات الطفل .

وانقلبت الشقة الى مأتم ، وجاء المعزون ، أقارب وأصدقاء وعمات وخالات واشكالا وألوانا . ولبست الام السواد ، وتعصبت بمنديل وجلس الاب بعد أن فرت من عينيه بعض الدموع ، جلس فى وقار يتلقى التعازى ، ويحكى قصة المرض والوفاة ألف مرة ، ويستمع الى الدنيا على دى الحال ، وشد حيلك ، وقالوا ياجحا عد

موج البحر قال الجيات أكثر من الرايحات ، ويا أخى انت شباب ،
شم نفسك وهات لنا عشرة .

وخرّب المرض بيت الرجل ، وجاء المعزون فقضوا على ما تبقى
فيه من بن وسكر وملاليم .

وبعد أن انصرف الجميع ، جاء الزوج ليرقد بجوار زوجته على
السريّر وقد انتهى عهد الكنبه ، وبكت الزوجة وشهقت من أجل هذا
المجىء وحين جاءت أنيسة كالعادة تتلصص ثرقده بجوار الطفل
تشبّثت بها الام وظلت تعوى وتبكي وتتساقط دموعها على أنيسة
التي أخذت هي الاخرى تنونو نونوات خافتات .

وهدهد الزوج . وغالت الام . ثم كفت . ودار حديث . الام
تقول أن ابنها مات من الكبسه . فقد مكث أولاد أنيسة يوما بطوله
بعد الميلاد تمت فى أثنائه عملية الكبس وطار الولد . والاب يقول
أبدا . السبب مستشفيات الحكومه والاهمال . لو كان عندنا فلوس
كنا رحنا لحكيم متخصص فى الاطفال . السبب الفقر . الله يلعن
أبو الفقر .

وجادلت الزوجة وبكت . وحينئذ قال الزوج . قسمة ونصيب
هو المكتوب . الاعمار بيد الله .

وغالت الأم وجادلت فقال الأب وقد تروحن . هو الحى الباقي .
هو المعز المذل القادر ، الاطفال لهم الجنة ونحن لنا الجحيم . أجسامنا

قد صنعت من المعاصي • لنا النار والعذاب ولهم الجنات والخلد •
ليتنا متنا ونحن أطفال • ليتنا متنا وكنا ترابا •
وفي الصباح كان الأب جوعان • ولو كان الود وده لآكل •
ولكن الأم رفضت أن تلمس الطعام حين ألح عليها • ولم يتناول
هو الآخر الافطار اذ لا يصح أن يبدو أقل منها حزنا •
وحين عاد في الظهر كانت تبكي • وفي العصر تشاءبت ونامت •
وفي المغرب كان عندها صمداع •



ومرت أيام • وأكلت الام ، ولكن الحياة لم تعد كما كانت ، ظل
البيت يسوده الوجوم ، وتهب عليه أحيانا نوبات نواح اذا ما حضرت
قريبة أو صديقة لزيارة الزوجة وجاءت ذكرى الولد في الحديث
العابر •



وكان الشتاء قد مضى • وبدأ الدفء يحل • وفوجيء الأب ذات
ليلة بصوت أديسة يلعلع في ظلام الشقة • • داوود • • داوود •
واستمر العواء أياما •

وبعد وفاة الولد كانت الأم تشكو من الصمداع الذي ينتابها بين
الحين والحين •

ثم بدأ الصمداع يزحف الى أسفل ، ويصيب الرقبة ، وفقرات

الصدر ، وما كادت الزوجة تمد يدها ذات ليلة وتجذب الغطاء من فوقه ، لتسند به الظهر الذى بدأ الوجع ينتابه حتى تنبه الرجل تماما . وصحا . ولم ينم .

وهكذا لم تستمر مطالبات الزوجة بالفستان الحريري للصيف طويلا ، ولا المناكفات أو المهاترات ، اذ سرعان ما جاء اليوم الذى عاد فيه الهدوء الى البيت ، فانقطعت أرجل الذكور ، وانقطع عواء أنيسة، وانقطع الوجع الظهرى والمطالبات التى لا تنتهى .
وكذلك انقطع المرضى الشهيرى ..



obeykhan.com

مارش الغروب



obeykhan.com



دقات الصاجات تخرج صاحبة زاعقة وعلى
دفعات كهدير الديك الرومى ، وكنت تستطيع أن
تسمعها من بعيد حتى اذا ما وصلت الى كوبرى

شبرا البلد عثرت على مصدرها ، على بائع العرقسوس .

كان رجلا مسنا كمعظم بائعى العرقسوس ، ويرتدى زيهم
التقليدى . . . فوطه حمراء قديمة نظيفة لفها حول وسطه ، وفانلة
بمبه بأكمام ولا شىء غير هذا يستر الجسد خلا السروال الطويل الذى
يترك الساقين عاريتين .

وكان للبائع ذقن طويلة ، ولكنه لم يكن سنيا ، كان واضحا أنه
يطلق لحيته كنوع من عياقة الكبار ، أو لاحاطة نفسه برهبة
مصطنعة ، أو على أقل تقدير ليوفر ثمن حلاقتها كل يوم كل يوم .
كان واقفا فى وسط الكوبرى تماما ، وهو وابريقه يكادان يسدان
الطريق ، فالابريق كان ضخما قديما ، وكأنه هو الآخر عجوز مقعد
كتب على البائع أن يحمله فوق صدره مدى الحياة ، وكانت له بوز
رفيعة ممتدة وملتوية عند آخرها وكأنها يد العجوز التى عوجها
الشلل حين تمتد لتستجدى .

وكانت يدا الرجل مدليتين خلفه ويده اليمنى لا تكف عن دق

الصاجات . ويخرج صوتهما له ضجة وصراخ . وكان يدق على دفعات . كل دفعة دقتين متتاليتين . ثم يصمت برهة ، ويعود الى الدق ويقول «يا منعش» وكان ينطق منعش بلهجة لا نعشة فيها ولا حماس ، فالدنيا كانت شتاء ، والشمس غابت من هنيهة ، والكون يعبق بذلك الجو المريض الذى يتبع مغرب الشمس ويسبق حلول الظلام . وكان الناس يمشون فوق الكوبرى صامتين ، مسرعين ، فى اسراعهم كآبة يوم يموت ، وبرودة شتاء .

كان الناس يمشون ولا أحد يلتفت الى البائع أو تسترعيه دقاته . فالدنيا شتاء . ومن يشرب عرقسوسا فى الشتاء ؟! من يفكر حتى فى فتح فمه أو التلکؤ لآخذ شقطة ؟!

ورغم هذا استمرت الصاجات تعمل وتهدر بزعيقتها المتوالى وكلما حلق البائع فى الكون ورأى الناس يختفون من حوله ويتسربون . وكأنما تبتلعهم مخابىء سرية ، وكلما رأى الجرح المدمم الذى أحدثته الشمس الغائبة فى السماء حين اخترقتها الى عالم الظلام ، كلما رأى هذا قصرت المسافة بين الدقات وأصبح صوتها أعلى وأكثر حدة ، وانطلقت حنجرتة تعضد الدقات وتقول يامنعش ، تقولها حنجرة مثقلصة ، مثنية على نفسها وكأنما انحنى تستخلص منعش « وهى عاصية فى قاع حنجرتة لا تريد أن تخرج ، فالأبريق كان لا يزال راقدا فوق صدره كالمصيبة الثقيلة ، ولا يزال ممتلئا .

وكل ما ناعه منذ الصباح كان لم يتعد بضعة قرارات لا توقد مصباحا
ولا تغمس لقمة .

والدقائق تمضى بسرعة ، والوقت يتسرب تسرب الناس ، كأنما
أصابه البرد هو الآخر .

وتدق الصاجات ، عالية صاحبة هستيرية تريد أن تتحدى
وتستوقف الاسماع ، والظلام يتكاثر ، وتصبح له دنيا كبيرة ، وبرد
السما يطبق على الارض ، والناس يصغرون ويصغرون ، وكل شيء
تصبغه رمادية زرقاء ، ويبرد ، ويصبح لاحياة فيه . وتزأر الحنجرة ،
يا منعش ، وتخرج منعش حادة تكمل صخب الدقات ، وبين كل
آن وآن يقول : يا كريم سترك . ويمد انكاف وكأنه يصنع منها
حبلا رفيعا ، يمدّه فوق الكوبرى ليوقف الناس ، ويتبعها بسترک ،
مقتضبة خارجة من الصدر وكأنما يسترضى الناس بعد هديره
ويصالحهم بها .

والناس رائحة غادية ، ميتانة ، سقعانة ، ناشفة ، وجوههم
شاحبة فيها غصون ، وعيونهم ذابلة فيها شتاء ، ولا يريد أحد - رغم
وجوده في وسط الكوبرى - أن يلقي عليه نظرة .

وأطلق الرجل يا منعش وأتبعها بياكريم سترك ، أطلقهما
عالتين صاحبتين مدويتين كاستغاثات أخيرة لسفينة تغرق .
وأیضا لم يلتفت أحد .

والوقت يمضى ، والمارة يقلون ، والسماء تزداد اطباقا على
الارض ، وعالم الظلام يكبر ويكبر ، والجرح الذى فى السماء يلتئم
وتذهب حمرة وشفقه ، والناس يتحولون من كائنات الى أشباح .
وبدأت دقات الصاجات تنخفض ، ولم يعد الرجل يقول
يا منعش ، كان فقط يردد يا كريم سترك ، وكان يقول يا كريم
متضرعا ، يقولها لكل شىء حوله ، للارض والسماء وعربات النقل
والكارو ، وحتى لصاحب الغرزة الجالس هو الآخر يرتعش ويستعد
للرحيل .

وكان ما فى صوته من ضراعة ينتقل الى نحاس الصاجات فتخرج
الدقات متتابعة نعم ، وعلى دفعات ، ولكن فيها بحة ، وكأنه يريد
أن يرجو الناس فقط أن ينظروا اليه ، فقط ينظرون اليه
ولا يشتركون ، لماذا يزورون عنه ويشيخون بوجوههم ويتهربون
وكانهم يفرون من واجب ثقيل ، ماذا عليهم لو فقط يلتفتون .

ولم تفلح الدقات ولا أفلح النداء فى جلب نظرة .
وهنا كست وجه العجوز تكشيرة طيبة فيها يأس ، وتهدل
حاجباه فوق عينييه فى عتاب صامت . وكانت يدها لا تزالان
مدليتين خلفه ، ولكن الدقات همدت حداثها وتباعدت وأصبحت
كدقات قلب المشرف على الموت ، تسكت طويلا ثم تبرق فجأة وكأنها
تقاوم الفناء . وبين الحين والحين يلقي الرجل نظره على القراريط التى

باعيا وآلاف القرارات التي لم يبعها ثم يتمم من بين شفتين
ترتجفان بالبرد : يا كريم ستترك .

وظل الرجل واقفا هكذا وكأنما ينتظر شيئا ما ، معجزة تحدث
وتفرغ الابريق وتملأ جيبه . ثم خف القدم ، وخطى الكوبرى عله
يرزق ، ولم يرزق ، ووقف على جانب يحدق فى الارض والسماء
والاضواء البعيدة والقريبة ولا شئ يحدث ولا معجزة تهبط .

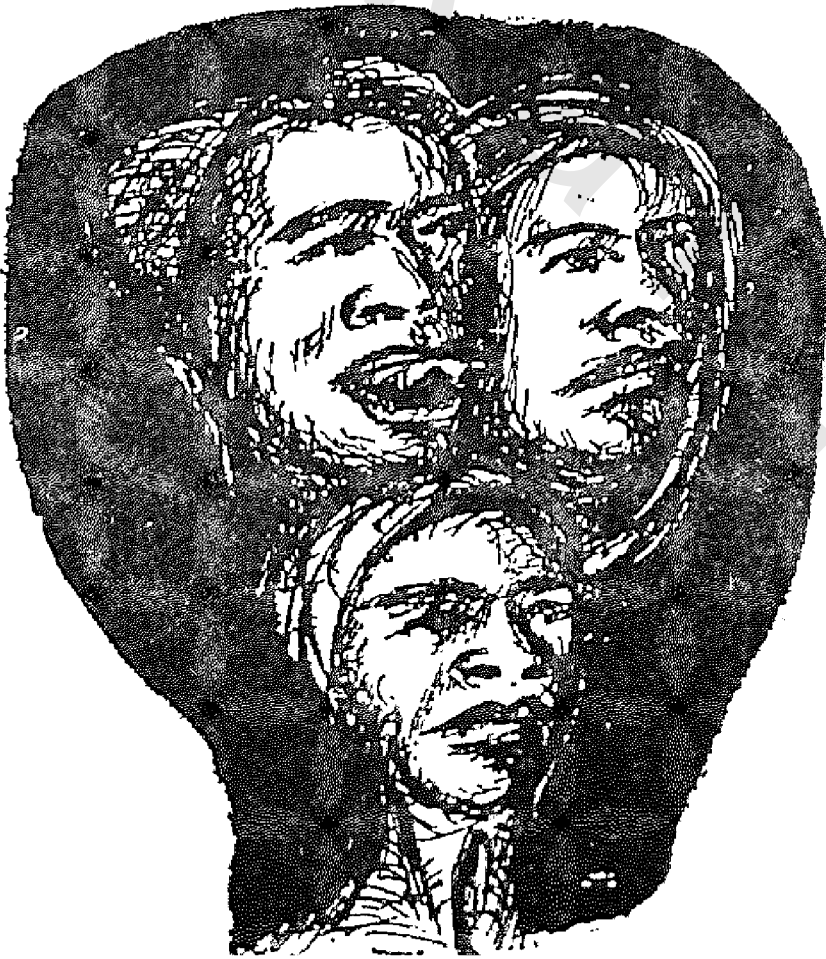
وهبط عليه يأس كامل ، فارتفع حاجباه المتهدلان ، ومضت
التكشيرة الى غير رجعة ، وانبسطت ملامحه ، وبدأت الدقات المتباعدة
تتقارب وتتألف ، ولكنها اتخذت طابعا غريبا ، فلم يكن لها ضجة
الهدير المتتالى الذى يشبه صراخ الاوز المذعور ، تألفت الدقات
وصنعت نغمة أخرى . . نغمة خافتة راقصة حزينة . ظل الرجل
يدق بيديه دون وعى ، وتخرج النغمة دون وعى أيضا ، تخرج
هامسة تستتر بالظلام ، ولا أحد يسمعها ، حتى فطن الرجل الى
ما تحدثه أصابعه فأنصت برهة ، وابتسم ، ورفع حاجبيه وكأنما
أعجبته النغمة وجاءته على الوجع ، فأوغل فيها ، ومضى يضبطها
ويحسنها وهو الحبير يدق الصاجات ، حتى استحالت الى همسات
فيها بحة تخلع القلب وترهف الانفاس . وأطربته النغمة الى الدرجة
التي راح يهز رأسه هزات خفيفة وقورة على وقعها ، ثم ما لبث
الاهتزاز أن وصل الى شعيرات ذقنه فأخذت تتأود وتراقص .

وقف طويلا ، يرمى الناس والدنيا بلا مبالاة تامة ، ويده اليمنى
تهمس بالنحاس الى النحاس ، والطرب قد وصل الى الابريق وبوزه
فماخذ يرتعش هو الآخر ويتمايل ، ولا أحد يسمع سواء ، وهو منتش
لان احدا لا يسمع سواء ، ولا أحد يلتفت اليه ، والنغم يخرج حنونا
دامعا حلوا فى سكون المساء .

ظل واقفا الى أن أحاله الظلام المتكاثر الى شبح من الاشباح .
ثم بدأ الرجل يتحرك مروحا فى اتجاه شبرا البلد .
تحرك بطينا ، يائسا ، مشيا الى الوراء ، ويداه خلفه . والصاحات
تدق ، وهو يتحرك على وقع نغمتها الهامسة ، كل خطوة بهمسة ،
همسة موجوعة ثكلى ، وكل خطوة بدقة ، دقة ناعمة فيها شجن .
ويذوب شبحه فى الليل حتى يختفى تماما ، ولا تعود الاذن تسمع
سوى همس النحاس الى النحاس وهو ينخفض ويشف وينخفض .
والدنيا كبيرة كبيرة ، والظلام كثير كثير .



ليلة صيف



obeykhan.com

العشاء

ولى ، والتبن بارد ، وكومته عالية ، والدنيا ليل ،
ليل مفضض ، فهناك قمر ، تمر عليه سحببات ،
كمناديل الحبايب البيض ، تعافيه بالعافية ،

وتمضى ، وبلدنا راقدة ، قريبة منا ، كقنفذ ، له أشواك وأحزان
وأشجار . وكنا نحن جالسين نتحدث ، لا نفعل كالكبار ونخوض
فى متاعب النهار . كنا نتحدث عن أنفسنا . كنا قد بدأنا نحس
بشئ جارف عارم يتدفق فى أجسامنا ويغيرها ، ونحس بالتغير
يحدث كل يوم ، وكان ذلك يسعدنا ويدهشنا ، ونردد ونحن
فرحانين : احنا بلغنا . .

كنا لا نخوض فى حديث المتاعب ، مع كثرة متاعبنا فى النهار ،
كنا نشقى ، كالرجال تماما ، بل فى العادة أكثر من الرجال ،
فالكبار دائما كسالى ، يعشقون الظل ، ويتركون لنا الشمس ،
يرجوننا أحيانا ، وأحيانا أخرى يأمرؤن ، ونحن فى كلتا الحالتين
سعداء ، فالعمل رجولة ، ونحن ظامئون الى الرجولة ، وأن نكلف
به معناه أننا قد أصبحنا كبارا يعتمد علينا ، واننا شباب ، وان لنا
غدا ، لا بد قريبا نتزوج فيه ، ونخشى ، ويكون لنا زفة وليلة حنة .

كنا نعمل طوال اليوم كالنحل النشط ، ونأكل كثيرا • نأكل كل ما نعثر عليه فى الغيط أو فى البيت ، وأمهاتنا سعيدات ، يدركن بغريزتهن أننا نكبر ، وأننا فى الطريق الى النضج ، فيدسسن لنا قطع الجبن والبيض واللحم من وراء آباءنا وأخوتنا ، وكاننا بط يزغظنه أو أوز • وكانت أجسامنا تستجيب وتشتعل ، وتنفض عنها صفرة طفولة طالت ، وشحوب السنين العجاف وما فيها من قصر ، وتنمو ، تنمو بسرعة وكأنما تعوض فى أيام كل ما فاتها من سنين • وكانت وجوهنا هى الأخرى تتغير ، وتستدير ، وتأخذ لون الأرض الخصبة ذات الطمى ، وتمتلئ سيقاننا ، وتبرز حناجرنا ، وتغلظ منا الأصوات •

كنا جالسين فوق كومة التبن ، نغمغم ونحكى ونتحدث ، والليل يقشعر بأصواتنا ، وبما فيها من رجولة وافدة جديدة ، وأجسامنا تنتقص بقوى لاتجعلنا نستقر ، ولا تجعلنا نحلم كما يفعل الصغار ، أو نكتبها فى حكمة كما يكتب الكبار •

كنا نجلس ، وفى الحقيقة لم نكن نجلس ، كنا ندفن أنفسنا فى كومة التبن وكأنما نود أن تلمسنا الدنيا ونلمسها ، ويضغط التبن علينا ، فنستعذب ضغطاته ••

وكنا نتحدث ، كنا نفرغ تلك الحمى المتأججة فى كلامنا ، وكنا نختار مجلسنا بعيدا عن البلدة ، وبعيدا عن الناس ، وكاننا نحس

بما يدور فى خلدنا ، ونعتبره شيئاً قبيحاً لا يصح فنختار للخوض فيه مكاناً بعيداً . .

ولم يكن حديثنا مرتباً ولا منمقاً ، كان يبدأ دون أن نعرف ، ونستمر فيه ساعات ، ونحن لا ندرى عن أى شيء نحكى . كنا نتكلم ، والليل وحده يسمعنا ، بل لولاه ماتكلمنا ، كنا نحب أن يشهد الليل حديثنا ، بل نكاد ونحن نتكلم نوجه إليه حديثنا ، ونحب الليل . نحبه وكأننا نرى فى سواده وهدهوته وحنانه امرأة جميلة ، ذات نسيمات ، ودم خفيف ، وسمرة أبنوسية تهيج كامن أعماقنا . ونكره النهار ، نكرهه وكأنه رجل خشن غليظ القلب والقول ، لا يرحمنا ، ولا يسمح لألسنتنا ان تدور .

كان الحديث يبدأ بالطول ، كل منا يحاول أن يثبت للآخر أنه أطول منه ، وتقوم بيننا المراهنات ، ويدعى الخاسر أن فى أعلى فخذه ورماً وألماً ، ويريه للباقين ، فيطمئنه الباقون ، فالورم معناه طول جديد ، وعليه ألا يحزن . ثم ندلف الى الاحلام ، ونتفنن فى رواية كيف حدثت ، ثم نقارن بين الاصوات ، ويمد كل منا يده ويتحسنى حنجرتة ويرى مقدار ماحدث فيها من بروز .

ثم يحوم الحديث حول النساء . وكانت نساء بلدنا كبيوتها سودا لا أرداف لهن ولا صدور أو شرفات . كن كالرجال أو هن أقرب كانت نساء البيوت البيضاء هن من يملأن علينا الحديث .

وفى القرى بيوت سوداء كثيرة ، وقليل من البيوت لها طلاء أبيض .
ولابد فى كل بيت أبيض امرأة حلوة ، والحلوة فى نظرنا سهلة ،
لابد أن كل حلوة سهلة ، والا لماذا خلقت دون النساء حلوة ؟

وكان التبى يضج بحديثنا ، ونهيج أحيانا ، ونقذف بعضنا
بأحفنته ، ونثير العواصف ، وينطلق منا من يعوى كالذئب ، ويقول:
روحوا يا ولاد . ويخرسه الباقون لئلا يعثر علينا أحد ونحن لا نريد
أن يطردنا من مجلسنا خفير أو كبير ، إذ أننا نتفرق بعدها الى
بيوتنا ، ويرقد الواحد منا فوق ظهر فرن ، أو فى (بحراية) ،
ويكظم وحدته وحيرته وضيقه بالعفاريت التى تكهرب جسده وتحرمه
النوم . هنا فقط ، ونحن جماعة ، يخيل إلينا أن العفاريت تسكن ،
وأنا حين نتحدث نرتاح ، والحديث عذب ، حلو يا هو ، نريده
ونطلبه وليس لنا سواه . .

وما كان لجماعتنا قيمة بغير محمد . كان أكبر منا ، وحائرا
مثلنا ، ولكنه كان أكثر منا خبرة ، كان قد خرج من بلدنا وذهب
الى البندر ويعمل فيه ، وله قصص ومغامرات ، وكانت
له بالنساء معرفة ، وما من أحد فىنا كان قد اطلع على النساء .
كنا نراهن من بعيد ونخشاهن ، ونتمناهن ويتملكننا خجل
قاتل اذا انفردنا بهن ، وكان محمد عزاءنا . يقص علينا مغامراته
بالتفاصيل ونرتشف ما يقوله رشفا ، وكنا نحبه ، ونحب شاربه

الخفيف الحديث ، وكان فى استطاعته أن يربى شعره ، فأبأونا
كانت تجتث شعورنا أولا بأول ولا حق لنا بعد نمرة ثلاثة ، وكان
لمحمد (قصة) صفراء يطليها أحيانا بالفازلين الذى يشحته من
ناظر المحطة ، وان لم يجد قبالبدة ، وكانت بقية رأسه قصيرة
الشعر . وكان يحلو له أن يلبس الطاقية الصوف ، ويرجعها الى
الخلف ، فتظهر (قصته) ناعمة لامعة مسببة ويحسب الرائي ان
شعره كله لابد ناعما لامعا مسببا . وكان بشفته العليا شق ،
يجعل الانسان يعتقد أنه شرس ويكرهه ، ولكنه كم يكن شرسا ،
كان يضحك كثيرا ، ولا يغضب منا ، ويطير وراءنا اذا ضحكنا عليه ،
وكان قمحيا لم تسوده شمس الغيطان . كان يزرع ، وذهب الى
البندر مرة ، وما أن تذوق عيشه وطعميته حتى أقسم ألا يعود الى
المحراث أبدا . وكان يخيل الينا ونحن جالسون معه أنه ليس من
بلدنا ، وأنه واحد من سكان المدينة المتنورين اللثام الناصحين
الذين نرهبهم ونخشى أذاهم .

وكان جريئا . كنا نخاف الحرام جدا ولكنه طمأننا ، وعلمنا كيف
نملأ حجورنا بالتراب وندخل به منازلنا ، ثم نرمى التراب ونملأ
حجورنا بالغلة أو الاذرة أو القطن ، ونخرج فلا يشك فينا أحد .
وكان هو الذى يتولى بيع مانجلبه ، ويخنصر من الثمن ، برضانا ،
ونشتري بالباقي حلاوة طحينية ويوسف أفندى وعصى خيزران
نتقمع بها فى الاسواق .

فى تلك الليلة جلسنا ، حفنة من أولاد بلدنا ، أرجلهم خشنّة مشققة لايزال يطمسها طين جاف ، وملابسهم مبرّاة ، ووجوههم لا تكاد تعرف فيها الشعر الأصفر من الشعر الأسود من سمرّة الجلد ، وروائح العشاء تتصاعد من أفواههم . . . بصل ومش وفلفل مخلل وسردين وكرات ، والهدوء تام من حولنا ، والقمح يغمرنا من كل جانب ، قمح واقف تموج به الغيطان ، ويتلون بحركة الريح وشعاعات القمر كما يتلون حرام من القطيفة البنية ، وقمح محصود ومكوم فى أكوام صغيرة متباعدة لها صفوف كصفوف مصليين راكعين فى العراء يطلبون الرحمة ، وقمح يدرس ، وقمح مدروس ومدرى ، وأكوام تبين وقصلية ، ونورج واقف كجمل بارك وعليه (شبرية) عروس ، ورائحة المحصول الجديد تملأ الجو وتختلط برائحة التراب بلله الندى ، ورائحة عشائنا وعرقنا الذى كان قد أصابه التحول هو الآخر وأصبحت له نكهة ذكرية خاصة .

وفى مثل تلك الليالى يحلو حديث محمد . كان صوته لا يتأرجح مثل أصواتنا ، كانت رنة الرجولة فيه قد استقرت ، وكانت طريقته فى الرواية توقف الشعر ، وبلاد كثيرة يحدثنا عنها ، بلاد قريبة رآها بعضنا ، وبلاد بعيدة ما رأيناها ، ولا نعتقد ان محمد هو الآخر رآها ، بلاد لها أسماء غريبة ترن فى أذاننا رنيناً ، ولها فى خواطرنّا ألوان وأشكال وأفندية وسكك حديد .

كنا نبقى حديث محمد للآخر . نستهلك أولا كل مايمكننا قوله عن بلدنا ونسائنا ، ونعيد ما قلناه ، ويقص كل منا كيف نظرت له فلانه وكيف وقف يتبصص على علانه .

ثم نحلى بحديث محمد .

وعرفنا فى تلك الليلة من بدايات حديثه أنه يود أن يحكى قصة المرأة العرباوية التى عرفها فى السوق . فقاطعناه ، وصنعنا ضجة ، كان قد بدأ يغالطنا ، ويحكى لنا أشياء رواها من قبل . وكنا نريد شيئا لم نسمعه ، اذ لم تعد تنطلى علينا مراوغاته ، وكان محمد أحيانا يروغ ، ويحرن ونتذلل اليه ، ونستحلفه ، ونعده بالقمح والذرة والبيض ، ولكنه فى ليل كان يحرن تماما ولا ندرى لسكوته سببا .

وقال لنا محمد وعيونه تبرق : اسمعوا ياولاد ؟

قلنا : ايه ؟

قال : أقول لكم على حاجة حصلت لى بس أوعوا تجيبوا سيرة

لحد .

قلنا : مش ح نجيب سيرة لحد .

قال : تحلفوا على الربعة الشريفة

قلنا : وحياة الربعة الشريفة .

قال : والبخارى

ولم تكن نعرف ما هو البخارى ، كان لا ريب شيئا أعتى من
المصحف .

قلنا : وحياء البخارى

قال : والى يرجع فى كلامه

قلنا : يبقى مرة

قال : مرة وبس

قلنا : وابن ستين فى سبعين

قال : وحياء الشمسة الحرة

قلنا : وحياء الشمسة الحرة

قال : كنت مرة رايح المنصورة فى طلب .

قلنا انت كذاب . أنت عمرك رحت المنصورة . .

قال : وحياء المصحف الشريف رحت

وصدقنا . ولم نملك أنفسنا . ووحونا . الحكاية ستحدث فى

المنصورة ؟ والمنصورة كانت لا تبعد عن بلدنا كثيرا . كان القليل

منا هو الذى رآها ورآها وهو صغير ، وكلنا سمعنا عنها ، وكلها

أسماع محمولة براقعة تعشى وتذهل .

كانت فى نظرنا لابد شيئا كبيرا كالجنة ، وفيها خواجات لا يحصى

لهم عذد ، وبنات كاللبن الحليب ، ونساء أفرنج لهن ملايات لف

حريرية تلمع وتلعلط ، وقصب براقعهن لابد صغير دقيق مثل

عقلة الاصبع وأنوفين لابد كحبة الفول وأجسامهن لابد مصنوعة من لحم
طرى ، وليس فيها عظام ، وانما هى كالملمن تجذبه ، فينجذب معك
وتلحسه فيسيل لعابك من حلاوته ، والرجال هناك طريين ، لا يشبعون
نساءهم ، والنساء يمضغن اللبان فيطرقع في أفواههن الحلوة الضيقة ،
ويطلبن الرجال ، رجال مثلنا فلاحين خناشير كفحول الجاموس .
وقلنا لمحمد مبهورين ، وبعدين .

ومضى محمد يحكى . قال انه نزل من القطار ، وقضى طلبه
وبقيت لديه ساعات على موعد القطار التالى ، فاشترى رغيفا خاصا
وأكله ومضى يتفصح فى شارع المحطة . وكان الشارع ممتلئا ببيوت
كبيرة لها بلكونات ، وكانت الدنيسا فى العصر الضيق وكانت
البلكونات ممتلئة بالستات ، ستات لو وزعن على رجال بلدنا لناب
كل واحد طورة وفردة خربة . ومر ببلكونة . كانت واحدة واقفة
فيها ترتدى (روبا) أحمر .

وأستخرجنا أنفسنا من التبن وسألناه ما هو الروب الاحمر .
فقال أنه شىء كالعباءة . وتشككنا فى صحة كلامه فقد كنا نسمع
له ، كالقضاة ، نتأرجح بين التصديق والتكذيب . كنا نخاف
دائما أن يكون ما يقوله مجرد حكاية يخترعها ليضحك بها علينا ،
ولهذا . كان الشك يغلبنا . ونرجح فى الغالب كفة الاتهام .

ومضى محمد يروى ويقول انه مر من تحت البلكونة فابتسمت
له المرأة .

وتلاصقنا حوله وارتيقنا •
وظن أنها تبتسم لواحد غيره ولكن الشارع كان خاليا من الرجال
وليس هناك أحد غيره • ونظر إليها فعادت تبتسم •
وأمسكنا بجلبابه وتشبثنا نستأنيه ، ولم نعد نصدق أو نكذب ،
كنا فقط نود أن نسمع ، وقلنا له : حاسب • أوعى تسبب حاجة •
فقال : مش ح أسبب حاجة • هى ابتسمت تانى ياولاد وأنا قلبى
دق وجنونى طارت وقلت فى سرى دى فرصة جتلك من السما
ياواد • عملت انى مش واخذ بالى وبصيت لها تانى فضحكت ،
قللت فى سرى ماينفعش الا واحد زبيب •
وسألناه اشمعنى الزبيب يعنى ، قال يعنى كونيـاك ياولاد •
قلنا وايه الكونيـاك ، قال خمرة • وخفنا • محمد يشرب الخمرة ؟ •
النسوان معهلشى • انما الخمرة • أعوذ بالله • المقصود • تغتفرلمحمد
وبعدين يامحمد • مشيت • لقيت واحد خواجه فاتح • قلت
ياخواجه • قال نعم • قلت ادينى واحد زبيب زحلاوى والمزة خيار •
قلنا ايه المزة دى يامحمد • قال خيار • وخفنا أن نعيد السؤال •
كنا نستعجل ما بعد ذلك وما هو أهم • شربت الزبيب ياولاد دى
غلى وطلعت الخمرة على قلبى بقى زى الحديد • قول لجل الاطمئنان
رقعت واحد تانى • ورجعت على شارع المحطة ، وسألناه : وفـت
تانى • قال فت ، قلنا ضحكت لك • قال ضحكت ضحكة
ترد الروح يا ولاد • مرة حلوة زى الكمثرى ولايسة • كانت لايسة

ايه يا محمد • لابسة قبقاب مشغول وجسمها باين كله من الروب
وبتضحك • بصيت لها وضحكت • ضحكت تانى • قلنا اشمعنى
ضحكت لك تانى يا محمد • قال ياولاد كنت لابس الحثة الزفرة
وكان عندى طاقيه وبر جمل وجزمة لميع وكوفية حرير على كتفى
وشباب فى عز نعنة شبابه • غمزت لها بعينى فراحت داخله جوه
وطلعت لابسة روب ثانى •• روب سواكبيس أخضر • رحت وجيت
من قدام البيت فشاورت لى وقالت بايديه اطلع • اطلع يا ولاد

فقلنا بعزم مافينا : اطلع يامحمد ••

فقال : طلعت والواحد متاخذ • أنى غريب • وده بيت وداخل
على حرمة • افرض حد مسكنى واللا حاجة أقول ايه • افرض لها
أهل • المقصود لولا الاتنين الزبيب يارجاله لما كانوا يقطعوا رقبتى
ما كنت أعتب بيتها أبدا •

وسألنا : ودخلت ••

فقال : صبركم على شوية • ضربت الجرس ياولاد ؟ قلنا ضربته
ازاى • قال الجرس كان له زر • قلنا والاجراس بأزرار ؟ قال أيوه
يافلاحين اتمدنوا الاجراس بأزرار • فتحتلى الباب وقالت اتفضل •
وطلع صوتها ياولاد زى السكر المعقود زى حب النعناع •

وقلنا : ودخلت •• ادخل

قال : الله • ما تحكوا انتم أحسن • ح تسكتوا واللا لا ••

قلنا : ح نسكت

قال : وقفت على الباب • خائف • سندت على الباب وقالت لى
ماتخافش • جوزى مسافر • قلت ياواد هى موتة والا اتنين •
قلت لروحى تدخل ياوله •

قلنا له : ادخل يا محمد يخرب بيتك

قال : دخلت • وقعدت فى أوضة الجلوس • كراسى مدهبـة
ياولاد • ومرايات بنور فى الحيطان ولعاليب وشخايل فى كل ركن
من الاركان • وبعد شوية بصيت لقيتها داخلة على بفستان كحلى
بياكل من جسمها أكل ، وكانت جاييه معاها ازازة وكاسين • قالت
لى اسمك ايه يا شاطر ؟ قلت لها خدامك محمد • قالت دانت سيدى
تسلم لشبابك • تحب تقعد على الكراسى ياسى محمد ولا تخليها على
البساط أحمدى •

قلنا : اقعد على الكرسي يا عبيط

قال : لا • قلت أنا مش واخذ على قعدة الكراسى • يمكن أدوخ •
وقلت لها اسم الكريمة ايه ؟ قالت لى : فيفى • قلت لها وانت فيفى
صحيح • قالت لى انت بتشرب ياسى محمد • قلت أشرب تانى
ياولاد ؟

قلنا : اشرب يا أخى •

قال : وقعدنا نشرب ياولاد • واحد فى الثانى فى التالت أنا

اتخذت والاوزة لفت بي . قالت لي : انت اتاخذت . قلت أبدا

قالت أجبلك حاجة تفوقك . فانكسفت أقول هاتي

قلنا : ياخايب تنكسف ليه ؟ وجابت لك ؟

قال : جابت لي ؟ دانا بصيت لقيتها داخله على بصينية أكل .

قلنا : فيها ايه

قال : ديك رومي ياولاد محشى من جوه حمام ، وبطاطس ولحمة

ضانى .

قلنا : يخرب بيتك يامحمد . وأكلت ؟

قال : أنا بقيت دارى عن روحنى . أهو فضلت تطعمنى . .

قلنا : مش عيب ؟

قال : عيب ايه ياولاد ؟ ما عيب الا العيب . أنى كنت بقيت

السلطة قوى وعلى الآخر . فمدت ايدى عليها .

قلنا : من غير ما تغسل ؟

قال : ياباى . غسلت . انتو ح تطهقونى .

ورجوناه ألا يطهق ، وما كان فى حاجة الى رجاء ، كان يبدو هو

الآخر منسجما لا يستطيع أن يوقفه شىء . ومضى يقول : مدت

ايدى عليها ياولاد . تقولوش عجمية .

قلنا : وشها كان أبيض ؟

قال : أبيض من القطن المدقوق

قلنا : وشعرها كان ازاي يا وله ، كان اسود ؟

قال : ومحصل لغاية ركبتها

قلنا : قول والنبى قول بس اوعى تفوت حاجه .

قال : كان جسمها ناعم نعومية ياولاد ، أنعم من بذر الخروع .

قلت لها أنا فى عرضك . أنا خلاص . قالت طيب تعالى . وخذتنى

على السرير . ونزلت الناموسية . ناموسية بمبة والنبى . ومدت

أيدها طفت النور .

قلنا : حاسب . على مهلك قوى

قال : وبعدين بصيت لقيت الناموسية بتبرق ياولاد . أنا قلت

القيامة قامت . اتريها ولعت نور تانى فى الناموسية . واتبن كان

فى سقفها لمض صغيرة حمرا وخضرا وزرقا وصفرا . وبصيت لقيتها

قدامى ياولاد حاجة تهبل . حنة منها لون والتانية لون كأنها جنية .

قلنا : وبعدين ؟

قال : بس ياولاد . وشفت معاها ليلة ولا ألف ليلة . .

فعدنا نقول : أبدا ما ينفعشى . وبعدين . فى عرضك . وبعدين

قال : ولا قبلين

قلنا : يا أخى ماتقول . يا أخى ارحم . وحياة رحمة أبوك .

وبعدين

وجاد علينا بالقليل . ولم يشف غليلنا أبدا . وتركنا ولعه

كالنار الموقدة • وبدا من أن يمدونا حديثه زادنا اشتعالا • وقال
واحد منا :

- سيبوكو منه ياولاد • ده كله فتش

وقال آخر :

- طيب تحلف ان ده حصل

وأقسم محمد • وازددنا ثورة • ولم نصدق • وأقسم بثرية أمه •
وقلنا كذاب • انت بتضحك علينا • فقال أبدا والله ، هذا حصل ،
قلنا كذاب • ياولاد أنا عمرى ما كدبت عليكم • انت كذاب • انتم
أحرار • فقلنا : يعنى لو رحنا المنصورة تودينا البيت • قال أوديكم
• • • تودينا • أوديكم •

وانتفض واحد وقال : ماتيجى نروح المنصورة ياولاد

وهللنا • قال كل واحد كلمة • وصدرت عنا أصوات وتعانق
أكثرنا • كانت عقولنا كالقاعة الضخمة الفارغة أقل الأصوات
يحدث فيها أعظم الرنين • وهجنا هياجا شديدا حتى ان اثنين منا
أمسكا بمحمد ، واحد من رأسه ، والاخر من ساقيه وظلا يؤرجحانه
بينهما حتى ألقياه على التبن ، وصرخ واحد وقال : يارازق الفرخة
وديكها • ثم اندفع الى النورج يجره ويدور به فوق (رمية) القمح
المعدة للدراس • والنورج ثقيل جدا • لا تكاد تستطيع البهيمة سحبه
وقال واحد : ولاد • • • ولاد • اسمعوا ياولاد • ولاد اسمعوا ياولاد

وظل يصرخ حتى سمعنا • فقال : تيجوا نروح المنصورة ؟
وعاد الهياج بحماس أكثر • وتعالى سحب التبى فملاً عيوننا
وأجسامنا وعفرنا ترابه •
وكنا قد غادرنا الكومة ، وأصبحنا فى وسط الجرن ، وكل منا
مشغول بشىء أو مشتبك مع الثانى فى مصارعة ، والشاطر من
يوقع الآخر

وقال محمد : تيجوا نلعب ياولاد ضربوتا لما عمونا •
وهجنا من جديد ووجدنا أنفسنا نزعق ونقول : عايزين نروح
المنصورة • ووجدنا لها نغمة ، فعدنا نغنيها •• عايزين نروح
المنصورة •

وتصاعد صوت يقول :

الدنيا ليل ياولاد

ورددنا عليه جميعا : عايزين نروح المنصورة

وهرش واحد وقال :

— حدانا عزيق بكره ••

فقلنا : يامحنى ديل العصفورة عايزين نروح المنصورة



وأفقنا لانفسنا فوجدنا أننا قد قطعنا شوطا كبيرا • كنا قد غادرنا
بلدنا وحدودها وغيطانها وأصبحنا نمشى فى طريق زراعى يقطع زمامات

بلدة أخرى . ولحظتها فقط بدأنا نعى اننا مقدمون على شيء ، وأننا ذاهبون فعلا الى المنصورة . وكان سبب يقظتنا أننا شممنا رائحة الارض الغريبة ، فى بلدنا كنا نحس بالاثقة لكل شيء ونتصرف بحرية ولا نخاف ، كل نخلة كنا نعرفها ولا بد طلعناها وأكلنا منها بلحا وجمعنا من تحتها رطبا كل غيط طرقناه ورأيناه فى طفولتنا وصبا . كل بيت نعرفه ونعرف أهله كما نعرف أهلنا ، والشجرة أى شجرة ، نعرف فروعها بالفرع الواحد ، وكل منا يستطيع وهو مغمض العينين أن يفرق بين تراب بلدنا وأى تراب آخر . ولم نفق الا لاحساسنا أننا قد غادرنا أرضنا وأصبحنا فى بلاد الناس

وانتابنا خوف حقيقى حين أيقن كل منا أن الدنيا ظلام وانه يسلك طريقا لا يعرف له نهاية ، وأنه لم يعد فى بلده ولم يستطع أى منا أن يصرح بما يدور فى خاطره ، كانت جماعتنا تتحرك ، وكانت لها رهبة وكأنها أصبحت عملاقا كبيرا له عشرات الاذرع والايدي والرءوس ، حتى بدا ما يفكر كل منا فيه صغيرا تافهسا يخيفه هو وحده . وأصبح هم كل منا حينئذ أن يلتصق بالآخرين أكثر حتى يذوب خوفه ، ويختفى فى جسد ذلك العملاق الكبير . وبعد أن كنا متناثرين على الطريق تقاربنا ، وتشابهت خطانا ، بل وتشابكت أيدينا ، وتولانا وجوم وسكوت ونحن نستغرب من سيرنا المندفع الذى لا يتحكم فيه عقل ولا يتوقف . كان فى صدورنا هدير

لا يرحم . والمنصورة تجذبنا ، كلمة ولكنها أصبحت تعنى بالنسبة
الينا شيئا كالحياة أو أغلى من الحياة ، تيار عارم كان ينبع من صدورنا ،
ويقودها . ويقودنا . ويدفعنا رغما عنا .

ولم يعد يسـمع سوى وقع خطواتنا على الطريق ، وقع هامس
خافت كأننا قافلة جمال ، فقد كنا حفاة ، ومن كان يرتدى فى قدمه
شيئا خلعه ووضعته تحت ابطه ، وكنا نلهث ، ووجوهنا تلمع ، وغبار
قليل يشور ، والليل من حولنا كبيرا ، أكبر من أى شىء فى الدنيا ،
واسود ، ومخيف ، وملىء بالهمهمات والاسرار ، والزرع كثير محيط
كالبحر المالح الذى ليس له بر ، والنبات واقف ، ميت ، تحركه
النسمات فيتحرك معها ، حركة ميتة بطيئة ، وأصوات سواقي تأتي
من بعيد ، كأصوات النائمات فى الجنائز ، حزينه على
الزرع الميت ، وطلقات بنادق متباعدة لا يعرف من ضاربها وأين
يضر بها والى من تصوب ، وديكة تصيح قبل الاوان ، ونباح كلاب
يأتى من بلاد مجهولة ، وهواء واسع يحف بأرض واسعة فتهمهم
الارض وتتشعر الريح ، وهمسات الظلام تنبثق فى أماكن غير
مرئية ، همسات خفية لثيمة لا تنقطع كأنها تصدر عن حيطان
هائلة لا ترى تسبح فى بحر الظلام وتتقلب .

ومد واحد يده ، وزغزغ الذى فى جانبه وانزعج الآخر انزعاجا
عظيما ، وقفز فى الهواء وصرخ وضحكنا . لم نضحك ضحكا عاديا .

متنا من الضحك • ورحنا نزعزغ بعضنا ونموت وتتقطع أنفاسنا من
الهيقات •

وقال واحد لمحمد وهو يلکزه : ورجليها يامحمد •• زی رجلينا
کده ؟

فقال محمد : هي رجليكو دی رجلين • دی قحوفة نخل •

وعاد السائل يسأل : أمال رجليها ازای

فقال محمد : زی الجمار

- زی رجلين صفية الغازية ياوله

- صفية مين يا حمار دی ولا تیجی فی ضافر رجليها الصغير

- وبطنها يامحمد •• داقه عليه سمكة

- سمكة ايه يا جدع •• ايه شغل الفلح ده ••

- أمال داقه ايه ؟

- ولا حاجة •• هي دی بطن يندق عليها •• دی زی العجين ياوله

- وكانت حاطه أحمر وأبيض يامحمد

- والله ما خدت بالی

- ماخذتش بالك ازای • ودي حاجة تقنسی ؟

- كانت حاطه

- وبتکلم بندراوی والا فلاحی يامحمد

- بندراوی مکشکش ياوله

وههنا . وطرنا وراء بعضنا ، وإختفيننا من بعض فى الاذرنه
الصيفى وقد أصبحت المرأة شديدة الوضوح فى ذهن كل منا ،
حلوة ، تماما كما يريد لها الواحد منا ، ملموسة ، وكأنها أمامه وكأنه
قضى معها ليال كثيرة

ومضيها ونحن نتدافع ونتجاذب ونسرع ، وضحكنا ، وتحدثنا ،
وقهقهنا ونحن نستمع الى تخميناتنا عن المسافة الباقية على المنصورة
واحد يقول ألف ألف متر وآخر يقول أربع محطات . وتشعبت بنا
التخمينات

وتنبهنا فجأة فلم نجد محمد بيننا

وكانما اندكت سكين فى قلب كل منا . ودون أن نتعقل أو نتشاور
انطلقنا نجرى فى كل اتجاه لنمسك به . كان قد زال عنا كل شك
فى صدقه وتواصل ما قاله فى مخيلة كل منا وحفرت تفاصيله فى
عقولنا حفرا ، وأصبحت المرأة ذات الروب الاحمر والازازة ليست
مجرد امرأة أخرى من اللاتى تعود محمد أن يحكى عنهن ، أصبحت
امراة كل منا ، يكفى أن يصل الى المنصورة ويريه محمد بيتها ذى
البلكونة الحديدية ، ونطلع واحدا وراء الآخر حتى تموت من السعادة
وتسر ، ويمكن تعطى كلا منا جنيها ، فالواحد منا ولد ، ولد عترة
لا يعادله أولاد المنصورة كلها وشربين . واذا بالخنزير يساهينا

ويهرب

كنا ونحن نجرى نصدر الاوامر لبعضنا .. روح انت ناحية
التابوت ، دور تانى بر السكة الحديد ، اطلع انت على الكوبرى .
وبهذا تفرقنا فى شبكة واسعة لا يستطيع كائن من كان أن يهرب
منها . وكان الواحد منا لا يملك منع نفسه من التفكير : ماذا لو لم
نجد محمد ؟ هل نعود الى بلدنا بايدي ورا - وايدي من امام ؟
وكانت اجابتنا جميعا : ان لا .. لا .. لن نعود ، يكفى أن نصل
فقط الى المنصورة ، اذ لا بد أن نعر هناك على بغيتنا ، لابد أننا
واجدون عشرات من نساء افرنج بمسلايات لف ، نساء كاللبن
يؤكلن أكلا ، نساء حلوين ياوله ، أحلى من العسل النحل والقشطة ،
وسمعنا صرخة تأتى من بعيد : أهه ياولاد .. محمد أهه ياولاد ..
لقيته . وكالريح المندفعة العاتية اتجهنا الى الصرخة ، ووجدنا محمد
قد دفع صاحب الصوت دفعة وجرى ، وجرينا وراءه ، وتبلور كل
ما نطلبه من الله فى الامساك به ولم يكن عسيرا أن نقبض عليه .
ولم يسكت . مضى يتفلفص ويضربنا وكانت ضرباته غريبة جامدة ،
قوية كضربات الرجال ، وتفاديننا الضربات وتحملنا الى أن كتفناه ،
وأحطنا كما تحيط جماعة نمل صغيرة بكسرة خبز وحاول المقاومة
وفشل . وحاول وفشل وأحس أننا أقوى منه فاستسلم . وخلع
واحد جلبابه وربطنا به ذراعيه . وقال بلهجة وقحة جافة : انتم
عايزين ايه دلوقت ؟ قلنا عايزين تورينا بيت المره . فقال مش

موريكم • قلنا : غصب عنك ح تورينا • قال : بالعافية يعنى ؟
قلنا : بالعافية • قال : ح أوريكم يا نسوان • قلنا : ابقى ورينا •
قال : بالعافية يعنى ؟ قلنا : بالعافية • ياللا

وعترس فى الارض ، فجررناه بالقوة ومشى معنا والغيط يخنقه •
ثم تتم وقال : المنصورة بعيدة يا اولاد وح نتوه • قلنا ملكشى دعوه •
قال ذنبكم على جنبكم قلنا : على جنبنا • ومشينا ، صامتين وقد
تكهرب الجو • ولكن الصمت لم يدم طويلا • تكلمنا • وقلنا نغنى •
ولم نكن نحفظ أية أغنيات ، البنات وحدهن هن من يحفظن الاغانى
ولهن فى هذا باع ومقدرة ، كنا لا نحفظ الا مطلع موال : أقوم من
النوم أقول يارب عدلها • غناه واحد فخرج صوته قبيحا فأسكتناه •
ومضى كل منا يغنيه كما يحلو له

وهللنا مرة هلولة كبيرة ، وتضاربنا وتعانقنا ، وعفرنا بعضنا
بعضا بالتراب ، وخلع واحد جلبابه ورماه ، ثم عاد وارتداه ،
وتبادلنا حذف الطوب ، فقد بدت فى الافق أضواء صغيرة منتشرة
كعيون الجراد حين تلمع فى النور •

كانت أضواء المنصورة •

كانت المسافة بيننا وبين الاضواء تبدو قصيرة جدا ، مشوار صغير
ونصبح فى قلب المنصورة • ولكننا ظللنا نجرى ونرغم محمد على
الجرى حتى لهثنا • وبدأنا نمشى ، ومشينا حتى لم يعد فى استطاعتنا

انشى ، ومع هذا لم تقترب الاضواء الا مسافة قليلة ، وكأننا كلما
اقتربنا غارت فى الظلام وابتعدت .

وقال محمد : يا اولاد نرجع . فانفجرنا فيه : اخرس . وقلنا :
مدوا يا جماعة الوقت اتأخر . واستجمعنا كل ما تبقى لنا من عافية
وواصلنا المسير .

وفجأة لعلت فى الظلام قهقهة عالية والتفتنا فوجدنا محمد هو
الذى يضحك ولما رأنا قد استدرنا اليه مضى يفتعل الضحك افتعالا
وينثنى ويقوم ويضحك وهو يقول الجملة التى نقولها فى بلدنا كثيرا
حين يفلح واحد فى خداع الآخرين وسبك الكذب عليهم ، ويتطوح
آخر الامر بكشف نفسه .. هيه .. ضحكت عليكم .. هيه ..
يا هبل ضحكت عليكم .

فسألناه : ضحكت علينا ازاي ؟ قال : انتو صدقتوا ، قلنا :
ايه ، قال داني كنت بضحك عليكم . تضحك علينا ازاي ؟ علشان
انتو هبل . يعنى مش شفت المره فى المنصورة . ولا عمرى رحت
المنصورة . انت كذاب . والنبي يا اولاد عمرى ماشفت المنصورة
بعينى . انت ابن (..) انتو الى عبطا .

وهل علينا صمت ثقيل ، رحنا فى أثنائه نتلفت الى أضواء
المنصورة ، وقد أصبحت قريبة نكاد نمد أيدينا فنقطفها ، والحق
اننا ما كنا نرى فيها أضواء ومدينة كانت المنصورة كلها قد استحالت

زقى نظرنا الى امرأة مثل العجمية ، تطل من بلكونة ، ولها روب ، ولها
ابتسامة ، وتدعونا . ومضيئا نتلفت الى الاضواء ونعود الى محمد
لنجدده واقفا مائعا يصطنع الضحك ويسخر منا .

وقال واحد دا بيضحك علينا ياولاد . . هو مش عايز يورينا المرة
. . دا بيضحك علينا ياولاد . . هو مش عايزنا نروح

وتنبهنا . صحيح أنه يضحك علينا . وشخط محمد وقال :
بضحك عليكو ايه يا حلاليف . فصرخنا فيه نلغنه ونقسم اننا لن
تتركه حتى يرينا بيت المرأة . فعاد يقهقه ويتهمنا بالعبط واننا
مهابيل وعدنا نقسم اننا لن ندعه يخدعنا ويحتفظ لنفسه بالمرأة من
دوننا . وأمرناه أن يواصل المسير . ورفض أن يسير . فجررناه .

فرفع ساقه ورفض واحد منا فى بطنه وهاج فينا ، وانفجرنا وجمعنا
كل ما فينا من غيظ وانقضضنا عليه وأوقعناه واندفعنا نكيل له
الصفعات واللكمات ، وراح يضرب بالروسية وينطحنا ويدفعنا
بسيقانه ، وتكاثرنا عليه حتى ربطنا ساقيه معا بقميص ، وجرى
واحد الى الخليج وأحضر ملء يديه طينا وطلّى به وجه محمد وملأ فمه
وبصق عليه . وحاول محمد أن يصرخ فكتمنا أنفاسه ، وسكت ،
وخفنا أن يموت ، فرخرخنا أيدينا ، وتنفس ، وقال واحد : نجره
الى الغيط ونكويه بالنار . فقلنا كلنا : نكويه . وجررناه الى الغيط ،
وبحثنا عن كبريت . ولم نجد . فقلنا نصنع شرارة بزناد من

الزلط وبحثنا عن الزلط . وعثرنا عليه فوق السكة الحديد . وقلنا
يلزمنا مسمار أو حديد . وهمنا نبحث عن حديد . ولم نجد الا
صفيحة . وبرك واحد على صدره وأجرى الصفيحة على ساقه .
وقال : ح تقول على بيت المرة فين واللا نموتك . ولم يعترف .
فأخذنا ننشب أظافرنا فى جسده ونقرصه ونعضه ونطلب منه أن
يدلنا على البيت .

وأدركنا آخر الامر أن لافائدة ، وأنه كذاب .
فجئنا أكثر . وأنهلنا عليه ضربا من جديد ، وحز ماسك الصفيحة
فى ساقه وقال له :

— طب قول أنا مرة

ولعن محمد أباءنا جميعا ورفسنا

وقال واحد : لا ينفع الا الكى

ورحنا نتبادل الزناد والزلط ، ونحاول أن نحدث الشرر ، وفى
كل منا جزء صغير معجب بمحمد لانه لم يقل انه امرأة ، وجزء
كبير حائق على اللئيم الذى خدعنا .

وحدثت الشرارة ، واحمرت قطعة القطن ، وهللنا ، ونفخنا
فيها ، واشتعلت النار . وملائتنا دهشة فقد كان لونها شاحبا جدا .
ونفخنا فيها ، وشحب لونها أكثر وأكثر . وعدنا ننفخ بلا فائدة
وتبيننا ان النار ليست وحدها الشاحبة كان كل شىء يشحب

ويصفر ثم بدأت النار والاشياء من حولنا تبيض ، ثم صفر شئ في اذاننا كالاستعانة ، وأدركنا مروعين ان حادثا جللا قد وقع - ومضى كل منا ينظر في وجوه الآخرين ويستعجب ويفيق . كانت وجوهنا معفرة كلها خدوش ، وأجسادنا يكسوها التراب ، وذباب ، ذباب كثير لزج لا يهدأ ولا يكف عن الطنين .

ومن أين جاءنا ذلك الألم ؟ وماذا يقول أهلنا ؟ سسيضربوننا بالتأكيد ، ويشنقوننا واه من شتائمهم . كلها ألفاظ حامية تجرحنا وتصيب رجولتنا الصغيرة الحساسة في الصميم . كان على بعضنا أن يقوم في الفجر ، وكان لابد من تعليق توابيت ، وتتريب زرائب وكنا لم نهم ، لم نهم أبدا وعيوننا حمر ، هل مرضت ؟ وهل طلعت الشمس أيضا في بلدنا ؟ وأشكالنا مالها فيها ذهول واجرام وتوبة مالها فيها (قشف) و (قوب) ، وحفر غائرة وحب شباب ونقاط سود لماذا نحس الآن فقط اننا غلبة فقراء ، وان بيوتنا ليس فيها سوى صيحات كلاب وجعير آباء وأمهات ودخان المواقد الخانق ؟

وروعنا ، ونسينا كل شئ ومضينا نتحسس أجسامنا وملابسنا ونرى مدى ما أصابها من تمزيق ، ونرى أنفسنا في وضوح بشع شديد نخاف معه أن نرى أنفسنا .

وكان محمد راقدا . جلبابه ممزق ، وجسده ممدد كالخرقة البالية والذباب يعف عليه بكثرة ، والجروح تشوه جسده ودماء

عتجمدة فوق أنفه وعلى جانب فمه وتملاً الشق الذى فى شفته ،
نائما مستسلما كالذبيحة الفاطسة ، كالمرأة بعد ليلة حافلة
وفككنا عنه الاربطة ، بلا حماس ، وتألم • وأحسننا بألمه يحز
فى قلوبنا ويجرحها •

ووجدنا أنفسنا بعد حين هائمين على وجوهنا ، عائدين الى بلدنا من
نفس الطريق ، تدفعنا قوة قاهرة ، عائدين نخرج ونتساند ونئن ،
ونفكر فى النهار • النهار الذى داهمنا بغتة وخلق أمامنا الارض
وحملنا بهموم الدنيا ، النهار الحار الجاف الحشن الذى كنا نراه
رؤى العين منتصباً أمامنا كرجل عملاق قامته أعلا من قامة الشمس ،
ولا رحمة فى قلبه ، ولا خرقه فوق جسده ، وفى يده هراوة
ضخمة ، منتصباً هكذا ، ينتظرنا ، ويتوعدنا ، وتقذح عيناه بالشرر
ونحن متجهون اليه ، خائفون ، خاشعون ، عالمون تماماً أننا لن ننقدم
بيده •



obeykhan.com

أليس كذلك



obeykhan.com

يضيرك أن تعرف اسمى ؟ حقا ؟ اسمى هـ . كـ .

تيمو شلاى .



هندي أى نعم . من الهند . أرجو عفوك .

اسمى متعب لكنه هندي مائة فى المائة . متعب ؟! تيمو يعنى شىء

كالجوهرة . نعم شىء كالجوهرة . هذا الترام ذاهب الى الاهرام ؟!

حسن . حسن جدا . نفس الطريق ؟ وتجيد الانجليزية ؟! حسن .

حسن جدا جدا . استطيع أن أعبر عن نفسى الآن . لا . لست ذاهبا

لمشاهدة الاهرام . أنا لم أشاهدها لا هى ولا المتحف وليس لدى

وقت لمشاهدتها .

غريب هذا الكلام ؟ كل الاجانب يأتون فقط من أجل رؤية

الاشياء القديمة هذه ؟ أتظن ان مصر القديمة هى التى أغرتنى

بالمجئء الى مصر ؟؟ أبدا . أتعلم شيئا ؟ أنا جئت لأرى مصر

الموجودة . مصر التى فى الشارع وليست تلك الموضوعه خلف

ألواح الزجاج .

أنا أعرف مصر . نحن فى الهند نسمع عنها كثيرا . ولكنكم اليوم

حديث العالم . ألا تعرف هذا . كل العالم ايجيب ايجيب . أتعلم

أين أنا ذاهب الآن ؟ أنا ذاهب لوداع صديق • أتدرى من ؟ فتاة •
فتاة كباريه ! أرجوك لا تسيء فهمي • نحن أصدقاء جدا • وأنا
سأرحل غدا • جئت لأقول لها وداعا • فقط لأقول لها وداعا •
أتعلم أين رأيته ؟ فى نفس الكباريه الذى أنا ذاهب اليه الآن •
أرجو عفوك • أنا رجل صريح • وأحب الناس أن يتحدثوا معي
بصراحة • بصراحة • لقد حدث فى شيء ما منذ أن وضعت قدمي
فى بلدكم • أتعلم ما اسمها ، اسم الفتاة ؟ باهيا • اسم جميل ؟
أليس كذلك ؟ ياله من اسم ! باهيا ! مجرد نطقه يملأ صدرك
بالراحة • عرفتها من ثلاثة أيام • أنا هنا من أسبوع • تصور سوء
حظي • فقط من أسبوع • كنت داخلا الكباريه لأتفرج • كنت
أريد أن أرى كل مكان فيه ناس فى مصر • وأنا غادرت بلدى
لأتفرج على الناس • فى الهند أنا عضو فى البرلمان • أجل عضو
فى البرلمان • ولكنى هنا لست الا متفرجا فقط • أيدعشك أنى
عضو فى البرلمان وأنا صغير السن هكذا ؟ ولكنى لست صغير
السن • هل أبدا حقا فى العشرين ؟ كما ترى • أنا قصير ، ولحية
لى ولا شارب ، ولكن أتعلم أنى فى السابعة والثلاثين • سأبلغها فى
أكتوبر • ١٩ أكتوبر • ولى ولد • ابنى • يبدو اذا مشيت بجواره
أكبر منى سنا • اسمه لال • لال تيمو شلاى • لال يعنى صغير •
ابنى هو تيمو شلاى الصغير ، وأنا تيمو شلاى الكبير ، أفهمت ؟

ومع هذا فتيمو شلاى الكبير أصغر من تيمو شلاى الصغير . نهرو ؟
ومن فى الهند لا يحب نهرو . بينى وبينك بعضهم لا يحبه .
ولكنى أحبه . أنا مثله اشتراكى . اشتراكى على طريقتنا . أنا
مثلا علمت نفسى . أن أبى لم يعلمنى ، وأنا أعلم لال تيمو شلاى .
ابنى ، ومع هذا يقول عنى أحيانا انى يمينى متطرف ، أكثر يمينية
من أتلى . واحتفظ بها سرا . أحيانا يكون على حق . أرجو عفوك .
أنا أتكلم كثيرا ؟ أنا ثرثار ؟ ولكن ، أتعلم شيئا ؟ أنا أحب أن
أتكلم كثيرا ، وأحب أن يكلمنى الناس كثيرا ، اذ بالكلام نصبح
أصدقاء . وبهذه الطريقة نجحت فى مصادقة عدد كبير منكم . هذه
الفتاة . ذهبت الى الكباريه . وجلست على مائدة . الكباريه قريب
من الهرم . وأنت تعرف . فتيات الكباريهات .
انهن ، مثل الكباريهات ، متشابهات فى كل أنحاء العالم .
وجدت فتاة قريبة من مائدتى . وطبعا تعرف فتيات الكباريهات .
عملهن أن يجلسن مع الرواد مقابل مشروب . مشروب دائميا
باهظ الثمن . دائما أنت مضطر للدفع . وثمان مشروب كهذا كثير
على . فأنا وأن كنت عضوا فى البرلمان الهندى وهو مركز مهما كان
ذا صبغة رسمية الا أنى لست غنيا . أنا رجل فقير . ومع هذا
فالناس يحبوننى جدا فى حيدر اباد . حيدر اباد هى ولايتى . لا بد
أن تأتى يوما وتلقى نظرة على الهند ، وترى حيدر اباد . ولا بد

• أن تتصل بي حين تأتي • لا بد • أنا كما ترى عضو في البرلمان •
يعنى أشغل مركزا رسميا وأستطيع أن أريك أشياء لن تراها وحدك •
أنا متأكد أنك ستحب بلدى • هناك نحن نحاول أن نبني • ولهذا
فليست لدينا خلافات كثيرة • إذا اختلف الناس قل لهم ابنوا
شيئا وحينئذ لا بد أن يتفقوا • أتعلم شيئا ؟ يجب أن يتزاور
الناس • لا ليعرفوا بلاد غيرهم فقط ولكن ليعرفوا بلادهم هم •
هنا أحس بالهند أكثر • وحين تأتي أنت ستحس بمصر أكثر ،
ترامكم بطيء مثل ترامنا • ولكنه سيسرع • سنسرع به أكثر ؟
أليس كذلك • وحتى هذا الجو الحار يجعلنى أحس كأنى فى بيتى •
أتعلم ماحدث ؟ أنا سعيد جدا جدا بالقدوم الى هنا • أتعرف لماذا •
لقد وجدت كل شىء هنا يستيقظ وينمو • حتى نيلكم يفيق ويحاول
أن يختزن ماء المبعثر ، أتعلم لماذا نحن فقراء • لاننا نأثمون • ابنى
يقول عن هذه بمينيه • ولكنها حقيقة • فى بلدى حيث عملت فلاحا
لفترة طويلة كنت أحب جدا أن أرى الزرع ، الزرع الصغير
الاخضر وسيقانه النامية تدفع عن نفسها التربة وتبدو فوق سطح
الارض • أحب جدا أن أرى العجل الصغير وهو لا يستطيع
الوقوف على سيقانه ساعة ولادته ثم حين يستطيع بعد هذا الوقوف
والجرى ثم وهو يكبر ويكثر شحمه • وأنا أحب أن أرى الشمس وهى
تشرق • • لا بد أن منظر الشمس وهى تشرق فى مصر رائع • أتعلم

ما هو أجمل شيء فى الدنيا • الحياة • أتعلم ما هى الحياة ؟ النمو •
أرجو عفوك • لقد استرسلت • كنت أود جدا كما أخبرتك أن
أتحدث مع الفتاة • ولم يكن معى من النقود ما يكفى الالضروريات • أحيانا
تحس بحاجتك لمحادثة انسان ما • ألا تحس ذلك أحيانا ؟ ولم
يكن معى من النقود • • فأشرت لها وابتسمت فجاءت وهى تبتسم •
أتعلم شيئا • انكم شعب الوف • منذ أربعة أيام كنت ماشيا فى
الشارع ومعى سيجارة غير مشتعلة • ولم يكن معى كبريت وأنا
أدخن كثيرا كما ترى • وكلما قالت لى زوجتى هذا أدخن أكثر • أنت
تعرف • عناد • زوجتى بنت عمى • تزوجنا ونحن لم نبلغ العشرين
وكنت أيامها لا أدخن • وبالمناسبة لم تعجبني سبائركم المصرية
رغم شهرتها العالمية • مسألة مزاج • أليس كذلك ؟ هل تعتقد ان
التدخين يسبب السرطان حقيقة • من ناحيتى لا أعتقد هذا • أتعلم
شيئا • يبدو ان كلامى أكثر من اللازم حقا • كنت أقول انى كنت
ماشيا فى الشارع ومعى سيجارة غير مشتعلة •

وفجأة ، أتعلم ما حدث ؟ وجدت شخصا يتوقف أمامى ويخرج من
جيبه علبة كبريت ويشعل السيجارة • تصور! دون أن أسأله! ان
هذا لا يحدث فى أى بلد من بلاد العالم أتعلم شيئا ؟ انكم أول شعب
أراه يحب أن يعطى حتى ولو لم يأخذ • كل الناس تعطى وتأخذ •
أنتم دائما على استعداد للعطاء • • هذه هى قمة الانسانية • هذا

هو ما كنت أبحث عنه طول عمري • ماديّني ؟ أتعلم شيئا ؟ فى كل مكان يسألوننى ماديّني • حين كنت صغيرا ، كنت أعبد البقرة • ولكننى الآن أعبد الصداقة • أتعلم شيئا ؟ ولى صلواتى أيضا • أنا أحس وأنا أتحدث معك ان بذور صداقتنا تنبت • ذاك ما أعنيه • عبادتى ان أزرع بذور الصداقة وأنميها •

أنا أحس الآن أنى أصلى • أكسب صديقا تخسر عدوا ! أليس كذلك ؟ أتعلم شيئا ؟ لقد أعجبني الرجل الذى أشعل سيجارتى • وتكلمت معه • كان يعرف فقط نعم ولا بالانجليزية • (ييس) و (نو) فقط • • وكان رائعا • رائعا ان تراه وهو يحاول أن يرحب بى ويبشنى عواطفه بجمالانجليزية مكونة فقط من نعم ولا ، ولكنه ينطقها بطريقة تجعل للكلمتين آلاف المعانى ، وتناولت معه الغداء • دعانى أتريد نصيحة • لا ترفض الدعوة أبدا • كل دعوة تقبلها لا بد ستخرج منها بأصدقاء • أتعلم شيئا ؟ ان سكان العالم أكثر من العداوات التى فيه • هذه حقيقة • أقسم لك • أكلت يومها طعاما مصريا حقيقيا • أجل طماطيه • أوه • نعم نعم طاميه : لا لا • طعمية • نعم نعم • لقد قضوا معى وقتا طويلا ، يلقوننى كيف أنطقها • وكان غداء جميلا • تصور • • أحببت جدا بيت الرجل • وأولاده ، مصريون سمر صغار لا تملك الا أن تحبهم • • وزوجته وشبهها يظهر ويختفى من بعيد وخجلها الشرقى يمنعها من الجلوس

معنا ، وهى تنادى على زوجها بصوت خافت حتى لا ألتبه أنها
تطلب شيئا أو أنهم ينقصهم شيء وضحكات الرجل ، أتعرف ؟
ضحككم عجيب يغرى بالضحك كرائحة الشواء التى تغرى بالتهام
الطعام . وتصور . رأيت الرجل وهو يعمل . هو يعمل رفا .
ابرتة صغيرة هكذا ولكنه يعمل بها فى حذق شديد ، كم كان هذا
كله رائعا . أتعلم شيئا ؟ لقد جئت مصر لأتفرج على شعبها وأراه
حين أصبح حديث العالم ولكنى اكتشفت شيئا آخر ، أنظر ما حدث .
تأتى لثرى شيئا واذا بك تجد شيئا آخر . جئت أتعرف عليه فاذا
بى أحبه . كم كنت غبيا . قضيت أربعة أسابيع بعد انتهاء المؤتمر
فى كلام فارغ . كنت أتعرف على بلاد لا تهمنى فى شيء . كان يجب
أن آتى الى هنا مباشرة . هنا قلب العالم . هل أبالغ . أنا لأبالغ .
هنا قلب العالم . أتعلم ماسوف أقوله حين أعود الى الهند . سأقول
الحقيقة أتعرف ماهى الحقيقة ؟ اننى غبى . كان يجب أن آتى الى هنا
مباشرة وليس هذا كل شيء . قابلت كونستابل . أنت تعرف ،
كونستابل ، الذى اذا رقي يصبح ضابطا . من اللحظة الاولى صرنا
أصدقاء عظاما . أعطانى صورته . أنظر . أين ذهبت ؟ هاهى ذى .
يبدو كالهنود ؟ أه ؟ كنت أقول هذا . أتعلم شيئا . كان ينطق
الانجليزية مثلى . هل لاحظت أنى أنطق أل (أل) وأل (دى) فى
أفرقة مكتومة . . كل الهنود ينطقون الانجليزية هكذا ينطقونها

بلكنة أردية ، كانوا يقولون لى هذا فى وارسو . أجل . وارسو فى بولندا . أجل بولندا . كنت هناك فى مؤتمر لدراسة مشاكل الشباب . أنا وان كنت لا أعتبر نفسى شابا الا أننى مهتم جدا بدراسة مشاكل الشباب . أتعلم لماذا ؟ لاننى أهتم دائما باليوم الذى سيجىء ، والشباب هم الايام الآتية . تعرف شيئا آخر ؟ لقد وجدت أن مشاكل الشباب فى وارسو هى نفس مشاكلهم فى دلهى !! قابلنى هناك شاب صغير ناقشنى فى الموقف العالمى تماما كما يناقشنى لال تيمو شلاى ابنى ، نفس المنطق ونفس الحجج ، ولكنه طبعا لم يقل انى يمينى متطرف . سأكتب كتابا عن انطباعاتى حين أعود . أجل ، كتابا من حوالى ٣٠٠ صفحة من الحجم المتوسط وغلافه بالالوان . عفوك . صديقى الكونستابل . لقد أعجبت به جدا . أتعرف انه دعانى لزيارة قريته . انها قريبة جدا من القاهرة ، تأخذ الاوتوبيس الاصفر وبعد ١٥ دقيقة تكون هناك . لقد ذهلت . أتعلم شيئا . لم أكن أتوقع هذا . فتصور ! لكأننى عدت الى قريتى تانورا فى حيدر أباد . أعجب شىء انى اكتشفت أن فقركم يشبه فقرنا تماما . تصور الوقت الذى أضعته أفرج على بلاد لا أعرفها .

أنا هنا لا أفرج . أنا أغير . أغير كل دقيقة . أنتم تستيقظون والحوادث تجرى بسرعة . كل دقيقة يحدث شىء . أن تصبح بلادنا

بلادنا ليس بالامر السهل يا صديقى . ليس بالامر السهل . تصور .
تأميم القناة . كنت وأنا بعيد أرى أنها خطوة كبيرة لايحتملها الموقف
فى العالم ، ولا يحتملها شعبكم نفسه . ولكن أنظر ما حدث . حين
أصبحت هنا ، بينكم ، تغير رأىى . وتصور . فتاة الكباريه التى
حدثتك عنها . تكلمت معها فى تأميم القناة . نعم تكلمت معها .
أعجب شىء . وجدتها متتبعة كل ما يحدث . أنتم شعب رائع .
تصور . اسمها باهيا ، قلت هذا قبلا . يبدو أنى أكرر نفسى .
هذه كارثة . فتاة سمراء طويلة واسعة العيون . حواجبها مزججة
كما تفعل نساؤنا فى الهند . تكلمت معها كثيرا . أنت تعرف أنى
أحب أن أتكلم مع الناس كثيرا . وتصور ! لقد حسبتنى أيضا فى
العشرين . كل من يرانى يحسببنى فى العشرين ولست أدرى
لماذا . كانت تتكلم معى بالانجليزية ولكنها كانت تخطىء باستمرار .
سألتها كيف تعلمتها . أنا لا أخجل من توجيه الاسئلة . انت
تعلم . أن تدعى الجهل خير من أن تدعى العلم . أليس كذلك ؟
سألتها كيف تعلمتها . أتعرف شيئا ؟ لقد اكتشفت اننا تعلمنا
الانجليزية من نفس المصدر . تصور أين أنا وأين هى ، وتعلمناها
من نفس المصدر . هى من البحارة والضباط الانجليز فى
الاسكندرية وأنا من عملى فى الجيش الانجليزى فى الهند . اشتغلت

معهـم طوآل الحرب • كانوا يدفعون جيـدا ولكن العمل كان شاقا
تصور هذا • الانجليز علموا المصريين والهنود الانجليزية • أرادوا
هزيمتنا بتعليمنا لغتهم ، فاستعملنا لغتهم فى التفاهم بيننا • أليس
هذا أروع • أو تعرف شيئا آخر • لقد تحدثت معها فى مشاكلها
فأنا كما ترى مهتم بمشاكل الشباب ، وهى لاتزال شابة • وعن
ليلتها أصبحنا أصدقاء كبارا • وبينى وبينك • باهيا هذه جريئة
جدا • سألتنى أسئلة كثيرة • حتى خجلت ، أنا ، الرجل •
تصور • أنا خجلت • كانت تبدو شريرة جدا • أى انسان يراها
لابد يخاف • أنا خفت • ولكن أتعلم شيئا قلبها كان من الداخـل
أبيض مثل السارى الابيض • أخ • يالى من ثرثار • تصور • أنا بدأت
أتكلم معك لاقول لك أغرب ما حدث لى مع باهيا ولكنى طول الوقت
كنت أتحدث فى أشياء أخرى • أنه أغرب ما حدث لى فى مصر كلها ،
واذا بى أشط وأنسى • أنه شىء مذهل يا صديقى • لن تصدقه •
ولكنه حدث • حدث لى • مع باهيا • أتعلم لماذا قبلت الجلوس معى
دون أن أطلب لها المشروب الباهظ • حدث الامر هكذا • حين
اقتربت منى قلت لها • يا فتاتى الطيبة • أنا لست يسائحا • أنا
رجل فقير • وأود أن أتحدث معك قليلا • هل أستطيع أن أفعل هذا
دون أن أطلب لك شيئا • قالت مستحيل ، أنت تعرف أن هذا

ضرورى . قلت لها انى أحب جدا أن أتكلم معك . أنا هندى من الهند ، وجئت أزور مصر ، وأحب جدا أن أعرف الناس وأتحدث معهم . ولكن ليس معى الا ١٠ يكفى السفر . صحيح أنا عضو فى البرلمان ولكنى رجل فقير . هل هذه جريمة .

وانظر ماحدث . قالت . أنت هندى . قلت نعم . قالت كيف حالك ، وسلمت على . فسألتها لم هذا الترحيب المفاجيء فقالت لانى أحب الهنود . أتعلم لماذا . لانهم يقفون بجوارنا ضد الانجليز . أرايت هذا ؟

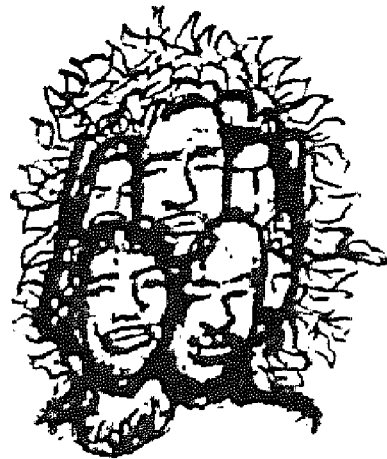
سألتنى : اذا حاربنا الانجليز هل تحارب معنا .

قلت لها يا فتاتى الطيبة . أنا مستعد أن أفقد رأسى من أجلك . ليس من أجلك أنت بالذات ولكن من أجل شعبك ، طبعاً ليس من أجلها بالذات . فانت تعرف انى رجل متزوج ولى ابن يبدو أكبر منى سناً . قالت : صحيح تحارب معنا ، قل الحقيقة ، تحارب معنا ، قلت اننى وشعبى كله مستعدون أن نفنى ونحن ندافع عنك . أقصد ليس عنك أنت بالذات وانما عن شعبك .

وكنت أقولها وأنا مؤمن بما أقول ايماناً عميقاً . ولكن أنظر ما حدث . هللت فرحاً ، وتحمست جداً . وأنا أحب الناس اذا تحمسوا ، انهم لا يكذبون حينئذ ، هكذا كان يقول أبى . تحمست

جدا وشدت على يدي بقوة جعلتني أهتز كلي . انت ترى . أنا
صغير جدا ومن السهل أن أهتز " شدت على يدي وقالت :
اجبشيان هند سوا سوا . أتعرف شيئا ؟ لم أكن أعرف معنى
سوا سوا ، ولكنني أحسستها . أحسستها لان قلبي ارتعش وهي
تنطقها . أجل . بشرفي دق هكذا دب دب كاللحظة التي يرى فيها
العريس عروسه . انفعلت جدا . تصور . الشرق . شرقنا . الارض
الواسعة ذات الشمس والفقراء الطيبين الاقوياء . بلادنا العزيزة .
الصيحة وصلت الكباريه . وباهيا . الطويلة السمراء الواسعة
العيون ذات الاسئلة الجريئة والوجه الشرير باهيا . تأثرت جدا .
هذا شيء كثير . أنت تعلم يداي كانتا في يديها . تصور . ايد
سمراء من الخارج ومن لداخل بيضاء بيضاء . وتصور . أتدرك هذا ؟
حين فقط تصافحنا بأيدينا صار لنا عشرون أصبعا . نعم عشرون
أصبعا متزاحمة ، اصبع أسمر بجوار اصبع أسمر . الطويلة ذات
الوجه الشرير باهيا . أتعلم شيئا ؟ لقد كدت أفقد وعيي من الفرحة .
وقلت لها ! انظري هنا يا فتاتي الطيبة . أنا لست من رواد
الكباريهات ، أنا رجل متزوج ، ولي ابن يبدو اذا مشيت بجواره
أكبر مني سنا ، وأشغل مركزا رسميا في بلادى ، ولكن سوف
أتشرف حقيقة اذا قبلت صداقتي . وكنت أعنيها . أجل تشرفني .

أَتَعْلَمُ شَيْئًا • مِنْ لِحْظَتِهَا صَرْنَا أَصْدِقَاءَ • أَتَعْلَمُ شَيْئًا آخَرَ ؟ لَقَدْ
ظَلَلْتُ أُرَدِّدُ لَهَا اسْمِي خَمْسَ دَقَائِقَ دُونَ أَنْ تَلْتَقِطَ مِنْهُ حَرْفًا • نَعَمْ
اسْمِي • أَرْجُو أَلَّا تَكُونَ نَسِيتَهُ • لَا • لَيْسَ كَيْمُورَانْجُو • لَا • تَيْمُو •
تَيْمُوشَلَايَ • ه • كَ تَيْمُوشَلَايَ أَنْتَ تَعْلَمُ • لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ • تَيْمُو
يَعْنِي شَيْءٌ كَالْجَوْهَرَةِ • اسْمٌ مَتَعَبٌ ؟ أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ وَلَكِنَّهُ هُنْدِي
مَائَةٌ فِي الْمَائَةِ •



obeykhan.com

المستحيل



obeykhan.com

الضجة المعهودة خارج الحجرة ، وتعالىت

اصوات وضحكات وتشنجت حنجرة ثم دخل المجنون

بمنعه مرافقو .



وان يرى الانسان مجنونا فى الشارع مرة شيئا قد يكون مثيرا
اما ان يكون عمله هو الكشف على المجانين وادخالهم مستشفى
الامراض العقلية فشيء يجعله يفقد حب استطلاع ، ويصبح الامر
بالنسبة اليه مسرحية مكررة لا جديد فيها ولا طريف .

ولهذا فحين دخل المجنون الجديد لم الق اليه بالا كثيرا . كنت
قد تعودت رؤيتهم ومعاملتهم ، ولم يعد جنونهم أو شذوذهم يزعجنى
أو يثير عجبى . وكان المريض الجديد هو الآخر داخلا مواصلا كلاما
لا يعلم سوى الله متى بدأه :

— اسمك ايه ؟

ودون نأ يغير طريقة كلامه أو النغمة التى يتكلم بها ، مضى يقول:

— يسرقونى ليه . أنا عملت فيهم ايه اسمى محمد شحاته على

والمجرم صالح الشهاوى نتش منى اربع صفايح سمنة ورحت أجيب

الايجار من السكان فزعوا عليه بالسكاكين عايزين يدونى نكلة فى

الشهر ايجار الشقة هو أنا شحات أنا راجل صاحب عمارات ثلاثة

فى شبرا السمك وأربعة فى أبو الريش و . .

ونظرت اليه .

السحنة واحدة لا تكاد تتغير ، سحنة ضامرة ، واشداق مشفوفة ، وذقن لا بد نابثة ، وشعرها نام بجنون هو الآخر ، تكاد الشعرة تلتوى عند نهايتها وتنقض على جارتها وتعضها ، وملابس مهما مختلف لم يكن أكثر ولا أقل من مجرد مجنون فقير آخر .

لونها فلا بد مهراة وممزقة ومربوطة احيانا بحبال .

وكل من كنت اراهم كانوا مجانين فقراء . وكم هو عسير على النفس ان ترى غيرك مجنونا . ان ترى الانسان ذلك الكائن الحى الذكى الذى تشير له فيفهمك ، وتقول النكتة فيضحك ، وتصادقه فيحك ويؤمن فيضحى بحياته فى سبيل ايمانه ، وترى الشىء فيتعلم ، ان ترى ذلك الانسان وقد تحول الى كتلة بشعة من اللحم والملابس الممزقة والتصرفات الشاذة والصرخات ، كتلة لا تعى ولا تحس ولا تستجيب ولا تملك حتى ان تسقى نفسها الماء .

كان العسكرى الذى يصاحبه قد وقف على يمينه ، وقريبه الذى جاء معه بجانبه وعلى يساره ، والمجنون بينهما ، قصير ، اقصر منهما ، وشعره اسود واكرت ومهوش ، وملامحه شائخة ولكن ليس فى رأسه شعرة بيضاء واحدة . وكان حافيا ومع هذا يرتدى طربوشا قديما لا زر له ولا هيكل .

ومند ان دخل ووقف لم يغير وضعه ابدا ، فيداه مضـمومتان
امامه احدهما قابضة على الاخرى تكاد تخنقها ، ورأسه ينظر الى
الارض بزاوية ، وعيناه مصوبتان الى قدميه ، وكان باديا انه لا يرى
حتى قدميه ، وانما يخترق ببصره الارض الواقف عليها ، وما وراء
الارض ، ويهيم فى شىء بعيد مجهول . وكذلك لم يتوقف عن الكلام ،
وكان يبدو انه لا ينوى التوقف ابدا ، وصوته يخرج لا حماس فيه
ولا حرارة ، ولا يرفعه ولا يخفضه ، مهما تغير ما يقول ، كأنه شريط
مسجل لا يتوقف دورانه ، واذا سئل لا ينتظر ليعرف السؤال
ولكنه يواصل كلامه ويخرج عن الموضوع الذى يتكلم فيه قليلا
ليجيب ثم يعود بسرعة الى شريطه المسجل الذى لا يتوقف ، وحين
عدت أستمع اليه كان يقول :

- يمضونى على عقد البيع اونطه كنت اتهللت انا عشان
ابيع ثلاث عمارات بثلاثة صاغ ونص فرنك شركة اطلب منهم الاجرة
يضربونى ويدونى نكله والبواب عايز ألف جنيه فى الشهر وشركة
الميه ليها عداد ..

مرة اخرى حديث عن العمارات والثروات الموهومة التى كون
الناس اجمعين عصابات لاغتصابها .

واعدت السؤال :

- بتقول اسمك ايه

ومرة واحدة سكت ، ونظر الى ، نظرة لامعة فيها بريق مخيف ،

ثم عاد يكمل حديثه ذا النعمة الواحدة ، وكأنما كان سكوتته خللا
اصاب الشريط للحظة ، ثم عاد الى الدوران .

وكانت نظرات الجنون فى عيون المرضى نخيفنى اول الامر ، اذ
فيها ذلك الومض المفاجىء المريع وكأن عقولهم تحترق داخل رؤوسهم
وعيونهم تنفث شرر الحريق ، نظرات تجعل الانسان يخاف من
المجنون ، ونادرا ما يخاف الانسان من انسان ، ولكن نظرة واحدة
من تلك النظرات كفيلة بان تجعله يخاف وافزع خوف هو خوف
الانسان من الانسان . وأول الامر كنت اعاملهم مثل غيرى من الناس
باحتراس الخائف ، ولهذا كانوا دائما يرتكبون حماقات ، فيحاول
احدهم ان يعضنى مثلاً ، او يبصق على وجوه الواقفين حوله ، او
تنتابه لوثة ويهم بالقاء نفسه من الشرفة ، وكان هذا يزيد من
احتراسى وخوفى ، فقد كنت احس على الدوام انى امام آلة خطيرة
لا ضابط لها ولا رابط ، كالبندقية المعبأة التى قد تنطلق من نفسها
فى أية لحظة وتقتل . وبمضى الوقت رأيت منهم مئات ، وبمضى
الوقت ألفت تلك النظرات . والالفة تزيل الخوف ، وحارس الاسد
لا يخاف من الاسد ، وهكذا فقدت حيظتى واصبحت اعاملهم وكأنى
لا أعامل مجانين ، فأفك عنهم القيود ، وأعطى الواحد سيجارة وأدعه
يشعلها بنفسه ويدخنها ، ولا اضحك من غرابة ما يقول ، واعجب

شئ أنه ما من واحد منهم عاملته بألفة وحاول ايذاءي . وأيقنت آخر الامر ان النظرات النارية التى يطلقها المجنون من عينيه وتخيف ليست فى الحقيقة سوى نظرات خائف ، نظرات رعب من العالم والناس يبلغ حد الجنون . انه يؤذى غيره لخوفه من ان يؤذيه غيره، ويتوحش لاعتقاده ان الناس قد تحولوا الى وحوش ، والواقع اننا كثيرا ما نتحول الى وحوش ، اننا اذا رأينا شذوذا فى تصرفات انسان لا نغفر له ونعامله بقسوة وكأننا نعاقبه على شذوذه ، وبهذا تصبح تصرفاتنا شاذة فى نظره ، ويزيد حينئذ شذوذه ، وقد يكون الامر فى مبدئه حبة فنصنع منها قبة ، ويكون التصرف الشاذ بسيطا فنقلبه الى جنون مطبق ، ونصف المجانين مجانين لانهم مرضى، والنصف الاخر لاننا ارغمناهم على الجنون .

ولم اكن فى حاجة الى فحص كثير لكى ادرك ان الرجل الواقف امامى تنطبق عليه كما تقول اللائحة ، احكام المادة كذا من قانون الامراض العقلية .

ولكن كان لابد من بضعة أسئلة أخرى تعذبنى وأنا ألقياها وأسمع الاجابة عنها ، فالانسان منا اذا وقع نظره على عين أعور أو أعمى أو ساق مبتورة اقشعر وأحس بالهم ممزوج بالحجل وكف عن النظر ، فما بالك حين يحدث الانسان شخصا ذا عاهات متعددة ليس باستطاعته أن يرى او يسمع او يفكر ، واذا كان من المؤلم ان تقول

للمشلول اجر ، فمن المؤلم اكثر ان تسأل فاقد العقل وتطلب منه أن يجيبك ويفكر ، ومع هذا كان لا بد ان أسأله ، فقلت له كالعادة .
- عارف النهارده ايه ؟

وبنفس الهمهمة المستمرة التى لا تنقطع مضى يقول :
- شافونى داخل مسكوا فى خناقى النهارده اول الشهر وبفى لهم ثلاثة اشهر مادفعوش ايجار والمحضر ساكن فى البيت والثلاث عمارات يتباعوا والبيع لازم يحصل النهارده .

وهزئت رأسى لا ادرى ما اقوله والرجل ذو الطربوش المزعزع فوق رأسه ، واللحم الجاف الشاحب الظاهر من خرقه يتحدث عن العمارات وبيعها ، وقريبه واقف ينظر اليه بمرارة وقلق وتحت ابطه لفة لا بد فيها طعام رفض المريض أكله ، ووراء وجودهما أمامى لا بد قصة ، قصة طويلة حافلة ، فان يجن واحد فى العائلة مأساة . واذا كانت العائلة فقيرة فالمأساة افظع ، اذ لا بد قبل ان تعترف السلطات بصحة الخلل الذى طرأ على قوى الشخص العقلية ان يرتكب حادثة او اكثر ، ويحاول قتل نفسه على الاقل مرة ، ويصبح وجوده (خطرا على ارواح الاهالى وممتلكاتهم) . بعد هذا ، وليس بأى حال قبله ، يصبح فى استطاعة أهله أن يقدموا بلاغا الى القسم والقسم يتحرى وبعد ان يتم التحرى يرسل عسكرى ، ويعود الاهل اذا كانوا محظوظين آخر النهار الى الحارة ، او الزقاق ومعهم العسكرى

ويؤخذ المريض الى القسم عنوة وبضرب وزفة ، وهناك يفتح محضر
وسين وجيم ، ثم يرسل المريض بخطاب وفضيحة الى مفتش الصحة
واذا كان حظ المريض من نار ظهر الخلل واضحا امام مفتش الصحة،
فاذا اقتنع بمرضه احاله الى القسم مرة اخرى ، والى ان تأتى عربـة
المستشفى يوضع المريض فى السجن ، على انفراد ، ومكتفـالا يستطيع
حراكا ، ولا تأتى العربـة فى العادة الا بعد يوم او يومين او اذا ان
الاولان ، واذا جاءت ظلت ترفعه وتهبده ، والتومرجية فى المستشفى
يرفعونه ويهدونه حتى تصعد البقية الباقية من عقله الى بارئها .
لا بد ان يحدث كل هذا قبل ان يصبح من حق المريض بعقله ان
يستلقى فوق سرير المستشفى الكالج .

ولا بد ان كل هذا قد جرى وسيجرى لمحمد شحاته على الواقف
يتحدث أمامى حديث خالى البال عن العمارات وأصحابها . واذا كان
الفقر فى حد ذاته يهدر كرامة الانسان وآدميته فما بالك اذا جن
الفقر .

قلت له لاسهل الامر عليه :

- لاء يا عم محمد النهارده الاربع ، يبقى بكره ايه ؟

ودون ان يغير طريقته قال :

- انشاء الله بكره السبت ، بكره سوق السبت ابيعهم فى السوق

بالمزاد العلنى واللى ما يشتري يتفرج والفرجة بقرش واللى حاضر .

وكنت أعتقد قبلا أن الجنون حالة كالـموت يتساوى فيها الناس

إذا فقدوا عقولهم ويصبح كل مجنون نسخة من الآخر ، وإذا بنى
اجد ان الامر غير هذا بالمرّة . فهم ليسوا قطيعا واحدا من فاقسدى
العقول ، كل منهم كائن مستقل بذاته له حياته وقصته ومسلكه
الغريب الخاص به ، حتى الكلام ، تكل طريقته المعينة التى لا يحيد
عنها ، والدائرة التى يدور حولها كلامه لها نصف قطرها الخاص به
والذى قد يكون عمارة ، وقد يكون عصابة ، وقد يكون غضبة من
اهل او حبيب .

كانت حالة الرجل واضحة . وكان ممكنا ان اكتفى بالاسئلة
القليلة التى وجهتها ، وأملأ خانات الاستمارة ، وانتهى من (الحالة)
ولكننا احيانا نخطر لنا خواطر فتقودنا الى اكتشاف آفاق لم نكن
نستطيع الوصول اليها بالتدبير والتمعن والتفكير ، والخاطر الذى
خطر لى لم يكن من قبيل الصدفة ، اذ لم اكن انظر الى المريض على
انه مجرد (حالة) اخرى ، كانت مشكلة العقل البشرى تحيرنى
وتجبرنى على التفكير . هذا العقل ، هذا الجهاز المذهل الكامن فى
تجويف الرأس المزدهم بالافكار والحوادث والغرائز والمشاعر
والذكريات هذا الساحر الصغير القادر على أن يحيل الحجر الى ماس
والخاطر الى اختراع ، والغريزة الدنيا الى غريزة سامية عليا ،
تلك البوصلة الرائعة فى دقتها التى تحدد الشرف وتقيس المعقول ،
وتربط ألف فكرة بألف فكرة وتخرج بنتيجة وتصنع من النتائج

أحكاما وقوانين ، هذه المعجزة التي تحل أعقد الطلاسم ، وتذكر أدق التفاصيل ، وتحس وتفرق بين الاحاسيس ، هذه المساحة المتناهية الصغر التي تخلق وتضع الخطط العميقة ، وتبتكر ملايين الكلمات والتعبيرات وتحتوى كل هذا وتحفظه ، هذا العقل الذى يحتوى الدنيا كلها بما عليها ولا يضيق ، ترى ماذا يحدث له حين يختل وتشب فيه النار . ما هو الاصيل الذى يبقى ، وماذا فيه يستحيل الى دخان ؟ وعم محمد شحاته على الواقف امامى لم يغير وقفته ، ترى ماذا طار من عقله وماذا لا يزال كامنا مقدسا فى أخايد تفكيره ؟ ! .

والمسألة نسبية لا ضابط لها ولا رابط فقد لا يكون بعضهم يعرف اليوم الذى هو فيه ، ولكنه يرفض ان تتعري اجزاء من جسمه ، وقد لا يعرف اسمه ولكنه يخنقك اذا شتمته .

وكنت أحب ذلك الحوار الذى يدور بينى وبين المريض ، فاذا كان الانسان العادى له عقل بالغ التعقيد ، فالمجنون بسيط والمشكلة التى تحيره واحدة ويقول ما يريد على الفور وبصراحة ، وتستطيع ان تقرأ تفكيره بسهولة ، وتعرف ما احترق فى عقله وما لا يزال سليما . .

وسألته :

- ايه الى مضايقتك يا عم محمد ؟ . .

وكان لا يزال على نفس وضعه ، لم يرفع بصره مرة وينظر حوله
وسيال حديثه مستمر ، وكأنه يتحدث الى كائنات أخرى لا تراها
ولا تتبرم بحديثه ، يتحدث وكأن لا زمان هناك ولا مكان ، ولا يهمه
ان كان هناك زمان او انسان او مكان ، والبقية الباقية فى رأسه
تطحن الكلمات والجمل ، فتخرج كالدقيق الناعم المستمر لانفعال
فيها ولا ادراك . وحين سألته كان لا يزال ماضيا فى قوله :

- سلطوا على نسوانهم بالشباشب هانونى تعبونى قوى سكان
متعبين ويهدفوا فى الشقة نكله ايجار قديم ولازم ابيع العمارات
حالا قبل ما يهدوهم . . الجدع ده سلط على مراته قلعتنى الهدوم
فى الليل وسرقت المحفظة . .
وتدخل قريبه الذى كان واقفا

- ما تصدقوش والله العظيم ما حد عمل فيه حاجة .

وتطلعت اليه . سحنة ضامرة اخرى ، ولحية نامية ، وملابس
مهلهلة لا تكاد تفترق عن ملابس المجنون ، حتى كدت اسأله هو
الاخر عن اسمه واليوم الذى تحن فيه ، وربما لو كنت قد سألته
لما كان قد عرف . وتلك ظاهرة غريبة ، فلا بد ان يكون مع المجنون
قريب ، ولا بد بطريقة اوباخري ان يخرم المريض على اقربائه ويتهممهم
اي اتهام ، والاغرب من هذا ان القريب لا بد يدافع عن نفسه
بحرارة ، وكأن الاتهام صادر عن عاقل ، او كأنه صحيح .

واشرت للقريب ان يسكت ، ولكنه ثم يفعل ، بل مضى يدلل
ويروى على مسامعى كل ما قام به المريض من افعال خارقة وكأثما
ليثبت لى انه حقا مجنون وكلامه فارغ وبينما هو يتكلم بحرارة
كان المريض يقول :

- كلهم حرامية ما تصدقوش دول كدابين بيقول كده عشان
يودينى فى داهيه ويأخذ هو حق العمارات قال لى امضى على بياض
عايز ينهبني دول على ذمتى ثلاث عمارات يسووا ١٥٠ قرش وأبيعهم
بنص فرنك حرام انا يتيم .

وقاطعته وسألته :

- انت عارف ده مين ؟

ودون ان ينظر اليه استمر :

- يتيم أمى ماتت السنة الى فأتت وده حرامى ابن حرامية

وكادت تفر دمة من عين قريبه وهو يقول :

- أنا حرامى يا محمد . الله يسامحك يا محمد يا بن امى وأبوياء

تقول على حرامى يا محمد وانا اخوك ؟!

وسألت المريض :

- عارف بلدكو اسمها ايه يا عم محمد .

- عايزين ياكلونا بالحيا بلدنا بلد الفقر والعنطرة هناك ح الترع

وعندها محطة وسبيل والعمارات ٤ فى باب الحديد و ٣ فى سبتنا

نفيسة وعقد البيع جهرز على الامضا ومش ممكن أقل من خمسة
صاغ الواحدة .

وسألته :

- انت متجوز يا عم

واستمر :

- ويجيني المشتري لحد عندي كتفوني امبارح وخطوني فى شوال
وقالوا تجوز امك يا تتنازل عن العمارات .
وتدخل قريبه :

- عيب كله الا امك يا محمد

ثم التفت الى واكمل :

- ده مجوز ومخلف رجاله وسيبينه كده وانا الى بصرف عليه
وحياة الحسين .

وعدت اسأله :

- لك اولاد صحيح يا عم محمد

واستمر يهمهم :

- أتنازل ازاي ما اتنازلش انا مليش اولاد انا لى عمارات بس

ولازم أبيع النهاردة واقبض الثلاثة صاغ كاش ! ..

وأخرجت الاستمارة من درج المكتب استعدادا لملئها .

وفى العادة كنت اذا وصلت الى هذا الحد ، وتأكدت من المرض ..

تنتابني موجة من اليأس فأهاود المريض على عقله ، وامزج معه ،
واحدثه بأى كلام قد يخطر لي على بال ، وكأني اعتذر له سرا لاني
سأثبت في الاستمارة .حالا انه مجنون .

ومع عم محمد ايضا قلت :

- انت عايز تبيع العمارات صحيح :

فأجاب على طريقته :

- منهم لله عايز أبيعهم كلك على بعضك بيعه وشره بالوقه وأنا أصلي
قلت :

- تبيعهم للعسكري ده ؟

فاستمر :

- وأنا أصلي أبيع ..

- تبيعهم لاخوك احسن ؟

- وأنا أصلي أبيع ..

- والا تبيعهم لي وتكرمني ؟

- وأنا أصلي أبيع ..

- أقول لك يا شيخ .. بيعهم للانجليز واخلص

- وأنا أصلي أبيع لاء الانجليز لا انجليز ما انجليز من رابع

المستحيل .

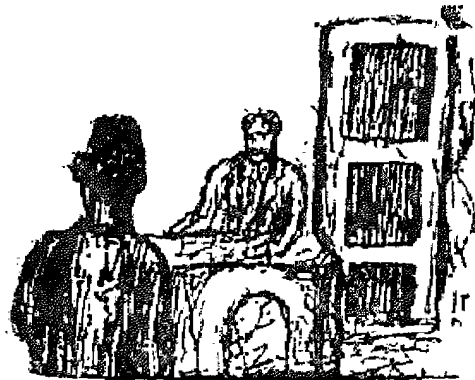
وفوجئت برفضه فسأله وأنا أستغرب :

- ليه اشمعنى الانجليز لا .

وعاد الشريط يدور :

- لا لا كده كده الله الله ع الجد أبيع لربنا حتى والكمبيالات

جاهزة وانستندات تحت الطلب والى مايشترى يتفرج والانجليز لا



المقربين الأول



obeykhan.com



عجيباً هذا الاحساس المفاجيء الذى أصاب

طلبة (ثالثة رابع) وجعلهم يستمرون فى أداء

التمرينات الرياضية بعد انتهاء الحصة ، وأيضاً

أثناء الفسحة التى بين الحصتين ثم يأخذون خمس دقائق أخرى
من الحصة التالية .

كان هذا عجيباً ، اذ طوال أيام الدراسة كانت أمنية كل منهم أن
يصحو من نومه فيجد المدرسة قد نسفها طوربيد ، أو ابتلعها بركان .
كانوا ، كغيرهم من الطلبة ، يكرهون المدرسة كرها لا يعرفون
له سبباً ، ويبدأ ذلك الكره مع بدء كل يوم ، بل قبل ان يبدأ
اليوم ، فالطالب لا يستيقظ من نومه الا مقروصاً او معضوضاً
أو مطروحاً أرضاً ، ثم يدفع الى المدرسة دفعا ، ودائماً فى وداعه
شئ ، دعوة عليه ، شتمه ، او فردة شيشب . وينسل الى الشارع
ويظل يجرى ويجرى ، ملتصقا بعامود ترام ، او مهرولاً فوق رصيف
والشتاء بارد ، والصبح أبرد ، أبرد من الحصص الاضافية ، والرعب
يملاً قلبه مخافة أن يصل متأخراً ، ويجد باب المدرسة مغلقاً ،
ويضيع اليوم ، ويقيد غائباً ، ويروح فى داهية .

وما يكاد يصل الى المدرسة ويجدها قد امتلأت بالاشباح المقرورة

من امثاله التى تبحث عن الشمس ، فالشمس ليست مثلهم قلميذة .
فى مدرسة ، انها لا تصحو ، ولا تضىء صباح الشتاء ، الا فى العاشرة
او ما بعدها ، ما يكاد يصل ، وما تكاد المدرسة تفتح ذراعيها وتضم
تلك المجموعة الضخمة من الفتيان ، وما تكاد جدرانها تهب من رقادها
الطويل الوحيد وتشارك الطلبة مرحهم ، وتردد لهم اصوات زعيقهم
وضحكاتهم ، ويتلمظ حصى الفناء منتشيا وهو يستقبل الاقدام
الصغيرة الشابة ويلثمها وقد طال شوقه اليها ، وما تكاد الاشجار
تهففت بأوراقهم ، وتشقق سعيده بجرى الطلبة حولها وجذب
شعورها وأغصانها ، ولا تتألم حتى حين يحفرون أسماءهم عليها ،
ما يكاد الطلبة يحسون انهم كائنات حية لها امانى ورغبات وأحلام
وأحاديث ، ما يكاد هذا يحدث ، حتى يدق الجرس . تتم . تتم .

وفى الحال تهمد الحركة ، وتخرس الالسنه ، وتتجمد الرغبات ،
اذ ما يكاد الجرس يدق ، حتى يغلق الباب ، باب لا بد ضخم متين
كأبواب السجون . وما يكاد الباب يغلق حتى يفتن الطلبة الى وجود
السور ، سور لا بد عال هو الآخر ، ومزود بالاسلاك الشائكة
ان امكن . .

ومع دقة آخرى من الجرس يزحفون صوب مكان الطابور مطاطى
الرؤوس وقد تضاءلت امانيتهم وانكششت ، واصبح الواحد منهم

مجرد تخته او دوايه او قلم بسط رخيص عليه ان يكتب ويكتب
ولا ينقصف سنه ايدا .

تلك التتمات الثلاث كانت تعنى ان اليوم الدراسى قد ابتداء ،
وويلهم من اليوم الدراسى حين يبتدىء . حتى الجرس الذى يبدأ به اليوم ،
جرس كالح قديم ، عليه صدى أزرق ، وله بلبله أضخم من حجمه ، واقفة
فى وسطه كما تقف اللقمة فى الزور . حتى صوت الدقات يخرج
وفيه من الانين اضعاف ما فيه من رنين ، انين يعلوه الصدى
هو الاخر ، صدى أزرق كالح كئيب .

حتى الفراش الذى يدق الجرس ، لا بد ان يكون عجوزا خطير
الملامح ، ولا بد أن يكون له شاربها كثا يخيف ، ولا بد أنه يحس انه
نابليون زمانه او اسرافيل عصره وأوانه ، ولا بد له ساعة ، أخطر
من أية ساعة فى الدنيا اذ هى التى تحرك عقاربها المدرسة كلها ،
ولهذا لا بد لها من مخللة سوداء صغيرة يضعها فيها مبالغة فى الحرص
عليها ، ولا بد أن تجده واقفا تحت الجرس ينتظر ، ممسكا بالساعة
محدقا فيها ، حريصا عليها فى يده كل الحرص وكأنها قنبلة زمنية
اذا حركها ستنفجر . وقبل أن يحين الحين يقبض على سلسلة الجرس ،
سلسلة لا بد قديمة او موصولة بدوارة ، ثم تأتى اللحظة فيجذب
السلسلة ، يجذبها بتؤدة وتقل وكأنه يفرغ الحكمة العليا فى
تمتماته الثلاث . .

وأول ما يسمع بعد الجرس من الاصوات هو : اخرس • بطل
كلام • وبهذا الامر تقطع كل صلة للطلبة بأنفسهم ، ويخرسون ،
ويبدأ المدرسون الذين يفتشون على الطابور فى الكلام ، ويخرج
كلامهم طازجا على الصبح ومنتقيا بعناية بحيث لا تندس بينه أبدا
كلمة حلوة ، يفرغون فيه كل ضيقهم باليوم الذى أصبحوا فيه
مدرسين ، وبالمهنة الصعبة التى اختاروها لآكل العيش ، وينتقمون
من مشاكل الكادر والامس ، وشتائم الحماة ، وممرض الطفل ،
وارتفاع اسعار الصوف ••

ثم يظهر الناظر ••

يطل على الطابور الصامت بوجه لا صباح فيه ولا خير • يحدق فى
الطلبة فيموت الطلبة ، وفى المدرسين فينكمش المدرسون ، وفى
الصمت فيقشعر الصمت ••

ولا بد أن تكون لدى الناظر مفاجأة ، لا بد لها من مقدمة شتائم
طويلة ، ثم حديث عن النظام مثلا ، وكيف أنك لكى تدخل الجنة ،
إذا أردت دخول الجنة فعليك أن تبدأ السير فى الطابور بالسباق
اليمنى ، وأن تسير اثنين اثنين ، وكيف أنه لكى تحل مسألة الجبر ،
لا بد أن ترتب ملابسك بنفسك فى دولابك الخاص ، وكأن لدى كل
طالب ملابسه الخاصة بلى دولابه الخاص •

أو يتحدث عن الطالب الذى ضبط وهو يسرق البيض من المطعم ،

وأحيانا لا يكتفى بالحديث ، فيخرج الطالب نفسه ليريه للجميع ،
ويجعل منه أمثلة وعبرة .

أو ينبه تنبيها صارما قاطعا ان كل من لم يدفع المصاريف عليه.
بمغادرة الطابور ، ومن ثم المدرسة كلها فى الحال .
ووجهه طوال حديث الصباح جامد غابس . والطلبة واقفون.
الدقائق الطوال كالحشب الخائفة المسندة ، لا يعرفون سببا
لذلك الرعب المفاجيء ولا سرا للعبوس الشديد فى وجه الناظر ،
هل مات له قريب ؟ غير معقول هذا ، فهو كل يوم غابس ، وليس
معقولا ان يموت له كل يوم قريب ، عسى ان يموت له كل يوم.
قريب .

ثم يدور الطابور الى اليمين أخيرا والى اليسار ، وكل يبتلع ريقه،
ويتحمس رقبتة ويتنفس الصعداء . . فقد نقد هذه المرة ، ولم يكن
الطالب الذى سرق البيض ، ولم يخطئ ويبدأ المشيء بالساق اليسرى.
ولكن تراه كيف ينفذ فى المرات القادمة ؟ .

ومن خلال ممرات كثيبة طويلة متشابهة ، يدلفون الى الفصول،
فصول مكررة ، حيطانها طويلة هيفاء عالية ، ولونها تصر الوزارة.
على اختياره حشمة لينفر الناظر اليه ويرسى فى قلبه الوقار .

وما تكاد الحياة تدب فى الفصل ، وتتحرك التخت والمقاعد ويذهب
عنها الرومايتزم الذى يصيب مفاصلها كل ليل ، حتى يقبل المدرس

فجأة ، ولا بد أن يقبل المدرس فجأة ، وكأنه ضابط مباحث في طريقه الى ضبط واقعة ، لعله يسعد ويحس بالسلطة حين يحدث ظهوره المفاجيء سكوتا مفاجئا ، يقبل ولا ينفرج وجهه مخافة ، أن تضع الهيبة .

قيام

واذا بالفصل كله يتلکأ ويقوم ، ولا يدرى لماذا يقوم . ويحلق المدرس طويلا في تلاميذه وكأنهم يحرزون مواد ممنوعة وهو ينتشهم بعينية تفتيشا دقيقا . فاذا عثر على الهفوة كان بها ، والا فانه يقول : جلوس . يقولها قرفانا وكأنه يمن عليهم بفضل من عنده .

وتتوالى الحصص وتتوالى المدرسون وكل منهم كالجهاز المعبأ الذي يفرغ شحنته بمقدار ، اذ هو الاخر ليس اكثر من موظف حكومة له عمل يؤديه ثم يمضى . وكل ما يسمعه الطلبة أوامر تترى ، وأشياء غريبة تخرق اسماعهم ، وتتفجر كالصنوارينخ في عقولهم . سسمع يا ولد ما قاله الكميت في وصف ناقته . اذكر ثلاثين شرطا من شروط الصلح في معاهدة واق الواق واذا نسيت شرطا فبغصاية . ما اسم البلاد التي تزرع الشوفان (والمدرس نفسه لايعرف ما هو الشوفان) . تخيل انك على خط عرض ٢٣ وتريد ان تسافر الى خط طول ٨٥ بطريق البر فأى الطرق تسلك . أعرب ابيت اللعن ،

ما هي حالة الطوارئ التي يصح فيها رفع المستثنى بالا • تكلم على
لسان طائفة تريد ان تفاخر السيارة وتتيه عليها فماذا تقول ؟ •
ومع توالي الحصص ، وتنوع الدروس وتنوع الشتائم ، وتنوع
كذلك لغتها ، فهناك شتائم فرنسية رقيقة ، وشتائم نحوية فصحي ،
وشتائم كيميائية مركبة ومخلوطة ، وأقل ما فيها : نزل ايدك
يا ولد • وشك في المحيط يا احمق • اطلع بره يا صعلوك •
التفت يا لوح • حل المسألة يا أغبي مخاليق الله • وأحيانا يفيض
الكيل • ولا يعد ثمة بد من المواجهة السافرة فتنتطلق الكلمات : ماتنحرق
انت وهو • اتنيل يا شيخ • اتلهي • انتم تنفعوا انتم • انتم بلاوى •
انتم رمم • انتم جاين هنا ليه • انتم مالكم ومال المدارس • روحوا
لوا سبارس •

حتى الكراريس ، كانت هي الاخرى تشاطر الناظر والمدرسين ،
وجلدتها مملوءة بالأوامر والنواهي • لاتبلع الطعام • لاتمضغ •
لا تستنشق الهواء • لا تمش • لاتجلس • لا تتحدث • عليك بالحلم
عليك بالطاعة • عليك بامساك نفسك ساعة الغضب •

ورغم هذا النظام الصارم ، ورغم ان المدرسة كانت على حد قول
الناظر تمشي كالساعة ، ونسبة الحضور أعلى النسب ، وأخذية
الطلبة كلها تلمع ، والحوش الواسع خال تماما من الاوراق •

ورغم ان الاولاد — على حد قول اولياء الامور — كانوا لا يلعبون ،

ويذاكرون ، اذ هم واقفون لهم بالمرصاد ، ماتكاد المدرسة تتركهم ، حتى يتسلمهم الاولياء ، والويل للتلميذ اذا تأخر بره ، أو لم يقض الساعات منكبا على كتبه يتلو ويذاكر ، رغم هذا الا أن الطلبة كانوا لا ينجحون ، ويفشلون بالمئات والعشرات ، ويقابلون الدراسة باستهتار ، وينامون فى الحصص ، وان واتاهم الارق ، اقامسوا حفلات ترفيه ، وتبادلوا القرصات والزغداد والضرب على القفا وكتابة الخطابات المملوءة بالشتائم ، وتكوين العصابات وشرب السجائر ، ونسب المدرسين . ومزاولة العادات فى السر والعلن . وكان الطلبة أيضا ورغم كل شئ يتساءلون هم الآخرون . لماذا يرسبون ، ولماذا يكرهون المدرسة . ولماذا يعاكسون المدرسين ، ولماذا يقضون أتعس الاوقات مع انهم يسمعون الناس تقول ان أحلى أيام العمر هى أيام الدراسة .

كان الناظر والمدرسون يحاؤون تفسير الامر ويقولون : انهم طلبة هذه الايام ومساخرهم وتفاهتهم .

وكان أولياء الامور يقولون : هى حكمة الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، وكان الطلبة يقولون ، بل هو الحظ ، بضربة ، حظ تنجح ، وبضربة أخرى تفشل ، يارب كثير من الحظ يارب ، كثير من الحظ .

وذات يوم اتيح لطلبة ثالثة رابع ان يمروا بتجربة .

كان مدرس الرياضة البدنية عملاقا ضخما رهيبا ، كتفه تهد
الجبل ، وزنده فى حجم الفخذ ، وقبضته تحيل الرؤوس الى جماجم
ولم يكن فى حصته مكان للترفيه او العبث ، فقد كان طلبة ثالثة
رابع ، كغيرهم من الفصول ، يخافونه ، ويخافون اذا عن لواحد
منهم ان يعبث فى حصته الا يرسله كالعادة الى المشرف او يخرج
من الفصل مثلا ، وانما يتولى العقاب بنفسه ، وقد يتولاه بقبضته ،
والكف عن العبث بالتاكيد أسلم نتيجة من عقاب يتولاه مدرس
الالعاب بقبضته .

كان يأتى وقبل ان يدخل الفصل ، يكون الفصل واقفا كله ،
وباشارة منه يخرج الطلبة عن الادراج وباشارة أخرى يصطفون
ويهبطون السلالم دون ان ينبس احد ببنت شفه ، وفى سكون تام
يخلعون الجاكتات ، ثم يتسلمهم العملاق بتمريناته . ثنى . مد .
رفع . ضم . افتح سدرك . شد وسطك . اخبط الارض بدماعك .
وشك فوق . عايز الجزمة تطلع شمار .

وهكذا الى نهاية الحصه ، حتى تتدلى اللسنة من الافواه ، وتتجمع
الرغاوى . . وتتشقق الحلق ، وتتقطع الانفاس ، ولا يجرو واحد
ان يقول آه أو لا .

عقل سليم جسم سليم ، هكذا كان يقول . رياضة يعنى رياضة
عايزين رجاله مش حريم . دلع مش عايز دلع . كلمة واحدة

أقظم رقبتك • بصى قدامك • لم نفسك • تخشب • التمرين الاول •
ابتدى •

وكان الطلبة حين تنتهى الحصة يقضون بقية اليوم فى ترميم
أنفسهم ، والتماس النظافة • ويقضون بقية الاسبوع فى تمن أن
ينسف الطورييد مدرستهم على الاقل قبل حلول حصة الالعاب
التالية ..

وفوجيء الطلبة ذات يوم بخبر نقل مدرس الالعاب ومجىء مدرس
جديد ، ولم ينحمس الطلبة للخبر ، فكل المدرسين كانوا لديهم سواء
كلهم رجال كبار حكماء معصومون من الخطأ ، وأذكاء جدا ، ومتعلمون
بغزارة ، وبعيدون عنهم تماما هم الصغار الحمقى الجهلاء الذين
تكمن فيهم كل العيوب والذين لا يفعلون سوى ارتكاب الاخطاء
تلو الاخطاء ..

وجاءت حصة الرياضة البدنية ..

ودخل الحصة شاب لا لحية له ولا شارب ، ولا يرتدى رباط عنق
وانما وضع ياقة القميص فوق ياقة الجاكته وفتح صدره ، وعادة
المدرسين ان تكون الياقة منطبقة على العنق ، وعلى رباط العنق ،
تمام الانطباق •

وغادروا الفصل ، وهبطوا السلالم وخلعوا الجاكثات ، ووقفوا كما

كانوا يقفون ، وراحوا يؤدون التمرين الاول كما كانوا يؤدونه أيام
المدرس السابق .

غير انه لم تكد تمضى دقيقة واحدة حتى طلب منهم المدرس أن
يتوقفوا . وفعلوا هذا مستغربين ، وقال المدرس :

- اسمعوا يا جماعة . أنا أحب الصراحة ، وانتم واضح من
حركاتكم ان ما عندكوش اى حماس للعب . فبصراحة مين فيكم يحب
يلعب . الى عايز يلعب يرفع ايده .

لم يكن المدرس نفسه يعلم ماذا دعاه لالقاء هذا السؤال ، لعله
خاطر عن له . . لعله لم يقصد . .

ورفع الطلبة كلهم ايديهم مخافة ان تكون خدعة مقصود بها
كشف الذين لا يريدون ، فمدرس الفرنساوى عودهم ان يبتسم
للواحد منهم وهو يعطيه الزيرو .

وفوجئوا بالمدرس ينقبض وجهه ويقول :

- أنا لا احب الكذب ابدا ، وغير معقول ان كلكم عايزين تلعبوا .
انا احب العلاقة بيننا يكون اساسها الصدق الى عايز يلعب من
فضلكم يرفع ايده .

بدا الامر جدا لاهزل فيه . . أن المدرس يريد حقيقة أن يعرف
رأيهم . وكان هذا غريبا . . فهم لم يعتادوا ابدا ان يؤخذ رأيهم فى
شئ . انهم منذ ان ولدوا وثمة قوى تدفعهم دفعا لا يعرفون الى اين ،

ولا يسألهم احد ماذا يحبون او ماذا يكرهون . كل الناس تقول :
هذا لمصلحتكم ، ولا احد يخطر له ان يسألهم عن رأيهم فى مصلحتهم
ونظر الطلبة بعضهم الى بعض . وتولاهم شىء غير قليل من
الاستهتار . ماذا يحدث ؟ لقد سألهم رأيهم ، فلماذا لا يقولون الحقيقة ؟
وأنزل الطلبة كلهم أيديهم ، كلهم ما عدا واحدا أو اثنين من
هؤلاء الطلبة الذين يقضون العمر خائفين من العقاب ومن احتمالاته ،
ولكنهم حين وجدوا الكل لا يريدون . أنزلوا أيديهم هم الآخرون .
خوفا من عقاب الطلبة لهم هذه المرة .

وعادت الابتسامة الى وجه المدرس وقال :

- برافو . أهو كده . انا احب الصراحة .

برافو ! . . لا بد ان ذلك المدرس مجنون او به هفة ، قال الطلبة
هذا لانفسهم وهم يحسون بفرحة غامرة ، وعيونهم تكاد تدمع ،
والحقيقة ان فرحتهم كان لها سبب اخر ، كانوا وهم يتبادلون
النظرات ، وينزلون أيديهم ، يرتعشون من الخوف ، فقد كان كل
منهم يعبر عن رغبته ، وكان يحس انه يرتكب اثما عظيما ، فاذا
بالمسألة لا جريمة فيها ، واذا بالارتباك يزول ، واذا بالفرح يعصف
بهم ، فقد استطاعوا اخر الامر ان يقولوا شيئا ، يقولوا لا . ولا
يشنقون ، فلا بد أن المدرس مجنون ، ولا بد أن به لومة .

وسكت المدرس قليلا ثم عاد يقول :

- غريبة .. اجماع رهيب على كره الرياضة . ليه . امال بقية العلوم بتكرهوها ازاي ؟ .

وتطوع اكثر من طالب بالاجابة والتفسير . وكانوا يتحدثون بنبرات لا اضطراب فيها ولا وجل . كانت ثمة ثقة قد ملأت صدورهم واحسوا ربما لأول مرة انهم آدميون لهم الحق فى الكلام .

واندفع ثلاثة طلبة او أربعة يطلبون اللعب ، كان ما يدفعهم فى الحقيقة هو حماسهم للمدرس-الشاب ذى الابتسامة ، وليس رغبة حقيقية فى مزاوله اللعب .

وقال المدرس لبقية الطلبة وهو يضحك :

- افرنقوا ..

وهلل الطلبة وكأنهم افرج عنهم بعد طول سجن . ودون وعى راحوا يضحكون ويتعاقون ويتضاربون ، وانسحبت اقلية ضئيلة الى المظلة ورقدت على الدكك قائلة وآدى نومه ! ..

وجرى طالب وراء آخر وشنكله .

ووقفت الاغلبية وقد ارتدت ستراتھا تتبادل اللكمات الخفيفة ، وتتفرج على المدرس وهو يؤدى التمرين الاول مع المجموعة الصغيرة التى أرادت اللعب .

وقفوا يتفرجون بكل استهتار ، يضحكون على المدرس ، وعلى الاخطاء التى يقع فيها زملاؤهم ، ويدردشون .

كانوا يحسون بانتعاش وكأنهم يشمون ايدروكسيد امونيوم
حديث التحضير . . ان يحس الانسان انه ليس مرغما . ان يكون
فى وسعه الا يفعل ، ان يصبح فى استطاعته ان يختار . . اشياء
ما كانت تخطر لهم على بال .

وحين كانوا يصعدون السلالم بعد انتهاء الحصة ، كانوا لا يزالون
غير مصدقين أن ما حدث كان حقيقة ، وأنهم استطاعوا ، ولو مرة
واحدة فى العمر ، أن ينفذوا من حصة الألعاب .

ومضى اليوم ولا حديث لهم الا عن المدرس الظريف الشاب الذى
أصابته لوثة أنقذتهم من الرياضة والأشغال الشاقة .

وطوال الأسبوع ظل كل منهم ينتظر فى شغف حلول حصة
الألعاب التالية ليعفى من الألعاب .

وجاءت الحصة . وجاء المدرس ، حليقا ، مبتسما ، وياقته
مفتوحة أيضا . وقبل بدء التمرين الاول ، أكثر من ابتساماته ،
وقال :

— هيه يا جماعة . الى عاوز يلعب يرفع صباعه .
ورفعت أقلية ضئيلة أصابعها . بينما وقفت الأغلبية فى أماكنها ،
لا ترفع أيديها ، ولا تتحرك ، وكل منهم يريد أن يعرف ما سوف
يفعله الآخرون .

ولما طال الوقوف ، قال طالب لآخر وهو يدفع عنه يده التي كانت قد امتدت تهوشه :

- أنا ح ألعب يا عم .

وسرت هميمة . تعالت ثم تبلورت فى رأى :

- واياه يعنى . نلعب . واذا ما عجبناش نبطل لعب . هو مش

قال كده .

وهكذا ارتفعت أصابع الاغلبية .

وما كادت تمضى دقيقة حتى ثئاب واحد وقال :

- أنا تعب . كفايه بأه .

وانسحب . ولكنه لم يذهب بعيدا ، بل وقف يتفرج ، وحين

وجد أن أحدا لم يتبعه ، تردد برهة ، وثئاب مرة أخرى ثم عاد الى

مكانه .

ولم ينسحب بعده أحد . بل كلما أحس أحدهم أن فى استطاعته

أن يتوقف اذا أراد ، كلما أحس بهذا ازداد حماسة ، وشعربطاقات

هائلة تتفجر من جسده .

وبلغ التنافس أشده .

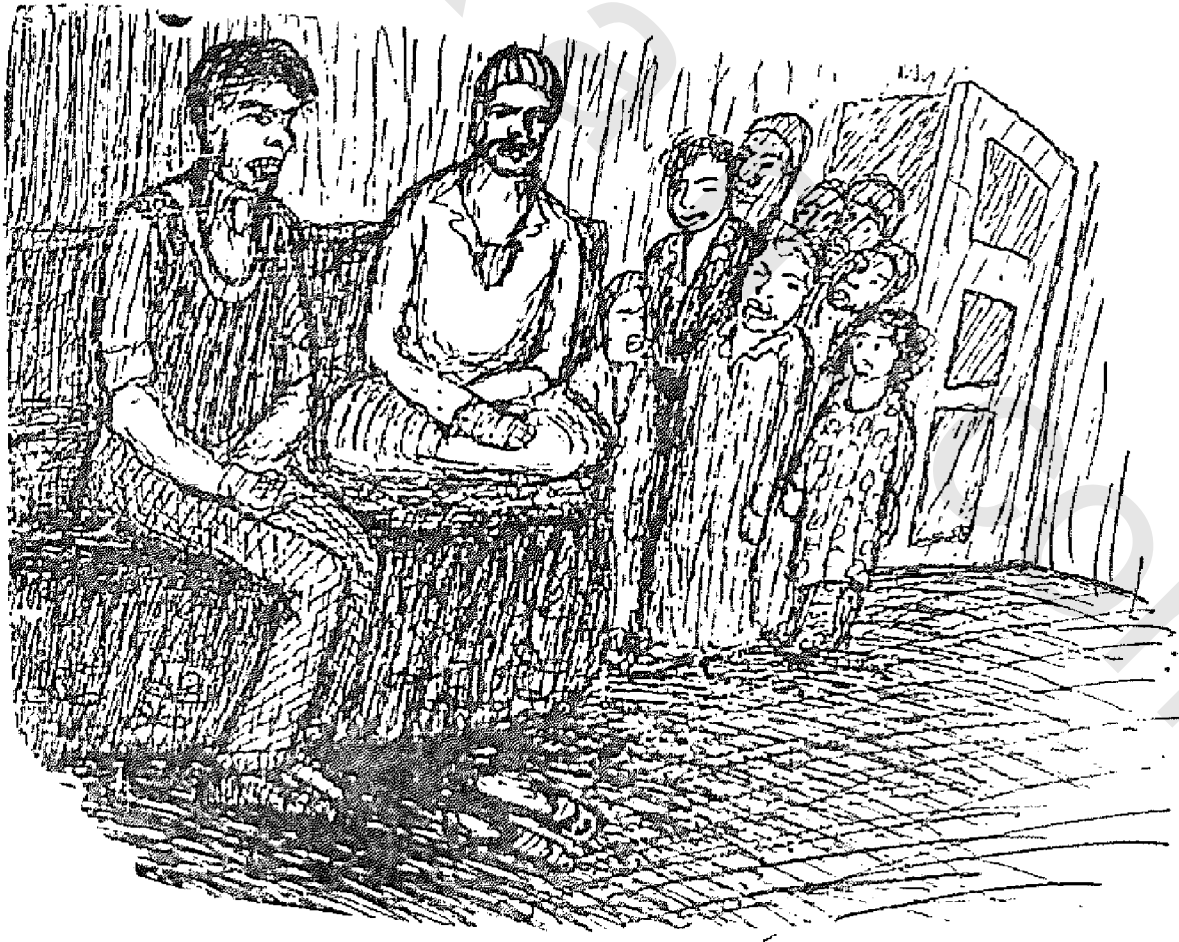
وتعالت أصوات بهيب بالمدرس أن ينتقل الى تمرين أعنف .

وانتهت الحصة ، ودق الجرس ، والحماس لا يفتر .

وتأخرت ثلاثة رابع عشر دقائق فى الحوش بعد الحصة .
ووقف الناظر فى ذلك اليوم يلعن ويزمجر ويوبخ ، ويتساءل
مغيظا عن سر ذلك الحماس المفاجيء للرياضة البدنية .



هو .. هي لعبة



obeykhan.com



كالزغاريذ ، فن مصرى أصيل وكما أن الزغاريذ
لاتجيدما كل النساء فكذلك الردح ، هناك
متخصصات فيه يحفظن عددا لا نهائية له

من الشتائم والاصناف ، بعضها عادى ، وبعضها فيه تشبيهات
واستعارات وكنيات وبعضها أدب خالص . ولا يكفى
الحفظ بل لابد أن يكون فى استطاعة الواحدة منهن ان تلضم الكلمة
فى الكلمة بلا تردد أو توقف ، وتصنع من الشتائم سيالا متدفقا
لا ينقطع ، فاذا انقطع وقع المحال . ولابد للشتمة المستعملة من
وقع وموسيقى ، ولا بد أن يكون للصوت المستعمل مقام معين ،
يرتفع فى الاماكن المهمة الى « السوبرانو » وينخفض عند بعض
الكلمات الماسة الى « الالطو » فمع أن المسألة شتيمة فى شتيمة ،
الا أن هناك على كل حال شتائم لا تصح ، ونحن شعب مؤدب
رخيبر بلبل . ثم لابد الرداثة من موهبة فطرية تستطيع بها
أن تخرج أرفع الاصوات وأعلاها بأقل مجهود ، حتى لا تستنفذ
طاقتها وحتى تستطيع الصمود ، فالردح مسابقة والفائزة هى من
يعلو صوتها ويظل عاليا الى النهاية .

والفنون . كالغداء ، لا بد من مزاولتها على الدوام وكان طبيعيا
اذن ألا ينقطع الرشح عن الحارة ليلا أو نهارا ، ولا يعرف عطلة أو
راحة .

وفى ذلك اليوم وشعبان عائد من عمله بعد الظهر بقليل . وللدنيا
تسبح فى أشباه السكون ، فى ذلك اليوم ما كاد يضع قدمه فى
أول الحارة حتى دق قلبه ، فقد سمع ردها على الوطيس يواتيه من
آخرها . دق قلبه لانه خاف أن تكون الحناقة مع امرأته . وامرأته
غلبانة من لارياف ، واذا كانت الحناقة معها فعوضه على الله ، فهى
مبتدئة لا تستطيع أن تجارى بطلات المدينة ، صحيح أنها بدأت
فى الآونة الأخيرة تتعلم ، ولكنها لاتزال (تطبش) كما يفعل
الرجال حين يتعلمون السباحة على كبر . كل ماتستطيع أن تفعله
هو ان تقف فى النافذة ، وتوارب الشيش وتحاول الرد على
غريمتها . وتخرج ردودها بعد جهد ، فهى ريفية خجول لاتستطيع
أن تحشو فمها بكلمة فارغة مثلما تحشو نساء المدينة أفواههن ،
ولذلك فمهما قالت . فكلماتها تتساقط كأوراق الخريف أمام التيار
اللافح الذى يهب عليها من فم غريمتها .

وصدق ظن شعبان ، فالحناقة فعلا كانت مع مراته ، وكانت
واقفة لا حول لها ولا قوة كما توقع . وامرأة ابراهيم أفندى قد
وقفت فى بلكونتهم ، وصوتها يجيب التائهين . والناس تتفرج بكل

قحة ، وهي لا تترك شاردة ولا واردة الا قالتها .

وقف الرجل يتسمع عله يعثر على سبب للخناقة ، أو يرى الى أى حد وصل النزاع ، ولكنه ماكاد يتوقف حتى فار الدم فى رأسه ، كانت المسألة قد وصلتته هو شخصيا وأتت على رجولته ثم تعدته الى أبيه وأمه وذقون أجداده أجمعين .

ودق الباب كثيراً قبل أن تفتح فهيمة امرأته . وامرأته سمعها ثقيل ، وبابهم أصم . ولهذا طال دقه . ثم انفتح الباب وما ان رآته فهيمة حتى شهقت وبكت وأمطرت فى الحال دمعا . وكاد يرفع يده ويرنها قلما وهو حانق على خبيثتها وقلة محصلولها من طول اللسان ، ولكنه تردد ، فلا بد للخناقة من سبب ، ولا بد أن يعرف السبب .

وزعق زعيقا هائلا يسأل عن السبب . واعتدلت امرأته واختفت دموعها فجأة كما بدأت وقالت : أبنتك انقتل . وأشارت الى الكنية . وسقط قلب شعبان بين قدميه وكاد هو نفسه يسقط على الارض مغشيا عليه لولا أنه حدق فى الكنية . كان ابنه جالسا القرفصاء فوقها ورأسه معصوبة بمنديل ، وعلى المنديل بقعة دم كبيرة ، وفى وجهه خرابيش ، وفى عينيه نظرة فأر وقع فى المصيدة ، ولم يكن مقتولا على أية حال .

وما كاد الولد يرى أباه ينظر ناحيته حتى تولاه رعب هائل

وبكى بصوت عال وقال : أنا مالى .. هه .. هو الى ضربنى الاول .. هه ..

وملاً شعبان صدره بالهواء بقوة محاولاً كتم غيظه ، ولو لم يخرج الهواء فى الحال ويتنهد لانفجر . القضية كانت قد بدأت تتجسد أمام عينيه ، فلا بد أن واحداً من أولاد ابراهيم أفندى هو الذى ضربه ، وابراهيم أفندى له ثمانية أولاد ، لا بد أن الضارب هو الولد الرفيع مثل عود القصب الذى يجرى طول النهار بينطلون أصفر قصير وسيقان جافة . وهو لن يستحمل منه خبطة ولا لكمة ، ولكن ، هل يمد يده على طفل ، ثم كيف لم يغلبه ابنه الخائب مثل أمه . ابنه صحيح أصغر منه فى السن وأدق منه فى العود ولكن كيف يغلب أى ابن فى الدنيا ابنه ؟ وكيف يجرحه ويبطحه ؟

وتقدم شعبان . كان لا بد من رؤية الجرح قبل كل شئ ، وما ان رآه الولد يقترب حتى انكمش الى طرف الكنبه ، ولم يوقفه عن انكماشه الا انتهائها ، وغمغم شعبان وهو يسبه ويلعن أباه ويهدىء من روعه ويطمئنه الى أنه فقط يود رؤية الاصابة . وامتلأ الولد بعد تهديد . وظل يرتعش وأبوه يفك المنديل ، وصرخ وهو يجذبه . ولم تكن الاصابة قاتلة أو ربع قاتلة ، كانت جرحاً صغيراً ، نصفه فى الجبهة ونصفه فى الشعر ، والدم الذى حوله كثير ، والبن أكثر ، بن

يكفى لصنع ثلاث كُنكَات من القهوة وتبقى منه بعدها تلقيمة .
ومع ان شعبان أحس بالجرح يمتد من جبهة ابنه الى قلبه الا أن
وجهه لم يتغير ، وغيظه كان لا يزال كما هو . وأعاد ربط الجرح ،
وزغر لابنه ، وقال وهو يجلده ، بملامحه :

- وماضرتوش ليه يا . . ؟

وبكى الولد وهو يقسم بالقرآن الشريف أنه أشبهه ضربا ولكما
وعضا ، ولكنه خانه وضربه بزلطة ، فجرحه .
وبدأت العاصفة . فهيمة تريد ابلاغ البوليس وعمل محضر
وقتل ابن ابراهيم أفندى وان لم يفعل - فستأخذ هدومها وعليه أن
يوصلها الى باب الحديد لتركب القطار وتعود الى البلد حيث للولد
أخوال يستطيعون حمايته والانتقام له . وشعبان ساخط على ابنه
المغلوب المضروب ، يهدده بعلقة نصفها الموت حالما يطيب ، علقه
تصنع منه رجلا يعرف كيف يذود عن نفسه ويجرح بدلا من أن يأتيه
مجروحا . ولا يترك لأبنه فرصة للنجاة من العلقه الا بأن يذهب
فى الحال ويجرح ابن ابراهيم أفندى جرحا يمتد من أنفه الى قفاه .
وتمضى ساعة .

وتهدأ العاصفة ، ويستعيد الزوج من الشيطان ومن ساعة
الغضب ، ويجد أن الناس للناس والطيب أحسن ، وأنه لابد أن
يشتكى الولد لأبيه وهو يعرف أن ابراهيم أفندى رجل جد ، لن

يرضيه ما فعله ابنه ، فاذا أدبه كان بها ، والا فهناك ألف طريقة لتأديبه . وترفض الزوجة هذا الحل بدعوى أنها جرحت هى الأخرى جرحتها طويلة اللسان زوجة (سى) إبراهيم وفضحتها ، ولا بد من سن سن وعين بعين والبادى أظلم . ويطمئنهما الزوج ويعدها بأن حقها سيأتيها به كاملا غير منقوص وأن مقامها محفوظ ، وظفرها عنده بمليون واحدة كامرأة إبراهيم أفندى .

ويظل جو البيت مشحونا ، وشعبان يخلع بنطلون الشغل وقميصه ويرتدى الجلباب ويريح يديه من نوبة السواعة التى بدأت فى الخامسة وانتهت حين تصلب ظهره ، وتورمت كفاه وزغللت عيناه . ويسأل عما طبخته الزوجة وهيبته ، ولا يجدها طبخت ولا هببت ويلعن العيشة التى لا راحة فيها أبدا ، الشغل أومنيبوس والبيت عربة كارو ، وفى كل عودة لا بد ان يجد مصيبة ، وكم مصيبة يتحملها العمر والواحد له عمر واحد .

بعد قليل كان شعبان يمسك ابنه المرتجف المرتعش من يده ويدق باب إبراهيم أفندى .

دق مرة فسكتت الأصوات التى كان يسمعها فى الداخل . وعاد يدق ، فماتت الأصوات ، وانطلق حينئذ يدق بلا توقف .

وفتح الباب أخيرا . فتح فجأة . وفجأة أيضا وجد الأسطى شعبان نفسه أمام صالة وفى نهايتها كومة بشرية هائلة . كان

الوقت وقت غداء . . والعائلة كلها جالسة تتناوله ، والمائدة صغيرة ضيقة لا تتسع لهذا العدد المائل من أفراد العائلة .

كانت هناك الست شفاعات الزوجة ، تخينة ، ومحنية على المائدة ككيس القطن المثني ، وكانت هناك الحاجة تبارك والدة ابراهيم أفندى ، عجوز جدا وناحلة وشعرها مصبوغ بالحناء ولونه أصفر واحمر وأبيض . ثم كان هناك ثمانية أطفال بدوا من كثرتهم وتجمعهم اثني عشر أو يزيدون ، وكلهم باسم الله ماشاء الله وبلا ضغينة أو حسد أولاد ابراهيم أفندى ، وفي الركن وفي مساحة لاتتعدى ورقة البوستة كان يجلس رجل رفيع رفيع ، لونه أصفر باهت ووجناته بارزة كالشرفات ، كان هو بلا ريب ابراهيم أفندى ، عميد العائلة ، والمسئول عن انتاج هذا العدد الضخم من الكائنات الحية ، والمسئول كذلك عن بقائها . وكان الجميع فى معركة لا رحمة فيها ولا هوادة ، فالطعام قليل ، والمائدة ضيقة ، والرغيف مهما كبر لا يحتوى الا على عدد محدود من اللقم ، والصراع دائر من أجل البقاء ، أو نتش حثة ، أو الاعتداء على لقمة أو الحصول على غموس ، صراع رهيب شمل العائلة كلها وشمل كذلك قططها ، فالعائلة - من العز تحيا معها أربع قطط ، لها جيش من الأولاد والقطط وأولادها لا بد أن تأكل ، ولا بد لها من خوض صراع أمر وأدهى لتجد فرجة بين ساقين ، أو ثقباً بين جسدين ،

لينالها من الوجبة على الأقل لحسة أو عظمة .

وكل شيء يدور فى صمت شامل ، ولا تسمع الا أصوات الملاعق ، واحتكاكات الأسنان بالأسنان وجعجعة المضغ واللكرات التى يصوبها الآخ الى أخيه وأجار البشر الى أجار القطة .

وما كاد الباب يفتح ، ويبدو الأسطى شعبان واقفا على عتبة ، حتى حدث هرج ومرج كثير ، وقام ابراهيم أفندى يعزم وتضايقت الست شفاعات من هذا القادم فى وقت الغداء ، وأحس الأسطى شعبان بالحجل ، وتبدلت عبارات مجاملة كثيرة وحلفت عشرات الايمانات والاقسام وترحزحت مقاعد ، وماء ولد ، وصرخت قطة .

وأخيرا جلس الأسطى على الكنبه ، وهدأت الأصوات ، ثم التأم شمل الكومة البشرية مرة أخرى وعاد السكون الذى لا تقطعه سوى ، أصوات الاشداق والاسنان وهى تمضغ اللقم وتمزقها ، مضافا اليها أصوات ترحيبات كان يرددها ابراهيم أفندى ، وفمه ممتلىء بالخبز ، وعقله ممتلىء بالتخمينات .

وكان واضحا ان عاصفة ستهب بعد قليل . وانتهاز كل فرصة الهدوء الذى يسبقها وراح يعبىء نفسه ويستعد .

الأسطى شعبان جالس مكسوف يرتب ماسوف يقوله وينتقيه ، ويجرب بينه وبين نفسه كيف يقوله . وابراهيم أفندى يدرك أن ولدا من أولاده لا بد هو الجانى وهو السبب فى الدم الذى جف

على منديل ابن شعبان . ولا بد ان امرأته كالعادة تولت علاج الأمر بطريقتها الفاسدة وأخفت عنه الحكاية ككل مرة ، وتركته ليواجه المصيبة وحده . ومع هذا كان عليه أن يدفع أول الأمر ببراءة أولاده أجمعين ويتحدث عن طيبتهم ويأتى بالبراهين على أنهم أولاد خلال مسالمين ، فان أفلتت البراءة كان عليه أن يتصيد الحجج ويقيم المعاذير ، ويعد آخر الأمر بالعقاب الباتر .

والسبت شفاعات نسيت تماما أنها لم تترك أبا لهذا الرجل الجالس أمامها الا ولعنته وطوقته بأشجع التهم منذ وقت قليل واندفعت ترحب به ، وفى نفس الوقت تعد ما سوف تقوله دفاعا عن ابنها ثم ماسوف تقوله دفاعا عن نفسها أمام زوجها أن هو أأها كيف أخفت عنه ما حدث ، ولم تنس بطبيعة الحال أن تحسب حساب الضرورة القصوى وتعد نفسها لحناقة ، وتعد لشعبان سربرا طيبا من الشتائم يليق بوداعه - والأولاد قلوبهم كانت تدق ، فالجاني لا بد منهم ، وكل منهم فرح أنه ليس الجاني وأنه سيشهد لتوه محاكمة رائعة يلذ له حضورها كشاهد رؤية فقط وليس كمتهم غير أن أمل الأولاد خاب ، فبعد قليل جلجل صوت أبيهم يأمرهم بالانسحاب - ويأمر زوجته بأزالة بقايا الطعام .

وجلجلة صوت أبيهم وان كانت لا تحدث الا نادرا ، ولا تحدث الا فى حضرة اغراب الا أنها أحيانا تخيف ويحسن طاعتها ، ورفعت

بقايا الطعام ، ولم يكن قد تبقى سوى الصحون والملاعق فقط ،
وللأنصاف بقيت أيضا حبات أرز قليلة دخلت في شقوق المائدة.
ولم تستطيع أصابع الأطفال ولا حتى أظافر القطط أن تصل إليها .
وكان في نية ابراهيم أفندى أن يجلجل صوته مرة ثالثة ،
ويأمر زوجته بتركه مع الأسطى شعبان على انفراد لولا أنه شك
في احتمال طاعته ، فآثر السلامة ، والاحتفاظ بكيانه سليما أمام
الضيف لا تجرحه كلمة ولا زغرة أو تعليق .

وهكذا ، وليبعدها ، أمرها بلهجة رقيقة لطيفة ، لا يقولها الا
زوج غارق في سعادة زوجية دائمة أن تعد القهوة ، وأصابته نظرة
جانبية مدبية كطرف الأبرة أفهمته ان ليس لديهم بن .

وحينئذ افتعل ابراهيم أفندى ضحكة ما ، وقال للأسطى
شعبان وهو يخطه فوق ركبته : - والا تشرب شاى أحسن ..
أنا عارف .. أنت تحب الشاى كل الأسطوات يحبوا الشاى ..
خليه ثقيل يا أم نعيمة ..

وبينما كان الشاى يعد ، كانت أم نعيمة لا تتركهما على انفراد
أبدا وكان في الأمر مؤامرة فهي غادية رائحة تنقل كرسيا من
مكان الى مكان ، أو تسأل ابراهيم أفندى أن كان يريد شيئا ،
وويله ان كان قد أراد شيئا .

وأخيرا آن الأوان وقال ابراهيم أفندى :

خير ..

ولم يقل شعبان حرفا ، أشار لابنه وسكت .

وقال ابراهيم أفندى وقد ارتسم أسى أكثر من اللازم على وجهه

وكانه فوجيء برؤية رأس الولد المجروح :

— خير ؟ .. ماله ؟ .. مالك يا بابا ؟ .. مالك ؟! ..

فقال شعبان :

— ابنك عوره .

— ابنى مين ؟! ..

قالها ابراهيم أفندى باستنكار ثم أضاف :

— انت متأكد .. يعنى واحد من الأولاد الى كانوا هنا دول

هو الى ضربه ؟! ..

— أيوه ..

— يا ولد ! .. ياولد انت بهوه ! ..

قالها ابراهيم أفندى فى شموخ وشهامة .

وجاء الأولاد يتدارون فى بعضهم البعض وكش فيهم الأب :

— اقف عدل ياولد .. اقف عدل .. شيل ايدك من على كتف

أخوك يا قليل الأدب .

ووقف الأولاد ، وجاءت وقفتهم أقرب ماتكون الى الطابور ،

كانوا ثمانية وكانوا يصنعون مع الأرض مثلثا أصغرهم طوله أشبار

وأكبرهم أطول من الوالد نفسه بقليل .

وحدق فيهم ابراهيم أفندى وهو يتفحصهم ليحذر من الجانى ،
ويحس بنوع من الثقة لأنه رئيس هذا الطابور كله يستطيع أن
يحركه كيف يشاء . وقال لأبن شعبان :

— مين فيهم اللى ضربك يا بابا ؟

وأشار الولد الى فؤاد الذى يقف فى الوسط وقال : دهه ..
وهنا ضاع زمام الموقف وهاج كل شىء ، وارتفع صوت شعبان
يحكى ويعنف وقد ذهب عنه خجله وحرجه ، ويطالب أن يضرب
الجانى علقه .. الآن .. أمام عينيه والا كان ما كان .
ورد عليه ابراهيم أفندى بصوت لا يقل عنه علوا ، واشتركت
شفاعات بلسانها ويديها ورموشها وعينيها . وتنائر الاولاد فى
الصالة بعضهم يردد كلمات الأَب ، وبعضهم يعزز حركات الأم ،
وبعضهم يقلد الأسطى شعبان ويسخر من كلماته ، وفى تلك
الثناء حاجت القطط وانطلقت تموء دون أن يزجرها أحد، وسقطت
أشياء فى الحمام ، وقرقت قباقيب على البلاط ورفع صاحب
القهوة المجاورة مذياعه على الآخر ، واذن المغرب ، وبدأت صيحات
اللبن الزبادى .

وآب كل شىء فجأة الى هدوء ، حين ارتفع صوت ابراهيم أفندى
يقول :

- ولزومه ايه كتر الكلام .. نحقق .. والى عليه الحق ينضرب
بالحزيمة ..

وهكذا بدأ التحقيق .

وبدأ الخلاف ، فمن من الولدين يحكى أولا ؟ ..
واستقر الرأى أخيرا على أن يبدأوا برواية المجنى عليه المجروح .
وبدأ ابن شعبان يتكلم ، وما أن فتح فمه حتى صمت الجميع
وترقبوا وعم السكون وحينئذ تلجلج ولم يستطع اخراج الكلمات
الا بعد أن نظر الى أبيه ، وكش فيه أبوه فانطلق يقول :

- كنا .. كنا بنلعب . وبعدين قسمنا قسمنا نفسينا . أنا
كنت بدا بدافع ودهه (وأشار الى فؤاد دون أن ينظر اليه) ودهه
كان الأسطول .. جه جه يزقنى ماقدرشى على .
واندفع فؤاد الرفيع يقاطعه :

- أنا ماقدرتش عليك .. مش احنا قايلين مفيش طوب ..
ضربتني بالطوبة ليه ..

وهب فيه أبوه يقول اخرس .. فخرس فؤاد . وخرس ابن شعبان
أيضا وعم سكون .

وتنحج شعبان وقال لأبنه : يا ولد احكى كويس . كنتم بتلعبوا

ايه ؟

ورفع ابراهيم أفندى جذعه ورأسه وذراعيه محتجا على سؤال

الأسطى شعبان ، طالبا أن يترك الولد ليروى ما حدث دون أى تدخل أو مساعدة .

وقال شعبان وأمره الى الله . ياخوانا دانا بس عايز نعرفوا ايه الموضوع ..

ومضى الولد يقول :

- جه يزقنى ماقدرش على .. فراح جايب زلطة وحدفنى بيها
حت ف .. ف ..

وبدا الولد ينهه لولا أن هب فيه أبوه : اكتم يابن الك .. انت بنت . اكتم اوعى تتنفس

وفعلت كلمات الأب فعل السحر .

ورفع الابن وجهه لأول مرة ، وخذق فى الموجودين بجرأة ،
وأشار الى فؤاد وقال :

- علشان ماما قدرتش على .. رحت جبت زلطة ياغبان .

وهب فيه الجميع أن يخرس ، فلم يخرس . ومضى كالوحش
الصغير يههب ويعوى :

- عاملى أسطول .. والله لما تكون انت مليون أسطول .. علشان
ماقدرتش على . حدد كان قالك قالك ألعب .. حدد قالك اعمل
أسطول .. لما أنت جبان .

وهذا جاءت زعدة (كده وكده) من أبيه فسكت . وعم السكون .

وكان لابد أن يعم السكون ، فان أحدا لم يكن قد فهم شيئا ،
ثم أن ماتبادله الولدان زاد الأمر تعقيدا ، وأصبح هم كل والد أن
يعرف كنه تلك الحناقة بعد أن كان همه أن يعد نفسه للدفاع عن
ابنه .

وكان واضحا أنهما لن يستطيعا أن يستخلاصا السبب من
المتخاصمين والمجنى عليه متحفظ ، والجاني ينكر ، والحقيقة ضائعة
بين التحفز والانكار .

وكان لا بد من التدخل للعشور على الحقيقة . وابراهيم أفندى
الذى لم يرض بتدخل شعبان بدأ هو الذى يتدخل ويسأل على
اعتبار أنه والد الجاني فلن يحابى المجنى عليه .

وأطال ابراهيم أفندى رقبته ومد رأسه وقال ، كأي وكيل نيابة
مدرّب ، موجهها السؤال الى ابن شعبان :

- اسمع يا شاطر : قل لى : كنتو بتلعبو ايه ؟

فأجاب ابنه بسرعة :

- كنا بنلعب لعبة الكنال .

وأسكت ابنه بلعنة ، وعاد يوجه السؤال للمجنى عليه فقال

الأخير :

- كنا كنا بنلعب .. لعبة الكنال ..

وسأل ابراهيم افندى بعقل حائر فعلا :

- لعبة الكنال دى ايه .. كورة ؟!

فاجاب الولد :

- لا لا .. لعبة الكنال .. قسمنا قسمنا نفسيينا ..

وهز ابراهيم أفندى رأسه وعاد يسأل

- يا بنى ايه لعبة الكنال دى .

فقال الولد بفروغ بال الصغير :

- مانا مانا بقولك آهه .. قسمنا قسمنا نفسيينا .. احنا احنا

الجيش المصرى وهم أسطول الانجليز .. وحطينا حطينا خط كده

وقلنا قلنا ده الكنال .

وفى نزق الأطفال ، ترك الولد مكانه بجوار أبيه وقد ذهب عنه

تخفظه وخوفه تماما ، ومضى الى وسط الصالة يمثل .

- حطينا خط كده .. يعنى يعنى الكنال .. والجيش المصرى

يقف هنا .. وأسطول الانجليز يجى يجى من هنا .. واذا عدوا

الخط يبقى اتغلبننا وياخدوا الكنال .

وهنا غمز ابراهيم أفندى بعينه لشعبان علمه يضحك ، ولكن

شعبان لم يضحك ، كان وجهه لا يزال جادا ولا يزال يريد أن

يطمئن أن كان ابنه محقوقا ليضربه أو صاحب حق ليشهد ضرب

خصمه . أما الست شفاعات فكانت ساكتة ترقب الولد اللمض فى

فى اشمئناط ، واحتقار ، والاولاد كانوا مشغولين بالتفكير فى لعبة

الكنال ، يقلبون الأمر على وجوهه ليروا الى أى الفرق ينضمون اذا لعبوها .

وأجس ابن شعبان بالجو فيه هدوء مريب ، فسكت ، ولكن أباه استحثه وزغده وقال : هيه . . قول .

فأجاب الولد بفرحة وكأنه أخذ أذنا باللعب فى الحارة الى ساعة متأخرة :

— أنا كنت فى الجيش المصرى . . ع اليمه دى . . فأم سحلول جه يهجم على . .

وقاطعه ابراهيم أفندى بلهجته الممدودة :

— أم سحلول مين ؟

فقال الولد على الفور :

— دهه . . فؤاد . .

ثم استدرك : أصل احنا مسمينه أم سحلول .

ونظر ابراهيم أفندى الى ابنه شذرا واستدار الى بن شعبان.

وقال :

— اسمه فؤاد . . أم سحلول ايه دى . .

وعاد ابن شعبان يحكى :

— وبعدين اذا اذا واحد

والتفت ابراهيم أفندى فجأة الى ابنه وهو يغلى :

— بقى كده ياوله يسموك أم سحلول .. اتفرجى على ابنك

ياست هانم .. اتفرجى ياست أم سح .

وكاد يقولها ولكنه انقذ لسانه فى آخر لحظة والتفت لأبن

شعبان وقال :

— كمل .. كمل ياخويا كمل يا أم أربعة وأربعين انت راخر ..

وانطلق الولد :

— وبعدين اذا واحد من الأسطول قدر يعدى الخط تبقى

فرقتنا اتغلبت أنا كنت مع بندق وخشبة وحسام . وخشبة وحسام

اتلبوا ، فأتلمت فرقة أم سحلول كلها على ..

وقاطعه ابراهيم أفندى : قلنا ميت مرة فؤاد .. قلنا فؤاد ..

ده دى ..

وتكلم شعبان :

— معلىش يا ابراهيم أفندى .. عيال .. خليه براحتة علشان

يحكى كويس ..

وزار ابراهيم أفندى بصوت منخفض وعينين جاحظتين :

— يحكى يحكى انما أم سحلول ايه .. قلنا له اسمه فؤاد ..

هى قصة .. ده دى

وهنا أشار فؤاد الرفيع اشارة خفية بيده لأبن شعبان

معناها :

- طيب .. والله لأؤريك ..

ولكن ابن شعبان لم يتوقف ومضى يقول :

- فضلت انا وده .. هوه اكمنه أطول منى حب يدينى هدر ..

قمت أنا شكيته مقص راح نازل على سنانة فالولاد ضحكوا عليه .
وفضلوا يضحكوا

ويقولوا .. ايدن أهه .. ايدن أهه .. العبيط أهه .. العبيط

أهه .. فهو اتغاض ومسك زلطة وراح خابطنى فى راسى ..

واندفع فؤاد يقول :

- أبدا والله .. انت ستين كداب فى أصل وشك .. والله يابابا

ماضربته .. هو الى وقع .. أنا مالى .. أنا ماضربتنوش .. أحنا

اتفقنا ان اذا غلبنا منهم اثنين يسلموا .. هو مارضييش يسلم

وقعد يزق فينا . واحنا نزق فيه فراح واقع على الأرض اتعور ..

وكان ابراهيم أفندى يحاول اسكات ابنه طوال الوقت ، ومع

هذا فقد تغاضى عنه حتى عثر فى كلامه على حجة وحينئذ أسكته

ومط رقبتة وسأل ابن شعبان :

- انتوا اتفقتوا صحيح ان اذا اثنين اتغلبوا تسلموا .. ؟

وانتظر الجميع الجواب بفارغ الصبر . كان كل من بالحجرة قد

نسى من الجانى ومن المجنى عليه واستحوزت اللعبة على تفكيره .

الأولاد كفوا عن الدوشة ، وأم نعيمة يدها فى خصرها وأذنها متجهة

الى مصدر الصوت والمتاعب ، وشعبان مائل الى الأمام يراقب ابنه
فى حماس ، والجدة كفت عن المواء ، والقطط هى الاخرى كفت عن
الأنين واختفت بين طيات ملابس الجالسين .
وقال ابراهيم أفندى وهو ماضى كوكيل النيابة فى دوره
يستدرج الولد :

- انتوا اتفقتوا صحيح يا حبيبى ..
وتلجج ابن شعبان ونظر الى أبيه يستشف ما وراء نظره ثم
قال :

- احنا احنا أيوه اتفقنا .. بس بس ..
وتنفس ابراهيم أفندى لأول مرة بارتياح وعوج رأسه وقال وهو
يكيل السؤال القاضى :

- طيب .. ليه بقى سيادتك مسلمتش زى ما اتفقتوا ..
وواجهه ابن شعبان فى دهشة واستغراب وقال :

- أسلم ازاي ؟!

فعوج ابراهيم أفندى رأسه الى الناحية الأخرى وقال :

- زى ما اتفقتوا .. ليه بقى ياسيدى مسلمتش

فقال الولد على الفور :

- ما هو ما هو اذا سلمت يبقى اتغلبنا

وأغلق ابراهيم أفندى عينه اليمنى وقال :

— تتغلبوا تتغلبوا

وازداد الاستنكار فى وجه الولد وقال فى دهشة :

— اذا اتغلبنا يكسبوا هم

وأجاب ابراهيم أفندى وهو يغلّق العين الأخرى :

— يكسبوا يكسبوا .. ليه ماسلمتش

وقال الولد بفروغ بال :

— مهم كانوا أخذوا الكنال ..

فقال ابراهيم أفندى وهو يمسك شفّتيه :

— ياخدوه ياخدوه ..

واندفع الولد بغضب حقيقى يقول :-

— ياخدوه ازاي .. هيا .. هيا لعبة .. هيا لعبة !؟

وكذلك اندفع أبوه يقول :

— وده اسمه كلام ياأبوفؤاد ..

وكادت تحدث بواذر ضجة ، لولا أن ابراهيم أفندى صرخ :

— هوس .. هوس .. يا اخوانا ايه الى جرى .. دى لعبة

يلعبوها قول يابنى ماسلمتش ليه .. قول ..

فقال الولد :

— أسلم ازاي

وقال أبوه :

- يسلم ازای •

وقالت أم نعيمة :

- زى الناس يادلعدى ••

واندفع فؤاد النحیل يقول :

- شفت یابابا •• هو الی قلبها جد •• احنا كنا بنلعب •• هو

الی قلبها جد •• قلنا له سلم قام شتمنا وقعد يضرب فینا عشان

منعدیش الخط •• والله هو الی وقعنی وقعد يضرب فی •• وعضنی

•• ثلاث عضات •• أهم •• دا كان •• زى المسروع •• دا

مکانشر بیلعب •• دا قلبها جد •• وكل •• ده •• عشان مش عایز

یتغلب •• وأنا مالی •• هو الی وقع •• ولما وقع اتعور •• أنا مالی

•• والله مالمسته •• دا یدوبی قربت علیه نزل فی ضرب •

وانخرط الولد فی البكاء •

وهنا استعداد ابراهيم أفندی الشخطة التى شخطها شعبان فى

ابنه وشخط شخطة أعلى منها وقال :

- اخرس •• أنت بتعيط زى النسوان •• عمى فى عينك •

وصرخت فيه زوجته :

-- جرى ايه يا ابراهيم سرعت الواد •• هو قد الشخطة دى ؟ ••

وايه حكاية النسوان دى رخرة •• ماتقعد معوج يا ابراهيم وتكلم

عدل •• اتكلم عدل يا ابراهيم •

وقرأ ابراهيم أفندى فى الجملة الاخيرة انذارا خفيا ، وفعل
الانذار فعله فى الحال .

وهكذا ضاع زمام الموقف واختلطت الأصوات . صوت الأسطى
شعبان تخين وتصاحبه حشرجة كحشرجة الكلاكس حين يعلق ، وصوت
ابراهيم أفندى رفيع أخف كأنما يصدر عن طاقة واحدة من طاقتى
أنفه . وصوت أم نعيمة حيانى نواعمى طويل متين كحيال الكتان ،
وصوت الجدة أم ابراهيم أفندى كصوت ابنها تماما وكأنها جد .
وكلمات شعبان فيها احتجاج صارخ ، وكلمات ابراهيم فيها دعوة
للسلام والمحبة ، وما يصحش يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ،
وكلمات شفاعات عزف منفرد لزمارة كمسارى ترام ، وكلمات
تقال ، وكلمات لا تقال ولم يسلم الأمر حتما من بضع دعوات
خرجت من فم الجدة واستقرت على رأس العدو ، أى عدو .

وآب كل شيء الى هدوء حين قال الاسطى شعبان :

- زاي بعضه . . احنا مالنا بركة الا بعض . . نصطليح

نصطليح .

وقبل الجانى رأس المجنى عليه . . وتبودلت بضع نكات تناسب
المقام . . وتفضلت الست أم نعيمة وضحكت على نكتة . وتفرق
الأولاد وقد انتهت الرواية . وجاء الشاي وشرب الاسطى شعبان
وشرب ابراهيم أفندى على حس الضيف . وتكلم الرجلان فى السياسة

وقال ابراهيم أفندى أن الله معنا وسينصرنا على القوم الكافرين . .
وقال شعبان عن الانجليز دول عظمهم دايب من شرب الحُمرة . .
يدوبك تزق الواحد يقع .

وأخيرا آن الآوان ، وأخذت الجلسة حقها ، واستأذن شعبان
وعزم ابراهيم أفندى عليه بالعشاء ، عزومة مراكية ، ولكن الأسطى.
أصر ومضى آخذا ابنه فى يده .

وقبل أن يهبط شعبان السلالم سمع أصواتا تأتيه من الداخل.
وتلكا قليلا فعرف صوت ابراهيم أفندى الاخنف وهو يقول :

— تحرم ياكلب تلعب مع العيال دول

وسمع شعبان صرخة مبالغا فيها ثم صوت الولد وهو يقول :-

— أحرم يابابا

وعاد ابراهيم أفندى يقول :

— تحرم تلعب لعبة الكنال ومش عارف ايه

وصرخ الولد وقال :

— أحرم يابابا .

— تحرم يعملوك أم سحلول ياخايب

— أحرم والنبي . .

— تحرم تعمللى أسطول وايدن وكلام فارغ من ده

— أحرم يابابا أحرم والنبي حرمت

ولعلع صوت أم نعيمة :

- خلاص حرم يا ابراهيم خلاص .. ماعسى ح يعملها .. قطيعة

تقطع ايدل وشـورتـه واللى جابود .. قول تبت ياواد .. قول

تبت ..



وقبل أن يضع شعبان قدمه على أول درجة من درجات السلم ،

التفت الى ابنه وملس على رأسه وعلى المنديل الذى يخفى الجرح

وقال :

- وله .. أوعى تكون سلمت فى الآخر يا راد ..

ونظر الولد الى وجه أبيه المرتفع وأمسك يده الغليظة الضخمة

بكلتا يديه ثم ألصقها بوجهه الصغير ، وضربها اليه وتعلق بها ،

وابتسم ، ولم يجب ..

obeykhan.com

أبو الهول



obeykhan.com



نعزى فى الحاج سعد ، والمآثم حابك ، اذ كان الوقت
بعد العشاء حيث يكثُر المعزُون . كانت الحيمة على
قد الحال ، فيها من الشقوب أضعاف ما فيها من قماش

والكلوبات نورها يعانى شحوب الانيميا الحادة ، ومع هذا كان يبدو
فى الظلام الخرافى المطبق على قريتنا ساطعا براقا يعشى جموع الفلاحين
القدمين يعزُون والذين لم تتعود عيونهم أبدا الضوء فى الليل فما
بالك بنور الكلوبات ، ولهذا كانوا يتوهون فى الحيمة ولا يتعرفون
على الناس الا يصعوبة .

وكان الاعيان يحتلون - كالعادة - مقاعد الصدارة ذات
القطيفة الباهتة المتأكلة ، والذهب الذى تحول الى جرب ، والكسور
والرضوض التى أصابت الأذرع والأرجل على مر الزمان .

وكنت أيامها عميد المتعلمين فى بلدتها ، اذ كنت طالب طب ،
وقد أجمع الناس اجماعا رهيبا على تلقيبى بالدكتور ، وتبنائى
أهل بلدنا ، واعتبرونى ثروة قومية يفاخرون بها البلاد الأخرى ،
وتقول نساء قريتنا لصاحباتهن فى الأسواق : يا بـت اختشى داحنا
حدانا دكاترة . . وأمر على الأولاد وهم يلعبون فيكفون عما هم
فيه من لعب ، ويشير الى أحدهم قائلا للآخرين : والنـبى ده دكتور

حقى حقانى ياولاد . واذا مررت على انكبار تترى الدعوات خلفى
ممن أعرفهم وممن لا أعرفهم . تحرسنى من العيون ، وتخلينى
لأبى . وتنجح لى المقاصد .

وأصبح من حقى وواجبى اذن . وقد رفعتى الناس الى مصاف
الأعيان أن أجلس بينهم . ومع هذا كنت أفضل ، ويفضل معى
بقية المتعلمين أن نجلس مع الغالبية العظمى من اهل بلدنا الذين
كان يقول عنهم الحاج سعد نفسه - عليه رحمة الله - (ربنا سبحانه
وتعالى خلق الناس الى بتفهم من تراب الجنة الناعم ، وبعضين
فضلت شوية نخالة خشنة ، احتار يعمل فيها ايه ، فراح راميه
وقال كونى عبادى الفلاحين ، فكانت) .

كنا نفضل الجلوس الى هؤلاء ، حيث لا نتكلف مالا نطيق مـسـن
التأدب واصطناع الرجولة ، وحيث نتحدث كما نشاء بلا ضابط
أو رابط أو تشكك ، وحيث نجد من يتقبلون كلامنا وكأنه آيات
منزلات . .

وفى ماتم الحاج سعد أيضا جلست فى الركن القريب من الباب
ومعى بعض طلبة الجامعة ، وعدد لا يحصى من (النخالة) . وسرعان
ما تضخمت الجماعة بانضمام بعض الذين يتمسحون بالمتعلمين ، وعلى
رأس هؤلاء أبو عبيد التومرجى فى مستشفى حميات المركز ، والذى
كان يفضل أن تتواجد (الهيئة الطبية) فى مكان واحد ، فقد كان

هو الآخر يزاول الطب ، يكشف ويشخص ، ويعطى الحقن ، وله بالطور أبيض نظيف ، وجلابية (دبلان) وطربوش ، والحق أنه كان يبدو بملابسه تلك أوجه منا جميعا .

وكان آخر القادمين الى مجلسنا عبدالله المزين ، والرجل كان يقوم أحيانا بعمل حلاق الصحة ، ويبدو أنه ، هو الآخر ، كان يعتبر نفسه يمت بصلة ما الى الهيئة ، فكان اذا رآنا جالسين ، أعطى صبيه شنطة الحلاقة ، وأجلسه بها فى مكان بعيد وكأنه يتخلص من شخصيته كحلاق ، ثم يهل علينا قائلا للجميع : السلام عليكم ، ويلتفت الى سلام خاص قائلا : نورتنا يادكتور . وكان ينطقها (دكتور) ليؤكد لى وللسامعين أنه رجل فاهم ، وليبدأ بها شخصيته كعضو ملحق بالهيئة الطبية الموقرة .

كنا جالسين فى صمت ، نستمع الى الشيخ مصطفى مقرئ بلدنا الذى كان قد تسلم دكة الفقهاء ، وتسلمنا ، بعد العشاء مباشرة يصب علينا جام صوته انغليظ القبيح ولا يريد أن يختم أو ينتهى ، وكلما تهدج صوته ظننا أن الفرج قريب ، وأنه سوف يسكت ، ولكن يخيب ظننا ، اذ ما أسرع ما كان يمط رقبتة وكأنه يريد انتزاعها من جسده ، ويكشر جدا ، ولا ندرى لماذا يكشر . ويسد أذنه اليمنى ويخفى عينه ببقية أصابعه ويحزق . وتمتلئ رقبتة الطويلة الرفيعة بالعروق وبالهواء ، وتنتفخ حتى لنخاف عليها وعلينا من الانفجار .

ثم ينقص الشيخ مصطفى ، وتتطاير شظايا صوته مخترقة فضاء الليل
الواسع ، تخرج قبريتنا رجا ، ويصحو لها نائمون في بلاد أخرى .
وكان الوحيد المباح نه الحركة في المآثم هو شيخ الحفراء ، وقد
منط البندقية في كتفه وراح ينظر الى الناس كمن يقول : نحن هنا
ينظر اليهم ويتمشى في الخيمة قليلا ، ثم يسرع الى الخارج يفاجيء
الاولاد الذين تجمعوا يتفرجون على المآثم والكلوبات ونقوش الخيمة
الغريبة الباهتة ، وينهال عليهم ضربا بخيزرانتة .
وجاء الفرج وقال الشيخ مصطفى ونحن غير مصدقين :
صدق الله العظيم . .

وانهال عليه الناس من كل صوب : قبل الله ياأستاذ . . الله يفتح
عبيك . . حرما . . الله يعمر بيتك . وكانت الكلمات تخرج من الافواه
حارة لافحة ، آخر ماتصلح له أن تكون دعوات . .

وامتلأت الخيمة بعدها بهممة الجماعات المتقاربة . وبدأنا نتكلم
نحن الآخرون . ونال الشيخ مصطفى من ألسنتنا الشيء الكثير . ثم
بدأنا كالعادة نخوض في سير الاعيان ، وانتهينا أخيرا الى ذكرياتنا
عن القاهرة . كنا نتكلم نحن فقط ، وكان بلدياتنا الفلاحون ساكتين
يسمعوننا ويضحكون ، وينظرون الينا ، ويتأملون كلامنا ، وكيف
ننطقه ، ويتحسسون بأعينهم جلابيينا (الزفير) و (البفتة) ، ويتفرجون
على طربوش أبو عبيد التمرجي ، وعلى ساعة يدي وبريقها كلعاكست

خضوء الكلوبات ولا يتكلمون .. وهكذا كان دأبهم دائما اذا جلسوا معنا ، نرى فى وجوههم السمرء المعفرة اقتناعا كاملا بما نقول ، وفى عيونهم اعجابا مطلقا بنا ، وفى تأييدهم لنا حماسا منقطع النظير .. وكان يهيمن عليهم دائما وجوم ، لعله خوف منا ، ولعله هوة يحسون أنها تفصل بيننا وبينهم ، فكان الواحد منهم لا يخاطب الواحد منا ، وانما اذا أعجبه كلام قيل ، يميل على جاره ويهمس له معلقا أو يلكزه ، أما اذا بلغ الاعجاب حد الاعجاز فحينئذ تتصاعد منهم التعليقات رغما عنهم .. كلها متشابهة ، وكلها فى آن متقارب وكأنما تصدر عن جسد حتى واحد خشن كبير .

وحيثما أوجد ، ويوجد أبو عبيد التمرجى ، كان ينتهز أول فرصة تسنح له ، ويخبط سؤالا ما .. ولا بد أن يكون السؤال فى الطب . كان يزاول العلاج ويهمه أن يثبت للفلاحين وللمتعلمين أيضا أنه عالم كبير ، يناقش (الدكتور) مناقشة الند للند . وكان اذا تحدث معى أو سألنى لا يفعل ذلك بلغة بلدنا المحلية ، وانما بلغة البندر ، والا فما الفرق بينه وبين الفلاحين ؟ .. ولا يسأل السؤال بطريقة عادية وانما له أسلوب مؤدب ، فى أدبه برود وتلامة ، نفس أسلوبه الذى يعرض به (خدماته) على الناس ، ويطالب باتعابه وفوقها (شوية) لبن أو أكلة بامية من بامية الزبائن الحلوة .. ودائما بامية الزبائن حلوة وكانت أسئلته تزعجنى جدا ، فأياها كنت لا أزال فى اعدادى

طبيب ، أشرح الضفادع ، وأدرس الديدان ، ولا أعلم عن الادوية
والامراض الا انى (دكتور) وكان هو من كثرة عمله فى المستشفيات
قد حفظ كام اسم مرض وكام اسم دواء . وليلتيا استطرد أبو عبيد
يتحدث عن مرض الحاج سعد ، وكيف أخذه للدكتور حنا طبيب
المركز ، وفشل علاجه ، ثم وصف له هو حقن ستروميسين وأقراص
سلفات يازين $3 \times 3 \times 5$ (هكذا كان يقول) ، و م ، قلووى ،
ومنعه عن الطعام منعاً باتاً ، ولكن المرحوم هفت نفسه الى الفسيخ
يوم السوق والتهم وحده رطلا . . فحم القضاء . .

وغمغم الجمع الذى حولنا ، فينا ، وفى مجال القسمة والاعمار ،
يستطيعون الكلام :

— بتيجى على أهون سبب . .

— أجله كده . .

— ما حدش بيغوت يوم من عمره . .

— حكمته . .

واذا بدأ أبو عبيد . . فمحال ينتهى . . ولهذا أنشأ يحدثنا عما
جزى بعد الوفاة . . فهو الذى استخرج تصريح الدفن رغم عصلجة
الطبيب . . واستخرجه بعد ميعاد العمل الرسمى . وكان واضحاً
أن لولا شطارته لبقى المرحوم بلا دفن الى اليوم التالى .

ولست أذكر كيف استطعنا نحن (استخراج) الحديث من

أبو عبيد وإدارته بيننا نحن (المتعلمين) ، ولكن أذكر أن المناقشة دارت حول الجنة ، وعن هل من الممكن أن تبقى أياما بلا دفن . وبعد أن هدأت حدة النقاش سألتني أبو عبيد والاهتمام الشديد ظاهر على وجهه :

- الا قولى يا دكتور ؟

وكان يقول لى يا (دكتور) ليبدا ثمة فرق بينه وبين حلاق الصحة من ناحية ، وبينه وبين الفلاحين الذين يقولون (داكتور) من ناحية أخرى . .

واستدرت اليه أستعد لسؤاله البايخ ، فقال :

- هو التخشب انرمى بيظهر بعد الوفاة بقدايه ؟

وصمت الموجودون جميعا ، المتعلمين وغير المتعلمين ، يحملقون مذهولين فى كلمة (التخشب الرمى) وهى لا تزال ترن فى الجو وتحوم حولنا ، حتى حلاق الصحة أذهلته الكلمة فراح ينظر الى أبو عبيد فى دهشة وحسد وكأنما يستكثر عليه معرفة كلمة كتلك . وما لبثت أنظار الجميع أن تحولت الى ، تستنجد بى ، وتنتظر الشرح . وكنت من لحظة أن سمعت الكلمة قد أصابتنى حيرة بالغة فما كنت أعرف ما تعنيه . ولما وجدت التساؤل يحاصرني ابتسمت ابتسامة صفراء وسألته السؤال الذى يكسب به العاجز الوقت :

- ليه ؟

فقال وكأنه يطرح قضية عامة للمناقشة :

- أصلى اختلفت النهارده مع الدكتور صبحى الحكيمباشى بتاعنا

.. أنا أقول نص ساعة وهو يقولى يا أحمد ساعتين بس ..

فيايه رأيك يا دكتور ؟

وتصنعت لهجة العلماء وقلت :

- لا .. انت غلطان وهو غلطان .. هى تيجى ساعة كده ..

ونظرت الى وجوه الجالسين فرأيتهم يسمعون اجابتى ، ويتبادلون

النظرات ، والكلمة لا تزال ترن فى آذانهم ولا يفهمون . وصمتنا

ثوان قليلة رحت أتطلع أثناءها الى أبو عبيد لأرى ان كان قد اقتنع

أم لا يزال به شك . وكان هو خافضا بصره الى الارض ، يحدق

فى قبضتيه بأدب جم . وكنت أعرف حركته اللبنة تلك ، وأعرف

أنه يصطنعها كلما ارتبكت أنا حتى لا يخرجنى ، اذ لا يصح ، وهو

(التمرجى) أن يخرج (الدكتور) ..

غير أنى فوجئت بصالح - الله يعافيه بالعافية - يزر عينيه

ويسألنى :

- ألا يا دكتور ايه خشب الرمه ده ؟ ..

وصالح هذا كان فلاحا ، ولكنه لا يزرع الارض لحسابه وانما

يشتغل عند أحد المستأجرين ، أظنه واحد من عيلة أبو شندى ،

يشتغل مقابل طعامه وكسوته وكذا كيله فى العام . وكان لونه

لا هو أسمر ولا أصفّر ، نون رمادي كلون التراب . . وكان طويلا
هاثلا يخيف الناس مرآه حتى سموه أبو الهول . وعمري ما رأيته
مبتسما ، ولا رأيته عينيه مفتوحتين . وكأنما كان يرى برموشه ،
وكانوا يقولون أن قلبه ميت ، وأنه لا يخاف ولا يزعل ولا يفرح ،
وأنه أقوى واحد في بلدنا لولا أنه لا يحب اظهار قوته تواضعا ،
ومن خشية الله . وكان كلامه بطيئا تحس معه أنه ينتزعه من نفسه
انتزاعا ، وكان دؤوبا على جلسة المتعلمين . ولكنه لا يتكلم فيها أبدا .
وكان الناس يعرفون عنه هذا السكوت ، ولا يحاولون استفرازه
مخافة أن يثور مرة فيقتل من أمامه . . ومع هذا لا يذكر الذاكرون
في بلدتنا - على كثرة ما فيها من مؤرخين وذاكرين - أنه ثار مرة
ولا اشتكى أو توجع .

وكادت جماعتنا تضحك للسؤال المفاجيء لولا المأتم . والظاهر أن
أبو الهول كان قد عبر بسؤاله عما يدور في الخواطر جميعا ، فما
لبثت الوجوه أن تطلعت الى ، كلها متسائلة جادة ، ماعدا وجه
أبو عبيد الذي راح يتطلع ناحيتي ويبتسم ، ويقول بابتسامته :
أقول أنا ؟ وعبست اطلب منه السكوت . .

وقلت على البديية :

- أصل يا صالح جسم الانسان ده عجيب قوى . .

وسرحت أحدثهم حديثا عاما عن الجسد ، وكيف يجري الدم

ويردق القلب ..

وسكت ، لارنى ان كانوا قد نسوا أو اقتنعوا .. ولكن صالح
زر عينيه مرة أخرى . وعاد يسألنى :

- أمال رمة ايه الى بيقول عليها لفندى ؟

وعاد (لفندى) أبو عبيد يقول بابتسامته اللامعة الباردة : تحرم
تعمل دكتور ؟ ولما وجدنى سكت ، والسكوت علامة الرضا . اندفع
يقول :

- بعد اذنك يا دكتور .. أصل بنى آدم منا يا اخواننا جسمه
من جوه مليون جير وحديد وزرنيخ وسليمانى وماركورو كرون ..
وطول ما الواحد منا حى الحاجات دى بتبقى سايحة فى الجسم فلما
بينقضى الاجل ويتوفاه الله بتروح عاقدة على بعضها زى ما بيعقد
جالوص الطين فى وش اليعدا .. تقوم تيجى تحسس على جسم
الميت من دول تلاقيه كنه لوح لطرانه تمام .

وسكت أبو عبيد عن الكلام . ويبدو أن مقاله كان عجيبا غريبا
لا يستطيع أحد تصديقه دون شهادة منى .. وعادت العيون تنظر
الى وتطلب الشهادة ، ولم أجد لدى شيئا يدحض علم أبو عبيد
فهزئت رأسى موافقا ، وحينئذ فقط تصاعدت التعليقات :

- يا خبر !

- أترن بنى آدم رمة ياولاد وماهوش دارى .

- عجائب والله .

- ما تموت يا واد يا صالح خلينا نعرش بيك الزريبة .

- عشان تحمدوا ربنا على لقمة العيش ونفس الهوا يا عالم

بذر كتان ..

وأصبح أبو عبيد نجم الحلقة بلا منازع .. وأخذت العيون تلتف

حوله وترعاه فى تبجيل وكأنه هو الذى يستطيع اذا شاء أن يحيل

الواحد منهم الى قطعة من خشب الرمة ..

ولم أحتمل هذا ، فسرعان ما وجدت نفسى أندفع فى الحديث

عن الوفاة والجثث حديث العارف الخبير . وأخذت أروى لهم النوادر

والحكايات عما يحدث فى مشرحة كلية الطب وكيف أننا نقضى

طيلة النهار والمشارط فى أيدينا نقطع الاجساد ونبقر البطون مع أنى

لم أكن قد دخلت المشرحة ولا رأيته فى حياتى ..

واستوليت على انتباهاتهم كلها . وغاب عن ذاكرتهم أبو عبيد

برمته ، والمأتم وكل شئ .

وفى ذلك الوقت صعد الى أريكة الفقهاء رجل ضخيم يرتدى الجبة

والقفطان . وتبينت فيه الشيخ عبد الحميد واعظ المركز ، وكان

الرجل - والحق يقال - نشيطا فى أداء وظيفته حتى لهجت اللسن

بذكره . كان لا يترك مأتما فى أى قرية الا ويذهب اليه ، ويعزى

فيه ، ليس هذا فقط ، بل أنه ما يكاد يجلس قليلا ، وتخلو دكة

الفقهاء حتى يمضى اليها فى بطن وقور

بصوت هادىء : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويعم الصمت المكان ،
وتشرئب الأعناق تتابع درس الشيخ وهو يرويه بصوت حلو ،
ينغمه ، ويطيل فى نبراته الحلقية ، ويضم الصاد ، وتخرج الرائ
لها زغرودة ، وتحس اذا ما سمعت الكلمات المترادفة الممدودة وهى
تتهادى من حنجرتة ، بينما وجهه مكتنز أحمر ، وشواربه مخطط
أسود وعمامته ناصعة البياض ، تحس أنه لا بد قد تعشى بخروف
دسم قبل أن يلقى الدرس ، وان كلماته تخرج مطمئنة شبعانة
لا تشكو قلقا ولا تعباً ، وان لا أولاد له ولا زوجة أو مشاكل وأنه
- بالتأكيد - له الجنة .

صعد الشيخ وأخذ يلقى الدرس . . وكان مفروضا أن أسكت مع
الساكين وأسمعه ، ولكنى كنت قد طرقت بحديثى بابا لا يستطيع
أبو عبيد أن ينافسنى فيه . . فالحقن والادوية والاسماء الغريبة له
فيها . . أما الجثث . . فسيرتها لا تأتى الا على السنة الدكاترة
وحدهم . . ولهذا مضيت أتحدث . . وانقسم المأتم . الغالبية تسمع
الواعظ والاقلية تسمعن ، وأنا أوزع انتباهى بين كلامى وكلام
الواعظ . . كان الرجل قد وصل فى حديثه الى العذاب الذى ينتظر
العاصين فى الآخرة . . وكان قد استولى على الالباب جميعا . .
أقصد الباب (النخالة) . . فالأعيان كنت ألمهم يتهامسون

حيث يثاءبون وينظرون فى ساعاتهم ويختلفون على أيها أضبط ..
أما أصحاب الاجساد الضامرة البالية فكانوا مسمرين فى أماكنهم
يسمعون ، ووجوههم صفراء ذابلة كأوراق القطن الخضراء حين
تصيبها الدودة واللطم ، وأفواههم مفتوحة وعيونهم محمرة بالرمد
والرماد تحاور الضوء وتداوله لتستطيع أن تتابع الواعظ وهو
يتحدث حديث العالم الخبير عما يناله المذنبون . وكيف يتولى أمر
كل منهم أربعة من زبانية الجحيم الغلاظ الشداد .. يخلعون عنه
ملابسه .. ثم ينهالون عليه ضربا (بمقرعة) من حديد لها أسنان
تنهش لحمه ، وتدشده عظامه ، حتى اذا ما استوى وشبع ..
أخذوه الى طابق آخر من النار .. وتولوا ادخاله فى مواسير جدرانها
من اللهب .. يظل يحرق فيها وهو حى ، وكلما ذاب جلده كان له
غيره ليتجدد عذابه دا عطش وطلب ماء سقوه من ماء النار ،
وماء النار من حميم وغساق ..

الغالبية كانت تسمع الواعظ ، ولا تكاد تعرف ما المقرعة ،
ولا الحميم أو الغساق ، ومع هذا فمن طريقة الشيخ عبد الحميد فى
اللقاء ، ومن غرابة الاشياء التى كان يرويها ورهبتها ، كان التأثير
قد بلغ بالناس حد البكاء ..

والاقلية كانت تتابع حديثى ، وكنت قد تعديت حدود كل معقول،
وأخذت أروى لهم تفاصيل دقيقة مزعجة عن حوادثنا ونوادرنا مع

الجثث ، وكيف أننا نتناول طعامنا أحيانا فى المشرحة وعلى مرأى من البطون المفتوحة ، وأحيانا أخرى كثيرة نلعب « الكوتشينة » على صدور الموتى ، وكيف أننى صنعت من العظام والجماجم محابر ومساطر وأقلاما .. ثم حكيت لهم قصة طويلة عن الذراع الذى اشتريته مرة من فراش المشرحة ، وأخذته معى الى حجرتى ، وما أحدثه من هرج ومرج بين سكان البيت .. الخ .. الخ .

وسألنى أبو الهول وهو لم يعد يحتمل :

- واشتريت الذراع بكام يا دكتور ؟

وتصنعت التذكر ، وقلت :

- والله خدته من الراجل يومها بريال .

فقال مبهورا :

- ياه .. يا خبر اسود ومنيل .. أمال ياخواتى بنى آدم على

بعضه يسوى كام يا دكتور ؟ ..

فقلت وأنا أهز أكتافى :

- والله ما اشتريتوش .. انما يسوى له جنيه كده والا اتنين ..

وانطلق المستمعون يرددون فى ذهول :

- شوف يا أخى .. أى والله .. صحيح .. ما أرخص من

بنى آدم ..

- دى عبر لمن يعتبر ..

- لازم دول كانوا عملوا في دنيااتهم عمل يغضب، الله ..
وسألني أبو الهول وقد بدأت ملامحه تتحرك .. وعيونه تتفتح ،
وملامحه تعلوها دهشة :

- وبيجيبوا الناس دول منين يا دكتور ؟ ..
والحق اني ما كنت أعرف .. فزعمت أن هناك متعهدا يورد للكلية
ما تحتاجه من جثث (قياسا على متعهد الضفادع في اعدادى) ..
وكان الشيخ عبد الحميد في هذه الاثناء قد قارب الانتهاء من
حديثه ، والناس قد طال استماعهم الى وصفه الدقيق لما ينتظر
العاصين ، حتى بلغت ارواحهم الحلقوم . فما كاد يستثنى من العذاب
ويقول : الا من خشى ربه .. حتى هاج الناس وماجوا يتنفسون
الصعداء ، وقد عثروا أخيرا على طاقة أمل ، ويشبتون أنهم حقا
وصدقا مؤمنون خاشعون ، ويقولون في نفس واحد مبهور :
لا اله الا الله ..

ورأيت الشيخ عبد الحميد يتطلع اليهم بوجهه التسمين الذى كسسته
حبات العرق ، ويفرك كفيه مسرورا .. فحماسهم ذاك كان خير دليل
على الاثر الخطير الذى أحدثه كلامه ..

وتطلعت أنا الاخر الى جمهورى .. كان كل شئ على ما يرام ..
وكدت أفرك كفى أنا الاخر .. لولا ابتسامة أبو عبيد الباردة التى
لم تكن قد جفت بعد من فوق ملامحه ..

وأطلقت آخر سهم فى جعبتى ، ومضيت أحدثهم عن الملل الذى أصابنى من طول الاجازة وعن شوقى الى تدريب يدى ومزاولة التشريح ، ولكى أقطع دابر الشك قلت اننى حتى مستعد أن أدفع فى الجثة خمسة جنيهاً ٠٠ انما ٠٠ أنا فىن والجثث فىن ؟ ٠٠

وخرجت من المآتم يومها مرفوع الرأس ٠٠ حتى أن أبو عبيد قال لى وهو يودعنى : مع السلامة يا بيه ٠٠

ولم أراجع نفسى ، ولا فكرت بعد هذا فيما قلته ، ولا فى التخشب الرمى أو مقارع الحديد ذات الاسنان ٠٠ كانت فى نظرى أحاديث مآتم وجلسات لا أكثر ولا أقل ٠٠ تكون اذا قامت ، وتنفض معها .

ولكنى استيقظت ذات ليلة على نباح كثير يهدر أمام بيتنا حتى خلت أن كلاب جيراننا تطارد عزرائيل ٠٠ وسمعت بابنا يدق ٠٠ ولم يفزعنى ذلك ٠٠ فكثيرا ما كان يدق فى أية ساعة من ساعات الليل ويكون السبب مغص مفاجئ أو بول محتبس .

كان الدق يزعج أبى فقط ، ويجعله يلعن اليوم الذى أدخلنى فيه الطب ٠٠ فقد كان يخاف أن أخرج رؤية مريض مرة فيتربص لى واحد فى الظلام ويقتلنى ٠٠ أما لماذا يفكر أحد فى قتل ذلك سؤال لم يخطر لأبى أبدا ٠٠

فتحت الباب ففوجئت بانسان محنى يحمل فوق ظهره (زكينة) مملوءة لحافتها ويقول :

- مسيك بأخير يا دكتور ..

الصوت مألوف ، ولكن رغم أن الليل كان يجود بآخر أنفاسه
وشعشة الفجر قد أوشكت ، لم أستطع التعرف على صاحبه ..

- مين ؟ ..

- أنى صالح ..

- أبو الهول ؟ ..

- ايوه أبو الهول يا دكتور .. بقالى ساعة أخبط لما الكلاب كلت

رجليه .. وسع شويه .

وتراجعت الى الوراء قليلا . فاستدار وأنزل الزكينة على الارض

ثم قال :

- الامانة أهه ..

- أمانة آيه ؟ ..!

كنت أسأله وأنا أنظر الى وجهه ، وأحاول ادراك ما لم يستطع
قوله .. ولم أر على ضوء « اللمة السهارى » إلا أن - أبو الهول -
يبتسم ، وكانت أول مرة أراه يبتسم .. فأدركت أن الامر أخطر
مما توقعت ..

ونطق أبو الهول وقال انه كان عائدا الى الكفر بعد سهرته فى
البلد فرأى جثة غريق طافية فى المصرف .. فقال : بس ، وأخرجها
من الماء ووضعها على الجسر .. ثم عاد جريا فى جرى الى بيت

أبو شندی ، وشحت منه زکیبة علی ذمة الطحین ، ورجع الی المصرف
جریا فی جری ، وعبی الجثة ، وحملها ، وخرم من الذرة الصیفی حتی
لا یراه أحد .. وتسلل الی بیتنا بها ..

ووقفت أتابع کلامه ، وأنظر الی طوله وعرضه وعیونه الوارمة
وأشم الرائحة الفظیعة الی أدركت أنها تنبعث من الزکیبة ، وأنا
مذهول مدهوش أكاد لا أعی مما یقول حرفا ..

ووجدت نفسی أنفجر فیہ ..

وانتظر الی أن انتهیت وقال :

- جری یاداکتور .. انت طلبک حدانا غالی قوی .. اخنا
بداک الیوم .. وان کان ع الخمسة جنیه أنى مش عایر خمسات ..
الی تحط ایدک فیہ أنى قابله ..

ولم أعد أحتمل ، واندفعت أمره والغیظ یخنقنی أن یعید الجثة
كما كانت تماما ..

وصبر علی حتی جئت بکل ما عندی ، ثم برش عینیہ وقال :

- وزعلان قوی کده لیہ یا داکتور .. بلاش نضرب فی العالی ..
هات یاسیدی جنیه والعوض علی الله ..

وانفجرت فیہ مرة أخرى ..

- انت اتهبلت .. انت اتجننت .. انت جری لعقلک ..

فرفع يده فى فروغ بال وقال :

- الاله يا اخواتى .. بلاش الجنيهه راخر .. عات يا سيدي
ريال خلينا ننفض .. عدنهما دراع بس يا داکتور ..

وأخيرا جدا .. بعدما ارتفع صوتى ، وبدا الغضب واضحا تماما
فى ملامحى استطاع أبو الهول أن يفهم أنى لا أساوم ، وأن عليه أن
يعيد الجثة الى المصرف فى الحال ..

وهنا تجمدت ملامحه ، وعادت الى جدها الذى لا ينفك ، وأغمض
عينيه وقال :

- كده .. بقى تعملها فى كده يا داکتور .. هم الافندية كدابين
يا اخواتى .. تحلف ع المصحف انك ما قلت الواحد بخمسة جنيهه
.. تحلف .. قلت والا مقلتش ..

وثار بيننا جدل طويل .. أنا أصر على أنى لا أذكر شيئا ، وهو
يعيد على مسامعى ما قلته كلمة كلمة ويعطى الامارات والشواهد ..
ولم أوفق فى اقناعه بارجاعها اذ كنت أتعثر وأنا أقنعه ، فى الحجل
الشديد الذى كان يملأ نفسى ، ولما لم أجد فائدة هددته ببلاغ الامر
للعمة .. وحينئذ اربدت ملامحه وبدا كأنه سيثور ثورة لا يعلم
الا الله مداها وقال :

- كلام ايه ده ياولاد .. بقى تعملها فى كده والاخر تبلى .. طب

ورحمة أبويا محمد أبو صيام ماني مرجعها والى معاك اعمله ٠٠ وبلغ
مطرح ما تبلغ ٠٠ انت مش قلت الواحد بخمسة جنيه ٠٠ قلت
والا ما قلتش ٠٠ بقى تعملها فى كده وتبلغ ٠٠ طب بلغ ٠٠ ورحمة
أبويا محمد لاسيبيها لك وماشى ٠٠ قلت والا ماقلتش ٠٠
ويبدو أن صوتنا كان قد ارتفع حتى أقلق أبى ٠٠ فقد وجدته
يبرز من باب حجرته ويقول :

- ايه جرى ايه ؟ ٠٠

وأسرعت اليه أرجوه ألا يتعب نفسه ٠٠ وأحاول اقناعه أن
المسألة مغص لا أكثر ولا أقل ولكنى كنت متأخرا ٠٠ اذ كان قد لمح
صالح واقفا بوجه لا يبشر بخير فقال :

- والواد ده عايز ايه ٠٠ دا الواد ده حرامى (والظاهر ان الفلاحين
كلهم حرامية عند أصحاب الارض) ٠٠ دا بيسرق الكحل من العين
وأبوه من قبله ٠٠ ايه الى جابك دلوقت يا وله ٠٠ عايز ايه ٠٠

- كان أبى يقول هذا وهو يتجه الى الباب ، والى صالح ، ولم
استطع أن أتدخل فيما حدث بعد ذلك ٠٠ فقد تعثر أبى فى الزكبية ،
وكاد يسقط وتسائل غاضبا عم جاء بها ، وعم جاء بصالح ، وقال
وهو يتحسسها ويحاول أن يخمن محتوياتها

- ايه ده يا واد يابو الهول ٠٠ انت سارق بطيخ يا ابن الب ٠٠

وجايبه هنا ليه يا وله .. والدكتور ماله .. دا مش بطيخ .. أف ..
ايه ده يا خويا .. أعوذ بالله .. أعوذ بالله ..

وصرخ أبى صرخة عالية مفاجئة ، وكانت تلك أول مرة أراه يصرخ
والفرع يملأ عينيه والرعب قد تملكه .. واندفعنا اليه أنا وصالح
نسندده حتى لا يتهاوى ، وسرت به وحدي الى الفراش والصدمة قد
أفقدته القدرة على السؤال أو الاستفسار أو حتى النطق ، ولكن لم
يدم ذلك سوى لحظات .. استرجع نفسه تماما بعدها ، وجلس
ينصت لى وأنا أحكى له ما كان من أول ما طقطع الحديث فى المأتم
.. ينصت وهو يخبط كفا على كف ويقول :

- مجرم .. حرامى ابن حرام سل مل ..

ولما عدت الى أبو الهول وجدته جالسا مسندا ظهره الى الحائط
ورأسه مائلة فى تأثر عميق .. وحين رآنى وقف وقال :

- سلامته لفندى .. يا خبر اسود ومنيل .. ودى كانت شورة
ايه السوداء دى .. سلامته ..

وهزئت رأسى وأنا أعد الدش البارد الذى جهزته له .. ولكنه
كفانى مؤونة الكلام فقد وجدته ينحنى على الزكية ويمتحن متانة
رباطها ويقول :

- والنبي يا دكتور أنى عمرى ما حلفت برحمة أبويها محمد باطل.

انما عشان خاطر والدك .. يا خبر اسود يا ولاد .. دا الواحد
خزيان من روحه .. يا شيخ دانى انبليت م الكسفه .. اللهم
اخزيك يا شيطان . ما كنت مروح فى حالك يا وله مالك ومال
خشب الرمة والزفت ده .. انما تقول ايه .. يا خبر اسود ومنيل
.. دانى كنت بقول لروحي زمان الداكتور حياخدك بالخضن يا وله
.. والختمة الشريفة عمرى ما حلفت بحياة أبويا محمد باطل .

وكان قد أوقف الزكية فالتفت الى قائلا :

- والنبي يا دكتور ولا صغرة تسندها سنده صغرة .. بس
اوعى هدومك .. هه .. يا قوة الله ..
ورفعها بقوة جبارة فوق كاهله ، وتمت وأنا لا أكاد أستطيع
الكلام :

- معلش يا صالح .. تتعوض .. معلش .

فقال وهو يستدير وتستدير الزكية وراءه ويتجه الى الباب :

- والله عليه .. أهى ان طلعت والا نزلت زكية .. هى يعنى
والا المقمعة الى بيقول عليها سيدنا الواعظ .. أهى ان طلعت والا
نزلت زكية .. حتكون أكثر من اللى بنشيله .. يا شيخ قول يارب .
وكان قد خرج من الباب ، وكاد يختفى فى الظلام حين فوجئت به

يتوقف ٠٠ ثم يستدير ليواجهني ويقول من تحت الزكينة :
— بس افكر كويس يا دكتور ٠٠ بدمتك يا شيخ وديانتك
والامانة عليك ٠٠ قلت والا ما قلتش ؟ ٠٠



obeykhan.com

الجبح



obeykhan.com

فاجأنا

الرئيس حين طلب منا أن ننتظر . قالها بلهجته
البحراوية وكان كلامه من لحظة أن عرفناه قليل .
وكان من نوع لا يرحب بالجدل ومع أن كل شيء
كل على أتم استعداد الا أننا سكتنا كلنا ونحن متأكدون أن لا بد
هناك ضرورة لهذا الانتظار ، غير أن حلمي لم يسكت . . عوج وجهه .
وأسبل جفنيه وقال للرئيس : احنا مستعجلين . ولزومه ايه
الانتظار ؟

ويبدو أن كلامه تبدد ، ولم يصل الى آذان الرجل ، فقد كان
مشغولا بشيء ما يعدل من وضعه في (القلع) . وأخرج حلمي
حين لم يتلق ردا على سؤاله فعاد يقول . مستنيين ايه يا رئيس ؟
ونطق الرجل كلمة ولم نتبينها ، فقد كان يمسك مسلة بشفتيه .
بينما يده مشغولتان . والتفتنا جميعا نحوه فرفع المسلة وقال :

— واحدة ست .

ولابد أن دهشة كبيرة انتابتنا ، فقد تلملنا . ونطق أكثر من
واحد مرددين : ايه ؟ ست ؟! . واحتج حلمي مخفيا غبظته قائلا :
ست ايه ؟ وده وقته ؟ انت مش فاهم والا ايه يا رئيس ؟
وأجاب الرئيس والمسلة بين أسنانه هذه المرة ، تقلب الذال

- جيما . وتعطب الكلمات : لاجم ناكدها معانا .
- وانهالت الأسئلة والاحتجاجات . وانتظر حتى فرغنا وقال :
- أنا حالف بالطلاق لازم أخدها .
- وارتفعت أصوات احتجاجنا أكثر فأكثر .
- دى ساقط على الدنيا . وباتت مع مراتى 'عشان تضمن تيجي لغاية ما حلفت لها يمين الطلاق .
- وأتابع كلامه بابتسامة يرضينا بها . كانت له سنة من بلاتين براق . وكان وجهه نحاسيا أسمر ، ورموشه صفراء طويلة .
- واللادة التى تعمم بها من حرير وفانلته زرقاء من الصوف تنتهى بياقة مسدودة تحيط برقبتة . وأكمام طويلة مثنية ، وله سروال .
- مه . . . أنا ما بقى .
- قال حلمى هذا ، وتمدد وأحدث تمده انكماشات فى الارجل ، وثنيات هنا وهناك ، وأصوات احتجاجات كان مبعثها اننا نعرف أنه لا يريد النوم بقدر ما يريد أن يرينا سنخطة على الوقت الضائع .
- وركز الرئيس عليه انتباهه لحظة ، ثم ابتسم وقال :
- اسم الكريم ايه ؟
- فقال حلمى وهو يزفر :
- زفت .
- وعاد الرئيس يسأله :
- ودستورك منين ؟

واعتدل حسن وقال : منين ايه يعنى : اسمعنى يا ريس ؟

فقال الرئيس وهو يجذب حبلا : بسأل

وقال أحدا : مصيبه ثقيلة

وأجاب آخر : ح تعطلنا .. ويمدّن نودينا فى داعيه

ولعب ثالث بيده فى الماء ونثر قطرات على الباقيين وقال : مش

مممكن ناخدعنا .

وارتفع صوت يسأل : ودى عايزه تروح ليه ؟

ونظر صاحب الصوت الى الرئيس وأعاد نفس السؤال .

ولم يرد الرئيس . وكنا كلنا نتوقع هذا . كان لا يجيب الا على

ما يحلو له الاجابة عليه ، وأحيانا يكتفى بالتحديق فى سائله

وهز رأسه .

كان ثمة هدوء على الشاطئ . هدوء متكاتف ثقيل . والهدوء حين

يتكاتف ويستتب يصبح شيئا مروعا . وكانت الدنيا ليل ، والبلدة

ساكنة هامدة بجوارنا ، بيوتها أشد سوادا من الظلام ، بيوت قديمة

متراسة ، حيطانها لا تحتمل البرد ، وطوابقها متراكلة متساندة

كجماعة من خفر الليل العواجيز ، وتجاهنا شارع واسع جدا ،

يسمح ضيق البلدة باتساعه ، وتلمع فيه برك ماء وتتجمع على

حوافه أكوام من قشر الارز الذى تنفثه ماسورة طويلة تمتد عبر

الشارع وتنتهى فى مضرب الارز ، أعلى بناء فى البلدة ، والبناء

الوحيد الصالحى . اذ كان يعمل رغم اطفاء الانوار والاوامر ،
وتتصاعد دقات وابوره لب دب ، لب دب ، لب دب ، موحشة كثيية
مى البلدة المظلمة . كأنىا القلب لا يزال يدق فى جثة ماتت وشبعت
موتاً .

وكان قاربنا واقفا على حافة البحيرة وظهر البلد اليه . وكنا اذا
التفتنا الى البحيرة ضاعت ابصارنا بين البحيرة الراكدة المظلمة فى
السماء ، والسماء التى استقرت بنجومها فى قاع البحيرة ، وكان قلع
المركب مطويا ، نرى بدايته القريبة منا ، ولا نرى نهايته المذابة فى
الظلام . وكنا أربعة ، والقارب صغير ، وحلمى مضطجع ، والرئيس
جالس القرفصاء مستندا الى الصارى ، والريح نائم ، ودق الوابور
يصل الينا بانتظام يضايقنا انتظامه ، وأنفاسنا تتقارب وتتباعد ،
والاحداث كثيرة ، وغريبة ومتتابة وكلها تحدث فى يوم واحد ،
ونتنفس بعمق فتمتلئ أنوفنا برائحة الزفارة . كل ما فى البلدة
يضج بها . الارض والبيوت ورغبات الناس والقوارب . . فالبلدة
أهلها صيادون ، والسماك صناعتهم ، وفى كل مكان تجد آثاره ،
والقارب يهتز اهتزازات خفيفة ، يجذبه موج صغير الى الداخل ، ثم
يدفعه الموج الكبير ليصفع به الشاطئ . . والرئيس كوعه فوق ركبته ،
ويد من يديه ممدودة الى آخرها ، واليد الاخرى فوق الدفة ، ورموشه
الطويلة مسبلة ، وفمه نصف مفتوح ، ويكاد شخيريه يتصاعد .

واحتز القارب ، وتحرك واحد ، وخرجت فى الظلام علبة سجائر ،
وتناولناها كلنا . وأخذ الرئيس سيجارة . . وضعها بين اصبعي يده
الممدودة ورفض أن يشعلها .

ومضى الدخان يتصاعد من أنوفنا وأفواهنا فى صمت ، والبقعة
التي نحن فيها أصبحت صفحة سوداء ، فيها لطح بيضاء ، تحدد
هيكل القارب ، وولعة أربعة سجائر تتوهج ، وفوانيس النجوم
الصغيرة تتأرجح ، وناب الرئيس البلاطينى يبرق .
وقال حلمى فجأة : دا مش كلام ، ما ترجع أحسن .

قال هذا وهو ينتفض بشدة ويقوم . ومال القارب حتى كاد
ينقلب ، وارتطمت جبهته ارتطاما عنيفا بالصارى حتى أنه صرخ .
وما كاد القارب يعتدل حتى كانت يده تتحسس جبهته ، وحتى كان
يقول : أنا جرحت يا جماعة . والله جرحت ، ياه . ده فيه دم .
ادونى مندبل .

وحدثت ضجة ، وتناثرت الشتائم من فم حلمى ، وكثرت
التعليقات . ثم خمد الكلام ، وانقطع ، ودلفنا الى سكون لا يعكره
الا صرير الصراخير المتصل الدائم .

ورفع الرئيس رأسه مرة ، وحدق الى بعيد . وتمايل القارب
حين اندفعنا كلنا لنحرق .

كانت ثلاث كتل سوداء تتحرك بسرعة فى اتجاهنا . كتلة

قصيرة صغيرة فى المقدمة ، والكتلتان اللتان وراءها تحاولان اللحاق
بها ، وتخوضان برك الماء دون جدوى .

ولم يكن القارب قد تحرك ، أو حتى كان فى نيتنا أن يتحرك ،
ومع ذلك كانت من فى المقدمة لا يكف عن الصياح :

— أوع تمشى .. أوع تمشى ياخويا . أنا أهه .. أنا جيت ..
وفى غمضة عين كانت قد وصلت وقذفت بنفسها الى القارب ،
ولولا أننا قمنا جميعا وتلقفناها بأيدينا لكانت قد هوت الى الماء .
ومددنا اليها أيادى كثيرة تساعدنا ، وأمسكت بأيدينا فى قوة ،
وتحفز ، وعصبية ، وكانت أصابعها حادة صلبة ذات تجاعيد ،
والقبضة قبضة أم .

وأفسحنا لها مكانا ، ولكنها لم تجلس .. ظلت تتلفت فى قلق
ولهفة ، ولا تستكين ، وتود أن تقول أى شىء وتسأل عن كل شىء ..
وحين وصلت الكتلتان قالت بسرعة وحسم :

— روحوا أنتم بقى ..

قالتها كمن يود رفع الهلب الذى يربطه بالشاطئ ليطلق .
وتكلمت المرأتان .. فى وقت واحد .. وكلام كثير . واحدة
طويلة وعجوزة . وكلامها أيضا طويل وعجوز .. والثانية فتاة .
لابد أنها جميلة فصوتها كان فيه رنة من اعتادت الثقة فى نفسها
وجمالها .. كانتا لا بد أخت وبنت أخت ، وكان رد الحالة واحدة

حسماً لا بتغير : روحوا انتم بقى .
ولم ندر لأصغثنا لنحوار سبباً . وعقوبتنا بدت لنا كالصفحة
البيضاء التى لم يخط فيها حرف . . وما نسمعه كأنه أول كلام
عربى نسمعه .

وأفاق واحد وغمر جاره : مصيبة وجت لنا على الآخر .
وقال له جاره : ح تخاف دلوقت وتبديل الدنيا .
وقالت الحالة مرة : روحوا أنتم بقى .
وخرجت الجملة دون أن يسبقها أو يعقبها رد من الشاطيء .
كنا قد ابتعدنا

وبدت البحيرة لا نهاية لأتساعها وأصبحنا بالقارب والريس
والصارى نقطة تافهة فى الوجود غير المحدود . وتلك هى البحيرة
فقط ، فما بالك ونحن من لحظة أن غادرنا القاهرة وطريق طويل
يسلمنا الى طريق أطول ، والأرض الخضراء على الجانبين ، أرض
واسعة لا حد لاتساعها أوسع من أى شىء رأيناه ، أوسع من
السماء ، فالسماء تضيق بسطح الأرض ، فتنحني السماء وتضع
خط الأفق ، والأرض لا ينبتها خط ولا أفق . فبعد كل أفق تجد
آفاقاً أوسع .

والقرى كثيرة ، لا حصر لها . بين كل قرية وقرية قرية ، وفى
كل قرية مئات البيوت . وكل بيت يعج بعشرات الناس . وكل

مؤلا مصريون . كلهم مصريون . لا يمكن أن يموتوا كلهم أبدا .
ونترك أقليما وندخل أقليما والأرض لا تنتهى والناس لا ينتهون .
أناس متشابهيون . وجوه أيا لون أرضنا السمراء . وذقون وشوارب
كشوش الأذرة . ونفس السحنات . وكأنهم رجل واحد مصنوع
من ملايين الرجال . ويقولون أن سيدنا نوح كان طوله ألف ذراع ،
ترى كم طول هذا العملاق الذى لم نعثر له على بداية . وظلت
السيارات والمقطارات تقطع بنا الأميال والأميال ولا نعثر على نهاية .
حتى حين وصلنا المطرية . وانتهت الأرض وبدأت البحيرة . لم
ينته العملاق . بل تحول الى يد ضخمة . يد ذات عشرات الآلاف
من الأصابع . يطلقها فى ماء البحيرة فتملك البحيرة . وتعتصر من
مياها خير ما فيها . وكما يحدث لليد اذا أمتدت الى الماء وطال
امتدادها . فالناس تصفر شعورهم . وتبهت بشراتهم . ويصبح
لعيونهم زرقة الماء . ويتغير شكل الجسد ولا ينتهى العملاق .

كنا قد ابتعدنا .

وكل شئ أصبح مستقرا ماعدا الرئيس . . كان دائب الحركة
لا يهدأ . المدراة فى يده يغرسها فى قاع البحيرة ثم يدفعها ب صدره ،
وأرجله تمرق من وراء ظهورنا . وتدور حول القارب . وأصابع
قدماء تتشبث بالحافة فى حنكة ودراية وكأنها قد تحولت الى
مخالب مسقر . وحركته تبهرها . وكأنه يقوم بمعجزة

يميل ليدفع القارب أكثر حتى نعتبره ساقطاً في الماء ،
وإذا به يرتد ، والمذراة قد انتزعتهما وكان ألف حبل خفي
تصل بينه وبين الصاري . وتحميه من السقوط .

ولم تكن الراكبة الجديدة انسانيته ، كانت كتلة قلق حيسه
جعلتنا نحس أن روح جديدة حلت بيننا وفيها . عيناها تنظران
الينا ولا تتفحصانا ، وأيديها على ركبها . وأيديها على الحافة ،
وأيديها تضرع لأنه غير منظور . ورأسها يدور ، ولا يستقر .
وينشئ فجأة الى الشاطئ ثم يرتد ويعود ويدور . وما كاد الرئيس
يفرد القلع حتى التفتت اليه وقالت :

- مش على طول يا خويا ..

وقال الرجل بلكنته البحر اوية والمذراة لاتزال تحت أبطه .

- ايواه .. ربنا يسهل ..

وردت الحالة : انشاء الله انشاء الله الهى يخليك ..

والتفتت الى الجالس بجوارها وسأته :

- وانتو كمان .

فأجاب حلمي ويده تتسلل دون وعى وتتحسس مكان الجرح

فى حبهته :

- واحنا كمان ..

وعادت تسأل الرئيس :

- ونوصل أمتى ؟

فقال حلمى :

- حد عارف ..

وأعادت السؤال وابتهلت ، فقال الرئيس :

- يا أمتى ربك يعدلها ..

واستجرت :

- يعنى بعد ساعة ؟ .. الهى يخليك لشبابك .. بعد ساعة ؟

ولما لم يجب الرئيس ، التفتت الى حلمى وسألته :

- بعد ساعة يابنى . الهى يخليك .. بعد ساعة والا أكثر .

وهنا زعق الرئيس وقال :

- دا شىء بتاع ربنا ياستنى . واللى منه لا بد عنه . هو مافيش

مصر ؟

والصبر هى الكلمة التى كان يبحث عنها كل مناسلى لىسمى
الرائحة التى أشاعتها الحالة من لحظة أن جاءت . كانت ترتدى
كمعظم الحالات ، ثوبا أسود وطرحة سوداء ، ولا يظهر من جسدها
غير وجهها فقط ، وثيابها كانت تبدو وكأنها لم تخلعها منذ أيام
كما لو كانت أردية ميدان . وأشاع قدومها تلك الرائحة ، رائحة
العواجيز التى لا يعرف أحد أن كان سببها هو رائحة الصناديق
التي تحفظ فيها الثياب . أو هى رائحة نسيج الملابس نفسه . المهم

نينا تذكرك لا بد بجدتك ، وبالمضى ، ومع انيس . ليست عطرة . الا
أنك لا بد تحس بالالفة تجاهها . ولا تتأفف .

ولم تكف الحالة عن الكلام منذ أن جاءت . ولم تكن تتكلم .
والريس هو الآخر ساكت . كانت قد مضت ساعات ونحن
نترقب ، كل ما يهمنا هو اللحظة التالية وما يحدث فيها . والكلام
لا يدور في جو الترقب . ولا يدور ساعة الضيق . . . وكل شيء قد
حدث على حين بغتة ، كنا في بيوتنا وأعمالنا وقال كل منا للآخر :
تروح وقال كل منا للآخر : ياللا . وإذا بنا في الطريق وكان
كان لا ينقصنا سوى الاحتكاك لنشتعل . وأصبح أهم شيء لدينا أن
نرى ونسمع ونجهز أنفسنا للمشهد القادم والكلمة التالية . .
ووصلنا المطرية في الضحى ، وانتظرنا الى أن يحل المساء لنعبر
البحيرة الى هناك ، وقضينا اليوم بطوله نعيش في بلدة الانسان
والسمك . . والحياة تمضي من حولنا ، كما اعتادت أن تمضي طوال
آلاف من الأعوام . . الرجال ذوو الشعر الأصفر والبشرة الفاتحة
والأفواه المفتوحة على الدوام كأفواه البلطى يتزوجون البنات ،
والبنات شقراوات ، أجسادهن لها تناسق (المز) ورشاقة
الطوبار ، وطعمهن أشهى من السمك الطازج اذا شوى في الفرن
وأضيف اليه الفلفل والملح والثوم وعصر الليمون ، ولهذا فكل
يوم زواج . والاطفال كل يوم يولدون . والأسماك هي الأخرى

نتوالد . وتتكفل البحيرة بصغار الأطفال وصغار السمك . صغار
الأطفال طول النهار في الماء يألغون الماء المالح ويألف الماء المالح
أجسادهم . ولا أحد ينهرهم . ولا يخاف عليهم أب . فالبحيرة
المصيادين غول مستأنس .

ويكبر الطفل فيكبر حب استطلاع له ويترك الشاطئ ويتعلم
العوام . وصغار السمك أيضا تتعلم العوام . ويصبح طول الطفل
متر وطول السمكة قراريط ويزوق الطفل طعم السمك ، ويزوق
السمك طعم الطعم فلا ينسى الطفل حلاوة السمك ، ولا ينسى
السمك حلاوة الطعم . ويمسك الطفل بسنارة ويخرج سمكة
وتهزه الفرحة فقد هزم العالم المجهول الكائن وراء السطح البراق .
ويهزمه مرة ذلك العالم المجهول ، ويعود خاوي الوفاض . ويفهم
الطفل أن السنارة نصفها في يده يخضع لإرادته ، ونصفها الآخر
يعتمد على رغبات مجهولة في العالم المجهول .

ويسمع أباه يقول الحظ ، ويردد الكلمة لا يعرفها ، ثم يرددها
وهو يعرفها ويؤمن بها ، يؤمن بقانون آخر يحكم العالم المجهول ،
قانون لا يخضع لقانون ولا يستسلم الإنسان حتى لو كان خصمه
قانون لا يخضع لقانون ، ويبدأ الصراع الرهيب بين الصياد والصغير
والبحر المجهول ، ولا بد من أشياء تؤنس وحشة الإنسان في ذلك
الصراع . لا بد من علامات تشاؤم وتفاؤل ، لا بد من موال ، لا بد

من حدوتة ، لا بد من أمل طويل لا ينقطع ، لا بد من الصبر .
الصبر .

رائحة الصبر كنا نستنشقها ونتمثلها والقارب قد اندفع
وابتعد عن الشاطئ وأصبحنا في قلب البحيرة ، وشعاعات خفيفة
متباعدة تنتشر في الأفق وتبشر بطلوع القمر ، وهددة ، أصوات
مهددة هي كل ما يسمع والقارب يرفعه الموج الصغير ثم يرقده
بحنان على سطح الماء ، والموجات تبتز ، والنجوم تبتز ، والريس
عند المؤخرة يبتز ، يد على الدفة ، ويد ممسكة بحبل القلع توجهه
ليعترض الريح . والريح شفاف خفيف ، والدنيا برد ، والبرد
يكاد يتحول الى ابر . ابر طويلة ثاقبة ، تخرق أجسادنا حتى
تصل الى النخاع ، والحالة جالسة ، لامنكمشة على نفسها ولا منطوية.
وكأنها نعلانة أو ميتة .

وقال لها حلمي :

- بردانة ياخالة ؟

فأجابت :

- آه .. باقى كثير .. ييجى ساعة يا خويا ..

ونطق الريس : أنوى المشيئة يا شيخه .. قولى انشاء الله .

فقال الحاله على الفور : انشاء الله يا خويا انشاء الله باذن الله .

بعد ساعة ؟

وكادت موجة الحديث تنتشر لولا أن الرئيس أسكتنا ، فاليدوء
مخيم . والكلام ينقله سطح الماء المستوى الى مسافات بعيدة ، والبحر
له آذان .

ورحنا فهمس . قالت الخالة :

— انتم كمان رايعين ؟

فقال حلمي : أيوه ..

وسألتنا كلنا : ورايعين ليه ؟ أنتم من هناك ؟

— لا ..

— ليكو قرايب أمال

— أبدا

وقال الرئيس وهو يبتسم :

— ما قتلتك دول فداوية ياست ..

وتمللنا ، فلم نكن من الفدائيين أو المحاربين ، وهمنا أن ننطق ،

ولكن الحالة تمعنت فينا وسألتنا :

— انتو صحيح فدائية يا ابني

فقلنا : أمال ح نكون ايه يا خالة .

وتركت الحديث ووضعت يدها برفق على كتف حلمي وقالت :

— ما تحطش ايدك ع الجرح يا ضنايا لحسن وحش ..

وانزل حلمي يده بعد تردد ، واختطف سيجاره من واحد منا

وسألها :

- و انتى رايحة ليه ياست ؟

ولم تجب ، ولمحنا دموعا تبهطل على الفور من عينيها دون بكاء ،
واستغربنا ، وأعاد حلمى السؤال فقالت :

- رايحة أشوف ابنى

ولم تنطق (ابنى) حروفا كانت دموعها أكثر من الحروف وهى
تنطقها

- ابنك ماله ؟

وأجابت : ابنى يا خويا .. هناك

- بيعمل ايه ؟

- مجروح .. مجروح ياضنايا وما شفتوش بقالى شهر .

واندفعت تبكى . وشل بكائها. ألسنتنا ، ولكن حلمى ألح :

- مجروح ازاي ؟

ومضت تتكلم وتبكى ، وتبكى وتتكلم :

- جتله رصاصتين فى رجليه .. الهى ينتقم منهم البعدا

- ليه ؟

- كان بيحارب فى الهوجة ساعة ما نزلوا .

- كان بيحارب ، !

قلناها كلنا منبهورين ، وكأننا نردد أمنية غالية ، وكأننا نطلق

دعوة . ولم نكن أمنيتنا وحدنا ، كل من قابلناه كان يرددها ،

وقليلون هم من أتاحت لهم الفرصة . فالمعركة كانت حادة وباترة
نشبت فجأة . وانتهت فجأة . ولم تستمر سوى أسبوع ، وكانها
طعنة خنجر ، حتى أصبح في نظرنا البطل هو من كان هناك
والمقدس هو من اشترك فيها . أصبح كل من اشترك فيها يحف
به في نفوسنا نوع من التقديس ، وكأنه أسطورة ، وكأنه كائن
غير موجود ، فإذا بحالة ابنها قد حارب ، وجرح ، وقتلنا لها :

- وزعلانه ليه .. ابنك بطل .

- عايزه أشوفه ..

- دى اصابته بسيطة ومالك نازلة بكأ عليه ياستى ؟

- بقالى زمان ما شفتوش .. مشتاقاله وجيت مرة المطرية قبل.

كده .. وركبت القارب .. ووصلنا بورسعيد .. والانجليز

حاشونا ثلاثة أيام وكان الرصاص زى الناموس فوق روسنا وبعدين

رجعونا .. ودى تانى مرة .. ح نوصل امتى يا خويا .. الهى

يخليك .. عايزة أشوفه .. مش قربنا ؟

وتناهى السؤال الى وعينا غريبا مدويا . وانطلقت عيوننا

تستكشف البحيرة . وفقدنا الأبصار فى المسطح اللانهائى من

الماء ، وغابات الحشائش المتناثرة ، والسماذ ذات الضوء الشاحب.

والقمر المكسور الذى بدأ يزحف صوب الأفق ، ، ولا شىء سوى

هذا .. لا شىء سوى الماء الكثير الآسن ، الماء الأسير ، الباقي بعد

الصراع ، صراع النيل والبحر الكبير ، النيل النائل الذى أنشأ
أظافره فى البحر وأسر الكثير من مائه ، وحاصره ، وصنع البحيرة ،
لأشياء سوى سكون .. سكون غامض مثير ، مليء بأسرار والغاز ،
سكون الأسرى ومعسكرات الاعتقال ، سكون مربع مخيف ،
سكون البحيرة التى عيدها القدماء .

ولم تكن بعد قد عرفنا الكثير عن ابن الخالة . كنا نود أن نعرف
كل شيء عنه من لون شعره لطريقته فى المشي .
قالت : أبدا يا بنى .. لما الضرب حصل قال لازم تسافرى . قلت
ما أسافرش . قال لازم . قلت له يا بنى أنا ما ليش إلا أنت
وربنا . هو حيلتى من دنياى . أسيبك ازاي . قال لازم وركبني
المركب . ورحت مصر . يقطعنى أنا الى ما استنيت وياه ..
يقطعنى الى سبته .

— وحارب !؟

— وحارب وجتله رصاصتين فى رجله

— وعرفتو ازاي

— هوا فى المستشفى وبعث لنا جواب فى الصليب الأحمر

ياخويا .. وقال الخدمة زى الزيت ومفيش أكل يا بنى يا حبيبى .
مين يجيب له يشرب اذا عطش . مين يسقيه . مين يسأل عنه
اعتدلنا جميعا .

كان الأمر يتأرجح فى نفوسنا بين الشك واليقين ، كنا نعتقد أنها لا بد أم قد لسعها الشوق الى ابنها المحجوز هناك وصممت على رؤيته . وقصص البطولة مودة . كل قاطن هناك لا بد اشترك ، وكل قاطن بطل ، وكل واحد قتل من الأعداء مئات . وتبادر إلينا ان الحالة هى الأخرى تود تضخيم الأمر واختلاق المستحيل لتصل الى هناك . . . ولكننا اعتدلنا . فغير الأم لا يستطيع أن يمثل أبدا دور الأم ، وأم غير المجروح لا تستطيع أن تمثل أبدا دور أم ابنها مجروح . وكانت فى جلستها التى لم تغيرها ، والتى يخيل للانسان اذا رآها أنها واقفة ، وواقفة على أطراف أصابعها وليست جالسة ، وعيونها وهى تنظر الى بعيد ولا تطرف ولا تمل الرؤيا والنظر وكأنها تتشوف الى حبيب ، وكلماتها ، والطريقة التى تنطق بها كلماتها ، ودموعها التى تفرق الكلمات وتغص الحلق ، كانت بلا ذرة شك مجروحة وأم مجروح . اعتدلنا ونحن نحس بقشعريرة اتبهار . . . وكأننا ونحن ننظر إليها نعيد الخالق أو نصلى للشرف .

رقال حلمي :

- خالة . .

- نعم يا خويا

- انتى زعلانه انه حارب

- أنا يا بنى زعلانه انه مجروح ودلوقت لوحد

وهقيق حلمى كمن يود أن يغير طعم الحديد ، وسألها فى
سخرية غير لاذعة :

- طيب .. افرضى يا خالة انك كنت وياه ساعتها .. كنتى ح
تخليه يحارب .

وانحدرت دموع كثيرة من عينيها ، وقالت فى لهجة روتينية :
- أيوه كنت أخليه

وزام حلمى غير مصدق ، فتابعت اجابتها باخلاص هذه المرة :
- كنت أخليه أخليه .. انما لازم كنت أحارب وياه .. رجلى على
رجله .

وقال حلمى مستخفا :

- تشيلى البندقية ؟!

- أشيلها ..

وتدخل واحد وقال :

- طب شيل انت ايدك من ع الجرح يا حدق .

وتنبه حلمى الى أن يده كانت قد عادت الى مكانها فوق الجرح
دون وعى منه ، فأنزلها ، وتوقف برهة ، ثم تابع استخفافه
ليدارى خجله :

- وتضربى نار يا خالة :

- اضرب .. ما اضربشى ليه . اهم بيقلوا ان الستات كانت

بتضرب .

وتابع حلمي استجوابه : - طيب افرضي انه أتعمور وانتى
بتحاربى معاه . تعملى ايه ؟

وبكت ولم تجب . وأسكتنا حلمي . ولكنه فعل هذه اللحظة
ثم عاد يسألها :

- يا ستى دا الحكاية بسيطة . وهو فى المستشفى . وزمانه
طاب . ومالك مبهوفة عليه قوى كده ليه . هو انتى لوحده . ماكل
واحد اتعمور له أم زيك كده . ماكنت نستنى لما يخرجوا الانجليز
وتروحي فى أمان بدال ما تعرضى نفسك للموت كده . انتى لازم
ترجعى وتستنى .

فاجابته بلهجة هادئة ولكنها حاسمة :

- ما اقدرشى استنى .

- ليه

- عايزه أشوفه . زمانه لوحده . عايزه أشوفه بعد الى حصل .
دا كان فى الحرب يابنى . الهى مايحرق قلب أمك عليك .
وضحكنا لذكر أمه ، ومع هذا لم يملك كل منا بينه وبين
نفسه الا أن يتذكر أمه ، ثم ينفىها على عجل من ذاكرته .
وحلت لحظة صمت .

الرياح بدأت تنتعش . ونور السماء قد خفف كثيرا من ظلام
البحيرة ، والقلاع منفوخ ، وفم الرئيس مفتوح ، وعيونه لاتغفو ،

والجو مملوء بالحرير المتصل الذى لا ينضب ولا ينقطع ..

وسألها حلمى بصوت شاعرى ممدود يقارب ليجتها :

- هو كبير يا خالة .

فقالت دون أن تنظر اليه ، وعيناها هائمتان ، معلقتان فوق

نجمة بعيدة فى قاع البحيرة :

- أهو اسم النبى حارسه ييجى قذك كده

- ومتجوز ؟

- خطباله ..

وارتفع صوت حلمى فى هزار مفاجئ :

- وزعلانه قوى كده ليه ؟ تلقاه كان طول النهار نازل فى كى

شتيمه .

- أبدا والنبى يا أخويا .. دا لسانه مفيش أنصف منه .

- وكان بيشتغل ايه يا خالة ؟

- عندنا دكانتنا يا خويا .. أمال هو قعد ليه .. قال لى ما

أسيبش الدكانة للأنجليز ينهبوها أبدا .

- وكان بيعب مصر يا خالة ؟

- مصر مين يا خويا ؟

- مصر بلدنا ..

- وحد يا ضنايا يكره بلده .. الهى يخليك ..

وحسنت الدموع خطان رفيعان لامعان على وجنتيها واندفع حلمي

يقول في حماس مفاجيء :

- يا ستي ابنك راجل واتعور في معركة رجالة • اتعور وهو

يبدافع عن بلدنا وشرفنا • بكره يكتبوا اسمه في الجرائد وينشروا

صوره •

فأجابت وهي تهز رأسها :

- بس عايزه أشوفه ، عايزه أشوف ايه اللي جراه •• اللي

يخليك ياريس • لسه كثير ؟

ولم يجب الرئيس •

وهز حلمي رأسه في يأس ، ثم تنبه فجأة ، وقال بالإنجليزية

وكانه عشر على كنز كبير :

- أتعرفون لماذا هي مصرة على رؤية ابنها •

وقال له واحد بالعربي :

- ليه

فقال :

- انها تدرك بغريزتها انه لا بد قد تغير بعد المعركة • تريد أن

تتبين ما حدث له من تغير وكيف أمكن لابنها الذي ربتسه ورأته

طفلا ، كيف أمكنه أن يحمل السلاح ويحارب • وتريد فوق هذا

أن تطمئن الى أنه لا يزال ابنها حتى بعد أن حارب كالرجال وحمل

السلاح •

وضرب واحد يد حلمى التى كانت قد تسلمت مرة أخرى الى
جيبته وقال بالإنجليزية أيضا .

- يا مغفل أهم شيء هو القوة الرهيبة التى تجذب الأم الى ابنها .
القوة التى لا يقف أمامها حائل .

ولم يظفر التخليقان بتعقيق ، كل ما حدث أن الحالة ظلت تنظر
اليهما وهما يتكلمان ، ثم التفتت الينا وسألتنا :

- أmaal انتو رايحين ليه ياخويا ؟

فأجابها حلمى

- مش قلنا لك ياست فدائية . مش مصدقة والا ايه ؟

وكدنا نضحك لولا أن سمعنا الرئيس يقول : اسمعوا ، فسكتنا
ببرهة .. وعاد يقول :

- سامعين ؟

وأصغنا أسمعنا - ومن بعد سحيق تلقفنا صوت هدير غريب
على السكون المستتب .

وقال الرئيس ، دا لنش

فقال حلمى على الفور . لا .. دى طيارة .

- بقولك لنش

أقطع دراعى ان ما كانت طيارة ..

وخيل الينا أننا ظلمنا ساعة ننتظر النتيجة . وكان الرئيس

يتكلم :

- الانجليز عملوا استعدادات جامدة ، طيارة أم مروحه رابحة .
جايه على البحيرة ، تشوف القوارب وتعرف اذا كن فيه صيادين .
واللا لا . وبعدين قبل الشط بشوية لازم تقف والا تضرب بالنار .
وبعدين قارب ييجى يفتش . انما دا صوت لنش مافيش كلام .
وظل الصوت يهدير من بعيد ويقترب حتى رأينا فى الضوء .
الشاحب نقطة فاتحة تتحرك ، وكانت تتحرك فى نفس اتجاهنا .
وقال الرئيس بنبرة فيها انتصار قليل
- مش قتللكم . دا لنش . وجاى من ناحية المنزلة كمان .
عارفنى رايج وين ؟ ..
وابتسم حتى توهج نابه وأردف :
- على هناك برضك
وسأله حلمى بسخرية :
- ايش عرفك ؟
فأجاب :
- ايش عرفنى ؟! أنا عارف قوى .. وما تزعلش .. تلاقى فيا .
ناس كمثلكو برضه .
وتغيرت لهجة حلمى واهتز طربا وقال :
- كده .. طب تيجى مندى عليهم ياجماعة .
وانهالت الأصوات تعترض . وقال الرئيس :

— خليميم يا محترم فى حاليمم واحنا فى حالنا • خلى كلى حتى نرس
سكته ..

وكان الناس أسرع منا ، فسبقنا ، وأوغل فى التقدم حتى تبدد
صوته • وقال الرئيس وهو يضرب ركبته المثنية بيده :

— يا خويا ايه الحكاية • دا المراكب بطلت صيد • أنا واحد من
الناس لبلة امبارح ، وليلة أنزل وكل ليلة عمال أحول فى ناس
زيكو كده • صفوف ورا صفوف عماله تروح على هناك • هو
هناك ايه ؟ مولد ؟

وقاطعته الحالة قائلة حلمى :

— يا حبيبى شيل ايدك من على الجرح •• عمال تحسس عليه
ليه • شيل ايدك يا خويا

وجمدت يد حلمى وكأنما ضبطت متلبسا •• ثم أنزل يده وهو
يدارى ابتسامة خجل ويتمتم :

— لا •• : دانا أصلى بس حاسس انى سخن ••

وما لبث أن أنشئ الى جاره قائلا :

والنبي تحط ايدك تشوفنى سخن والا لا •• يا أخى شوف •
ولم يترك الجار الا بعد أن أطاعه ووضع يده فوق جبهته •

وكنا قد دخلنا منطقة خالية من جزر الحشائش ، والرياح بدأت
تقوى حتى ان الرئيس ربط حبل القلع فى مؤخرة القارب ، وأمسك

باندفة فقط . ولكنه ظل مقطب الملامح ، عابس القسمات .
حامت لا ينطق وكان أمرا كبيرا يحيره ، أو حزنا مفاجئا داهمه .
وكان جالسا ظهره اليها ، وظل على هذا الوضع لا يغيره ، وكنا
قد تعبنا من التفكير والكلام وحتى من مجرد التحديق فى السماء
والنساء ، فسكننا . وماتت الحركة على ظهر القارب تماما حتى لم
نعد ندرى أهو واقف أو يتحرك ، وهل نحن نائمون أم مستيقظون
وانثنى الرئيس ناحيتنا فجأة حتى تبدلت اللاسة التى كان
يتعمم بها من عنف الحركة ، وقال :

- قولولى يا سيادنا . .

وقبل أن نسأل ماذا يريد أو نتحرك قال بنبرات حاسمة وكأنما
يتخذ قرارا خطيرا :

- انتو مش فداوية ؟ . .

ولا ندرى لماذا دقت قلوبنا بعنف ، وكأنما كنا نسرق وباغتنا
الرئيس .

وظللنا وقتا طويلا صامتين ، صمتا حائرا مضطربا ، صمت
العاجزين . وكان حلمى أول من تكلم . وقال :

- آمال احنا ايه ؟ بنلعب !؟

وحقق الرئيس فينا مرة أخرى وقال :

- على الطلاق بالثلاثة أنتم ما انتم فداوية . وقال حلمى ساخرا

مرتبكا :

— أما حكاية .. أمال رايعين تعمل ايه يا بلدينا ؟

فأشار الرئيس بكفه وهو يقول :

— ما هو ده الى محيرنى . رايعين تعملوا ايه . رايعين ليه .

هو أنا عيل .. دانا أفهميا وهى طيارة . والناس بتبان . الواحد
ياما شاف فداوية وظيفا ورجل أحمر . انما الى محيرنى انتو رايعين
تبيه ؟ ..

واستمر حلمى ساخرا مرتبكا :

— طيب .. رايعين ليه ؟

فأجابه الرجل :

— انت بتسألنى أنا .. اسألوا نفوسكم ! ..

ولم تكن ، حتى تلك اللحظة ، قد سألنا أنفسنا أبدا أو
تناقشناها . ولم يكن أحد قد سألنا . كل من علم اننا ذاهبون
كان يتمنى لنا حظا سعيدا ولا يستغرب . بل أن كل من قابلناه
أو رأيناه كان يتمنى أن يأتى هنا . وكنا نأخذ الأمانة على أنها
شئ طبيعى لا غرابة فيه ، كمن يقول : نفسى آكل ، أو نفسى
أشرب .

طوال صمتنا كانت الحالة ساكنة . ولكنها لما رأت الصمت طال

تقالت :

— به .. أمال يا خويا رايعين ليه ؟

وتكلمنا ، كلنا فى وقت واحد :

- انتى صدقتى الرئيس ؟ احنا فدائيين صحيح ..

- أهو رايعين كده .. نتفرج ..

- أصل ياستى فيه مقاومة شعبية هناك .. ، ..

- ليننا قرايب ياخالة بس من بعيد رايعين نطمئن عليهم .

ولم يدخل ما قاله كل منا فى عقله ، ولا فى عقول الآخرين ،

ولا حتى فى عقل الحالة .

ومضت تحقق مع حلمى وتسأل وتدقق عن الأسباب التى

تدعونا للذهاب وحلمى يحاور ويداور ، والرئيس يبتسم ابتسامة

من فقس الفولة ، ونحن ساكتون ..

أحيانا يفيق الانسان فيجد نفسه متجها الى مكان معين ، هكذا ،

بلا وعى أو تفكير . وقد جعلنا سـؤال الرئيس نفيق . وحين أفقنا

كان كل شىء امامنا له سبب . الحالة ذاهبة لترى ابنها ، والقارب

يتحرك لأن الريح تدفعه ، وحلمى جرحت جبهته لأنه ارتطم

بالصارى . أما نحن ، فلماذا نحن ذاهبون ؟

رغما عنا رحنا نسأل أنفسنا ، لأول مرة ..

ولم نجد جوابا معقولا أو مقبولا . كل ما وجدناه كان احساسا

كبيراً لا يترك لنا مجالا للتفكير أو السؤال . احساس ان شيئاً

هائلاً مؤلماً لا بد قد حدث هناك وأننا يجب أن نكون بالقرب مما

حدث .

وانتهى نقاش الحالة مع حلمى حين ارتفع صوتها وكله غضب :

- بقى تموتوا أرواحكو كذب فى نصب . لا أنتم فدائية ولا

حرس ولا حاجة ورايحين تموتوا أرواحكو . انتو مالكوش أمهات .

والنبي ياريس أعمل معروف رجعهم . رجعهم أعمل معروف .

تكسب ثواب ماتخليهم يهوبوا على البر . الهى ما تحرق قلب أم

على ولدها يارب .

وقال الرئيس :

- ما تنعيش نفسك يا أمى . . الى عقله فى راسه يعبر روف

خلاصه . لازم فى نيتهم حاجة . خليهم ياستى كل حى فى سكتة .

وكان يقول الجزء الاخير وهو يقف ويتمط ويثئاب . ولكنه

كف عن تناوبه وقال بارهاق كثير : بصوا . .

واتجهنا كلنا الى حيث أشار . وهناك . . عند نهاية الأفق ،

وفى ضوء الفجر المشبع بالبرودة . كانت توجد غمامة كثيفة داكنة

فيها أضواء قليلة صفراء معطوبة تكاد تدبل . .

وقال الرئيس : أهه . . خلاص . . وصلنا .

وتركت الحالة ماكانت تهمس به لحلمى وقالت بفرحة منفجرة :

- والنبي ؟! والنبي يا خويا : الهى يخليك لشبابك ، الهى

يسعدك .

وفى الحال انتفضت على وجناتنا عروق . وفى الحال

مضت تدق ، شيئاً كدق الحرب ورحنا ننظر وقد تركزت أرواحنا
فى أبتصارنا وامتلأت صدورنا بدفء مفاجيء ، ورغم احتجاجات
الرئيس وصرخاته وتعايلات انقارب وقفنا جميعا ، وتكاتفنا
لنتساند ونشامل الغمامة الرمادية البعيدة ذات الأضواء . كانت
رهيبة كئيبة ، كنأموسية غامقة مسدلة على مجروح . مستحيل أن
تكون نأموسية مسدلة على مجروح . لا بد هناك أناس ، مصريون ،
لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا كلهم أبدا . . . أبدا . . .

انفعالات تفور وتنسكب ، والرمادية تختفى لتأخذ مكانها
سمرة . أرض سمراء أوسع من السماء . والغمام ينقشع فى أذهاننا
ويبدو وجه الشمس . أجمل شمس . وعلى ضوئها تبدو ملايين
السحنات التى رأيناها طوال الطريق ، وكأنها وجه عملاق كبير
مصنوع من ملايين الوجوه ، وعلى رأسه مليون طاقية ، ومليون عمامة
ولاسة وكوفية ، والعدو أيضا هناك ، وراء الغمام ، عدو بشع
كثير ، ونحن القادمين قبضة ، لماذا لا يأتى كل الناس ، لماذا لا يتحرك
العملاق كله وينقض ؟ متى يتحرك العملاق ؟

وأقوى من أى انفعال وأعظم ، كان شغفنا اخارق أن تنتهى
المسافة ، ونصل الى هناك ، ونزيع لفافات الغمام لنرى ماتخفيه . .
وفطنا بعد وقت الى أن الرئيس يتكلم ويقول :

- لغاية هنا وما أقدرشى أتقل ولا خطوة . الشط ملبان

مدافع ودواهي • انتم بقى تتوكلوا على الله من الناحية دى البحيرة.
مش غريقة • دى لحد الركبة بس • تخوضوا من هنا على طول •
ح تطلعوا جنب التربة • الصراحة كويسة وبزمتى ودينى لو كنت
أقدر كنت وديتكرو انما العين بصيرة واليد زى ما انتو عارفين ••
أتوكلو على الله •

ووقفنا برهة • تلك البرهة التى تسبق العميل الخطير •
الشاطيء أمامنا هادىء هدوء مريباً كهدهوء البركان قبل اندلاعه ،
والغمام كثيف يحجب كل شىء •• والخط الممتد أمامنا لا بد كنه
فوهات بنادق ومدافع ، والسماء كأنها تدوى بأزيز العشرات من
قاذفات القنابل •

بل سمعنا بأذاننا طلقات رصاص •• بعيدة ولها أنين •
وقفنا برهة وترددنا • تلك هى اللحظة الحاسمة • اللحظة التى
أدخرها كل منا ليختبر نفسه وشجاعته • هناك حيث كنا نعيش
لم يكن أحد يستطيع أن يميز بين الجبان وبين الشجاع ، فكلامنا
متاح له أن يعيش • حتى الشخص نفسه لا يستطيع أن يدرك
معدنه • فى لحظة كذلك يعرف الانسان نفسه ، واللحظة حادة
وفاصلة ، وقلوبنا تدق ، والرئيس طوى القلع ، وأرجلنا مثبتة على
حافة القارب ، وعيوننا ترقب الشاطيء ، وأجسادنا متقاربة ،
ونظرات مختلصة يصوبها الواحد الى نفسه والواحد الى جاره •

والبرد قد اشتد فجأة . ولم نعد ندرى أحو صادر من البحيرة ، أم
من أعماقنا . والسماء تبهت وتبهت ، وطيور النورس تنقض على
سطح الماء ثم تعود وترتفع وفي منقارها سمكة ، وتكاكى وتتقاتل ،
والصوت الذى تحدثه هو الوحيد الذى يسمع .

وقطعت اللحظة تمتة الرئيس :

- أما وليه غريبة . طب تقول كتر خيرك .. ثم ارتفع صوته
أكثر :

- مش من هنا يا ست .. خدى يمينك شوية لحسن الحته الى
قدامك غريقة .

وأدركنا أن الحالة غادرتنا ومضت دون أن تفتح فمها بكلمة ،
وكادت تصبح على مرمى البصر . تخلص الماء ، وتنمايل ، وتتوقف
برهات ، ولكنها لا تتلفت ، ولا تكف .

وارتفعت أصواتنا : استنى ياخالة .. استنى شوية ..
وفوجدنا بها تقف وتستدير إلينا وتقول :

- لاء .. روحوا روحوا أنتم بقى . مع السلامة .. والنبي
ينوبك ثواب ماتسيبهم ياريس .. روحوا أنتم بقى .

واستدارت على عجل ، وأسرعت كالملهوفة الخائفة أن يفوتها
قطار ، وأخذ سواد ثيابها يختلط بالضباب والشحوب ، ويقترب
من رمادية الشاطئ .

ومرة أخرى دوت فى آذاننا طلقات الرصاص البعيدة التى تصدر
عن مكان غامض .

ورغم كل ما كان يدور فى رؤوسنا من خواطر واحتمالات ،
نحن لم ندر لماذا اسقطناها كلنا فجأة ، وركزنا انتباهنا ، وكأننا
أطفال سذج ، على يد حلمى التى كانت وقد عادت تتحسس مكان
الجرح بطريقة تلقائية غريزية لامت الى عقل أو منطق .

وخبط الرئيس بكفه على خشب الصارى وقال :
- هيه يا سيادنا .

وقال حلمى : أحسن طريقة نستنى لما النهار يطلع ..
وسمعنا طرطشة الماء ، وأيقنا ان واحدا لا بد قد هبط . وقال
حلمى :

- اهم شيء ان أحنا ما نندفعش . قليل من العقل .
وطرطش الماء مرة أخرى وهبط واحد ثانى . وقال حلمى
بعضبية :

- هو أنا بكلم مجانين . ماتفهموا أنا بقول ايه ..
وهبط الثالث ..

وضرب حلمى الهواء بيده وقال :

- هى شطارة يعنى .. طب هه .. تم هبط ..

وواحدا وراء الآخر رحنا نخوض فى الماء وقد انتظمنا صف متباعد
لوحداث وكأننا أصابع عملاق كبير تتحرك فى اتجاه الشاطئ ،

وكل ما يمتلأ ان ننتزع أرجلنا من الماء والطين . وندفع يدنا تفرق
الماء والطين ، وابيحيرة تشخشع حولنا . والنورس ينفض
ويسنغيث ، والماء يتغير لونه وترتسم على سطحه الدوائر . والجم
يزخر بشعشعة ماقبل الشروق . والنجوم قد اختفت من السماء
ومن البحيرة . ولم يعد هناك سوى نجمة الفجر . وفوق قاهرة وراء
الستار تجذبنا الى الجرح الكبير وتعشينا .

قلاع المدينة



obeykhan.com



يكون من المستحيل أن يفقد الانسان ساعة يده .
فهو ، اذا خلعيها لا بد يضعها في مكان يشق فيه ،
واذا ارتداها ، فلها جلدة أو (أستيك) يطبق

على معصمه ولا يستطيع أمهر نسال أن يفكه . ولهذا فأغرب ما قد
يحدث لانسان أن يقلب يده ليعرف الوقت فلا يجد ساعته في المكان
الذي تعود أن يجدها فيه . هو حينئذ يقول لنفسه : لا بد أنني نسيتها
في مكان ما ، ولا بد أن يتذكر أين ، فالأمكنة التي يضطر الانسان
لخلع ساعة يده فيها أمكنة محدودة جدا ومن السهل تذكرها . وهذا
بالضبط ما حدث للقاضي . ففي الجلسة دفعه الملل من
الرافعات الطويلة ومناكفات المحامين الى النظر في ساعته ،
وفوجيء حين لم يجدها . وبينما كان محامي المدعى عليه
يسوق دفعا فرعيا كان عقل الاستاذ عبد الله القاضي يعمل
بسرعة فائقة ليتذكر أين يمكن أن يكون قد نسي الساعة . وخطر له
احتمال أكيد . . أن يكون قد تركها في عجلة الصباح فوق التسريحة
في حجرة النوم ، ولكنه لم يطمئن الى الخاطر ، وقرر أن يسأل
فرغلي الحاجب . وسؤال فرغلي هو أول ما يتبادر الى ذهنه حين ينقصه
شيء أو يحتاج الى شيء أو يشكو من شيء . اذا لم يجد القلم ففرغلي
هو المسئول ، واذا تاه دوسيه فهااتوا فرغلي ، واذا كان لديه صدادع

فأول من يعلم هو فرغلي . ورفع الجلسة أمر سهل . كان محامى المدعى عليه لا يزال يفصل فى أدفع الفرعى . وحدث أن توقف ليبتلع ريقه وفى الحال قام القاضى واقفا وانتبهز الفرصة وقال : رفعت الجلسة . وانتفض كل من بالمحكمة واقفا بينما مضى المحامون يتهامسون ويتساءلون فيما بينهم عما يمكن أن يكون السبب ، وهل لبلاغة محامى المدعى عليه علاقة برفع الجلسة يا ترى ، أم أن المحكمة أرادت أن تستشير قانون عقد العمل ؟

وحين أصبح الاستاذ عبد الله فى حجرته كانت يده تدق الجرس . وجاء فرغلي قبل أن يدق الجرس . ورمقه القاضى فوجده كالعادة منتصبا أمامه فى أدب وقد صنع من أعوامه الخمسين عامودا حيا لا انحراف فيه ولا اعوجاج ، فكرشه قد شفته تأدبا ، وطربوشه قد مال الى اليمين فى اتزان وقور حتى أصبح الزر فوق الاذن اليمنى تماما وأطرافه تداعب أعلا الاذن ، والوجه جامد كله احترام ، والرأس معوجة قليلا الى أمام لتستطيع الاذن أن تلتقط أدق الهمسات واليدان مضمومتا القبضات متحفزتان لأية إشارة ، وليس هذا كل شيء ، فأفندم تعقب الوقفة ، وتخرج كل أفندم مثل الاخريات ، فيها خنافة تدل على التواضع وخفوت يدل على الاستكانة ، وقصر يدل على استعداد تام للقيام بأية مهمة .

- أفندم ..

ورمقه القاضى . وتعجب . وسأله عن الساعة . وانتفضت فتل زر الطربوش واضطكت بجداره الاحمر فى عنف ،

ويعترض على ينبغي نقيب ناد أنه رأى الساعة أو أنه يبد علم . وكان الأستاذ
عبد الله يتوقع اجابته تلك . اذ أن غرضي لا يمكن أن يكون قد رأى
الساعة أو أنه يبد علم . كل ما في الامر أنه كان لا بد أن يسأله حتى
يؤثر نيقول لا .

وأيقن حينئذ أنه لا بد قد نسيها فوق التسريحة . في حجرة النوم .
وحين عاد الى البيت كان أول ما فعله أن ألقى على التسريحة نظرة
خاطفة . وانقبض حين لم يجد الساعة فوقها . وأيقن تماما أنها
لا بد قد ضاعت أو سرقت . من أين جاءه ذلك اليقين ، لم يكن يدري .
لعله تشاؤم كامن في النفس لا يبرز الا في أوقات مثل تلك . لعله
ونهم . ومع هذا انطلق يبحث عنها في الادراج والكومودينو والدولاب
وتحت المكتب ، ولعل مبعث حاسمه للبحث كان فقط لتكذيب ذلك
اليقين المفاجيء الذي انتابه وأكد له أن الساعة قد ضاعت مافي ذلك
إدنى ريب .

وقلب الأستاذ عهد الله البيت رأسا على عقب دون أن يعثر للساعة
على أثر . وجلس .

كان أثناء عملية البحث قد خلع بنطلونه وسترته وبقي بالقميص
والخذاء والجوارب ليستطيع الانحناء والنظر تحت الفراش والكراسي .
واكبس المخدات . وكل تلك الامكنة التي ما أن يضمع من الانسان
شيء حتى يتبادر الى ذهنه على الدوام انها لا بد تحت كنبه أو كرسي
أو فوق دولاب . وفي الغالب لا يجد في تلك الاماكن سوى اكوام

الغبار والعناكب ، ومع هذا كلما ضاع منه شيء بادر اليها ، وكأنه
مخازن أمل يبقئها الانسان ليلجأ اليها حين يخاف أن يستحوز عليه .
اليأس .

جلس الاستاذ عبد الله على الكرسي ، ووضع ساقا عارية بيضاء فوق
ساق ، وراح يفكر ويستغرب .

وانسان مثل الاستاذ عبد الله تعترضه مشاكل من كل نوع ولون ،
ولكن ، أن تضيع ساعة يده ، مشكلة غريبة ربما لا تحدث - اذا
حدثت - الا مرة واحدة طوال حياته .

وكان للمشكلة وجهان . فمن ناحية كان ضياع الساعة حدثا ،
ضخما يطرق حياته التي أصبحت مملة ورتيبة . ثم أن تختفى
الساعة من البيت ، بل من حجرة لها جدران أربعة صماء شيء يجعل
من المشكلة لغزا كتمارين الهندسة المستعصية يحلو له أن يحله .
ويجهد فيه عقله .

أما الوجه الآخر للمشكلة فهو الوجه العادي لها ، اذ كان منقبضا .
لضياع الساعة ، لا لأنها أثرية ، أو ذات قيمة ، أو هدية حبيب ،
أو شيئا من هذا القبيل ، أبدا ، كانت ساعة عادية جدا ، لا ذهب ،
فيها ولا بلاتين ، (أنكر) ١٥ حجر كان قد اشتراها قبل الحرب .
وقضيت معه سنن الحرب وبقيت ملازمة له بعدها ، بقيت كالشريك
المخالف ، كل يوم لها حادث ، زميلك ومسح وزجاج وتروس ، حتى
صرف عليها أضعاف ثمنها وزهق منها وأصبح منظرها يثير . . لم تكن ،

ثمينة اذن ، ولكنه ما كاد يوقن أنها ضاعت حتى انقبض . ان الانسان لا يعرف قيمة انشئ الا اذا فقد ، طالما هو معه فهو معتاد عليه . ان قد يكون ضيقا به ، ولكنه ما يكاد يضيع حتى يحس الانسان وكان جدارا في نفسه قد انهار ، وتبدأ حينئذ قيمة الشيء الحقيقية تأخذ مكانها في نظره .

كان منقبض . لو كان هو الذي ألقاها بيده من النافذة لما أحس بلمحة آسف ، ولكن ضياعها هكذا عنوة ، ورغما عنه شيء يستثير الضيق والتجدي .

كيف تضيع الساعة من فوق التسريحة بكل بساطة ؟ القيمة المادية هنا لم تكن ذات وزن . فالاستاذ عبد الله على كل حال لا يمكن أن يؤثر في مجرى حياته ضياع ساعة . هو رجل مبسوط ، بل كان طول عمره مبسوطا . ولد مبسوطا ، وتعلم مبسوطا ، حتى وهو طائب في كلية الحقوق كانت له عربة «توبولينو» صغيرة ، وكان والده المرحوم على قيد الحياة ، وكان ينفق عن سعة وكان وكان .

انه قاض ، ولم يتزوج بعد ومع هذا فشقيقته فاخرة الاثاث ، وحياته مليئة بالارقام ٣٤٤٥، ٢٩٩٨٧٦، ١٠٠٣١، ٦٦ ، ٨٣٤٥ وهي أرقام عربته وثلاثته وبوليصة التأمين على حياته ، وشقيقته ورقم حسابه في البنك .

ولا يتسرع أحد ويخمن أن الاستاذ عبد الله فاحش الغنى . هو

رجل متوسط الحال ، بل يكاد يكون متوسطا في كل شيء . فهو ليس طويلا . ولا يمكن أن تقول أنه قصير ، وكذلك لا هو بالرفيع أو التخين . ولا بالابيض أو الاسمر . باختصار اذا أخذنا مائة رجل من جميع انحاء العالم وأخذنا متوسطهم في الطول والوزن والبشرة لوجدنا أماننا الاستاذ عبد الله . . حتى الشاي ، تقول مدام شندى وهى توزع السكر : كام حته يا عبد الله بك ؟ وفى العادة تستدرك نفسها وتقول : آه . . أنا عارفة . . انت بتحبه مضبوط . . حته ونص . . مش كده . . ويبتسم هو حينئذ ويقول وهو يستعد «للتربيت» فى البريدج : انتى عارفة يا مدام . . أنا راجل معتدل . ويضحك الموجودون وكأن الأمر نكتة ، فنكت القاضى هى الأخرى دائما مضبوطة ومعتدلة الحلوة .

وليس معنى ذكر البريدج ومدام شندى أنه مغرم بيتهما أو مدمن على الذهاب اليه . ان زيارته لعائلة شندى ليست بالكثيرة التى تضايق ولا بالقليلة التى تجلب العتب ، أنه أيضا فى هذا المجال «جنتلمان» كما هو فى أى مجال آخر . جنتلمان له ابتسامة دائمة يتحدث بها الى الغرباء ، ولا يبدأ فى ازالة ما بينه وبينهم من كلفة الا اذا بدأوه هم . وحين يتحدث ، يتحدث فى بطاء قليل ، وحديثه دائما متوسط العمق ، فهو لا يحيط بأى موضوع احاطة كاملة ومع ذلك لا يترك موضوعا دون تعليق اذ لا بد أن يقول شيئا ، ولو كلمة ، ولو نوعا من جبر الحاطر .

وبمثل ما نكون تعاملنا الحياة ، والحياة تعامل الاستاذ عبد الله فى
اعتدال على الاخرى ، فلم ترفعه مرة فجأة ولم تنو به ، فمن الكلية
الى انيابة الى المحكمة ، كما قدر لنفسه وكما قدر له أبوه من قبله ،
كانقطار الذى تركبه فى القاهرة وأنت متأكد تماما أنه بعد قليل
سيكون فى بنها ثم فى الاسكندرية .

أجل ! ماذا يفعل ضياع الساعة فى حياته .

كان المسألة من التعقيد بحيث يستدعى حلها سيجارة . والاستاذ
عبد الله لا يدخن ولكن لديه علبة سجائر يحتفظ بها فى درج المكتب
تيعزم منها على الزوار . وفى أحيان قليلة يدخن ، مرة كل شهر مثلا
أو كل شهرين . قام ليتناول سيجارة ، وعاد الى جلسته والى ساقه
الموضوعة فوق ساق . واكتشف بحركته تلك أنه عارى أو يكاد ،
وأسرع يرتدى البيجامة قبل أن يراه أحد ، مع أنه لم يكن فى
الشقة أحدا ، فهو يقطن بمفرده اذ هو أعزب كان قد حدد لنفسه
من الخامسة والثلاثين ليتزوج ، وكان فى الثانية والثلاثين أى باقى
على انقضاء الحكم الذى أصدره على نفسه ثلاث سنوات . أما لماذا حدد
الخامسة والثلاثين لذات ليتزوج فالامر لا سر فيه ولا يحزنون ، اذ
هو قدر أنه سيعيش سبعين عاما ، ربما لأن والده توفى وهو فى السبعين
وأمه فى الثامنة والستين ، وجده فى الخامسة والسبعين ، ربما هذا ،
وربما قرر أنه سيعيش حتى السبعين عاما لسبب لا يدريه أحد .

ولهذا قرر أن يتزوج في منتصف عمره تماما . وهو ليس أبله .
كما قد يظن البعض ، اذ ان كثيرا من الناس يقررون أشياء خطيرة
في حياتهم اعتمادا على أشياء غامضة لا أساس لها في عرف أو عقل .
مثل تلك

دخل الاستاذ عبد الله في البيجامة ، وعاد يجلس على الكرسي .
الهزاز الموضوع بجوار الراديو الضخم ، جلس وهو قد استبعد .
نهائيا ان يكون جعفرى هو الذى أخذ الساعة ، فهو قد يشك في
نفسه ولكنه لا يستطيع الشك في جعفرى أبدا . هو خادم العائلة .
أبا عن جد . بل يقولون أن أحد أسلافه مات وهو عائد من القرن .
بصينية « حمام بالفريك » ، التى كانت طعام جده المختار . وضمن .
ما ورثه الاستاذ عبد الله كان جعفرى . وهو انسان طيب جدا ،
ساذج جدا له ولاء الكلب واخلاصه . هو من أولئك الناس الذين لم
يكتفوا بالقناعة بمصيرهم بل عبدوا ذلك المصير وبجلوه . كلمة
« سيدى » عندهم لها قداسة ووقع ، وحاجة السيد كمحاجة الله أرفع
من أن تمتد اليها يد . كان معه في بيت المنيرة وحين انتقل الى سكنه
الحالى فى شارع الجبلية انتقل معه . وكان يقيم فى الشقة . وكان
هذا سبب ضيق الاستاذ عبد الله منه .

لم تكن هناك أسباب واضحة لهذا الضيق ، فجعفرى أمين نظيف دقيق
لا يكاد يتلفظ طوال اليوم بكلمة ، والاستاذ عبد الله يحب الصمت ،
وإذا كان هناك كلام فليكن باعتدال ، وليكن أيضا فى المليون •
تضايق منه وكان ذلك من عامين ، لان جعفرى كان حبر عشرة ،
اذ هو يخجل منه وهو خادم العائلة الذى شهد أباه وشهد أمه
والذى رآه وهو طفل وحضر كل ما أحرزته العائلة من أمجاد ، فلم
يكن من اللائق ، ولا مما يرضى مزاج الاستاذ عبد الله الحساس أن
يدخل عليه مرة مثلا ومعه فتاة • وكان الوقت قد حان ، وسنوات
العمر تمضى كالرياح ، والثلاثين قد ولت ، وحياة العزوبية تتسرب
من بين يديه دون أن يفيد منها شيئا • والاستاذ عبد الله كان
عسقيما ، لا لان غير الاستقامة حرام ، أو لان هذه (الاشياء) لا
تصح ، أو أو الخ ، ولكن لانه ذات مرة سوداء اشترك مع طالب
زميله فى الكلية ، والتقطا فتاة من الشارع فى عربة زميله الكبيرة
وأخذاها الى طريق الاسكندرية ، وروع عبد الله ثانى يوم بأعراض
خطيرة ، وصحیح أنه عولج وشفی تماما ولكنه أقسم بينه وبين نفسه
أنه لن يقرب امرأة أبدا الا اذا تزوج • كانت أية امرأة فى نظره عبارة عن
ميكروب يرتدى جوارب نيلون ويضع على شفتيه روج ويلدغ كل من
يقترّب منه • وكان ممكنا أن يدفعه هذا للزواج ، ولكنه كان قد قرر
منتصف العمر ليفعل هذا • وظلت الخطة سارية بنجاح تام الى ما

بعد الثلاثين وقد بدأت الخامسة تطل برأسها . وحين تار الاسد .
عبد الله على نفسه وحياته وصمم أن يودع - كما يقولون - حياة
العزوبية . من أجل هذا حث جعفرى على الزواج ، بل ساعده . ونا
تزوج أخبره أنه لا يريد طوال اليوم ، عليه فقط أن يأتى فى
الصباح . ويغادر الشقة بعد أن يعد له الغذاء . وكل هذا ليخلو له
المسكن ويصبح حرا يستطيع أن يودع عزوبيته كما يشاء .

وبرغم أن الشقة خلت ، وذاق حلاوة الوحدة التى كان ينشدها ،
وانزاح جعفرى بوجوده اندائم ، الا أنها بقيت خالية الا منه ، فقد
كان يظن أنه حالما يذهب عنه الرجل ستمتلئ الشقة بالنساء ، كيف
لم يشعب نفسه وينكر . ولكنه اضطر الى التفكير ، فهو قد أمضى
فترة طويلة من شبابه دون احتكاك بالنساء حتى تغلبت رغبته
العارمة آخر الامر ، ونسى حكاية الميكروب ، وقبل الامر شكلا
وأصبح على استعداد للمجازفة ، ولكن ، أين المرأة ؟ عزله طوال
تلك السنين كانت قد حالت بينه وبين الطرق التى تقبل منها النساء
ثم أنه كان قد أصبح قاضيا فى تلك المدة ، صحيح أنه شاب لا يزال
صغير السن نوعا ، ولكنه قاض ، عليه (أو هكذا خيل اليه) أن
يحافظ على كرامة المنصب ، ولا يدع أحدا يأخذ عليه مأخذا أو يضبطه
فى موقف حرج . ثم أنه لا يستطيع أن يفضى برغبته لاحد ، وكل
أصدقائه ومعارفه رجال كبار محترمين ، مستشار فى مجلس الدولة .

وكيل نيابة درجة أولى ، محام على الاقل من محامى النقض والابرام .
أساتذة فى الجامعة ، المنيراوى بك صاحب محلات الموبيليا الذائعة
الصيت . صلاح شوشة ابن اعتماد هانم ، أناس لا يمكن أصلا
التحدث معهم فى أمر كهذا . حتى زملاؤه من دفعته ، والذين كانت
عربيته الصغيرة سببا من الاسباب التى منعتهم أن يعرف منهم سوى
عدد قليل محدود ، حتى هؤلاء الزملاء ، تفرقوا ، وتزوجوا وأصبح
لهم أولاد ، وإذا قابل أحدهم تبدو المقابلة أول الامر عاصفة ذات
خيل وعناق وسلامات ، وبعد خمس دقائق يكتشفان أن كل ما
بينهما من كلام قد انتهى ويصبح الحديث مجرد ترديد أجوف :
ل . . . والله زمان . . . وحشتنا . . . فين أيامك ، أو إعادة مكررة
لذكريات تاريخية قديمة عن مدرس كانت له طباع شاذة .

هذا عن الرجال . .

أما النساء . فكان مقطوع الصلة بهن تماما . كانت هنالك
قربياته . بعضهن كان لا يطيقهن شكلا ولا موضوعا . وبعضهن
جميعات كان يخاف منهن ، فهن أما متزوجات أو طامحات فى الزواج ،
والعين كانت عليه وهو العريس (السقع) الذى يسيل له اللعاب .
غير أنه كان قد صمم تصميميا لا نقض فيه ولا ابرام ألا يتزوج من
قربياته أبدا ، ولو قطعوا رأسه ، أما لماذا ، فهو نفسه لا يدري سببا
في هذا التصميم . كانت أية محاولة للتقرب منهن ممكن أن تؤخذاذن على

محس الاستحسان وقد تنتهى بورطة ودبلة ، وقد تنتهى بزواج .
أما غير قريباته فكانت هناك مدام شندى . أرملة فى الخمسين
معالجة بالبريدج الى حد الجنون ، ولها أصدقاء من كبار رجال الدولة
ولها صالون ومجلس . وتجيد الحديث وإدارته ، وتجيد الابتسامات
الفاهمة والاصغاء الى المتاعب . سمراء غامقة السمار تكاد تكون
صعيدية من قلب الصعيد وتقول عن نفسها أنها تركية ، وكثيرا ما
تزورها نساء متزوجات ، ولكن كل منهن شخصية قائمة بذاتها ،
وصحيح أنه يتحدث معهن كثيرا ويناقش شتى الموضوعات ويعلق
أحيانا على حذاء أنيق ، أو تسريحة جديدة ، ويقص عليهن طرائف
مما يحدث له مع المتهمين والمفتشين والمحامين ، ولكن حديث مثل هذا
شئ ، وحديث خاص ينتهى بلمسة أو بقبلة شئ مختلف تماما ،
فهم ليس وسيما ، وهو يعرف أن هذا غير مهم فى الرجال ، ولكنه
يعرف أيضا أن وجهه كالصفحة البيضاء لا معالم بارزة فيه ، ملامحه
عادية جدا ليست جميلة أو قبيحة ، ولا تثير إعجابا ولا تبعث على
الاشمئزاز ولا يحس لها الناظر بأى انفعال . ليتنه كان قبيحا .
كثيرا ما يتمنى لو كان مشوها حتى . ثم أنه عالم تماما بخفة دمه ولباقتة .
فهم يرى الناس يتحدثون ، ويأتون فى كلامهم بأشياء تبرق وتضىء
الكلام ، وتضىء وجه السامع بابتسامة أو ضحكة أو لمعة أسي ، وهو
ينصت الى أناس وهم يحكون فيجد لحكاياتهم وقعا لذيذا وكأن

كلامهم محلى بالتوابل وفاتحات الشهية . وكان أحيانا ينصت الى نفسه وهو يتحدث ويحاول أن يجد شيئا ، شيئا واحدا فقط ، كلمة ذكية أو اشارة مليحة ، أو حتى طريقة طريفة لرواية ما يقول ، فلا يجد . كلامه مجرد كلام . يسمعه الناس اكراما له ، واكراما ، لللفظة القاضى اللاصقة به . لا يعنى هذا أنه كان عيبا اذ أنه لم تخنه الكلمة أبدا . ليتهاخائته مرة ، اذن لحدث لكلامه شيء غير عادى .

لهذا فحديث خاص الى واحدة من السيدات فى صالون مدام شندي شيء لم يخطر له على بال ، خاصة وهو لم يتعود أمثال ذلك الحديث ، ولم يجرب مرة واحدة ايقاع امرأة . وكان طبيعيا اذن أن يبدو فى الصالون مؤدبا خجولا يملؤه الرعب من النساء المنبثات من حوله . وما أن ذهب جعفرى وبدأ يثور على نفسه ويكبت الثورة أحيانا ويطلقها حتى بدأ يتقدم ثم يتأخر ويعود الى الاقدام ، وشتمته واحدة مرة ، وقبلت واحدة أخرى دعوته الى السينما ، ورحبت بسهرة فى الاوبرج ولكن ما كاد يلمس يدها حتى انسحبت وتركته يكاد يغمى عليه . وأخيرا دفعتته الحاجة الى تجربة مدام شندي نفسها . ولم يجد لديها حماسا كثيرا ، وكذلك لم يجد معارضة تذكر ، وكانت استجابتها له فيها روتين وتعود ، وعاملته كأنه طفل كبير شقى . وظل بعدها ثلاثة أيام يكظم خجله واشمئزازه ، ولم ينس أبدا أنها

فى الخمسين . وأنه فعل هذا وهو قاض .

والانسان حين يفشل لا يسكت . انه لا يكف عن المحاولة أبدا
وبعضى الوقت قد يصادفه النجاح . وهكذا استطاع أن يستصحب
نانا الى الشقة بعد مضى ستة أشهر على خروجه معها .

والخروج مع فتاة مثلها كان بالنسبة اليه أمرا صعبا ، يؤديه
كالضريبة الباهظة المفروضة عليه ، فهو لا بد أن يختار مكانا بعيدا
عن القاهرة ، ولا بد أن يذهب اليه قبلها ليتأكد أن واحدا من معارفه
أو أصدقائه أو المحامين لا يعرفه ، ثم يستصحبها اليه ، ويظل فى
قلق عظيم وهو جالس معها ، ولا ينزاح الهم عن صدره الا حين تهبط
من عربته بعدما تقرصه فى يده قائلة : باى باى .

وأخيرا جاءت معه ، وكان نصرا أن تجيء ، ومع هذا لم يستطع
معهما الكثير ، فهي فتاة ، وهو خجول ، ولولا أنها لا تعد جميلة لما
كانت قد رضيت بالمجيء ، ودعك من الهدايا والتحف ، وهكذا
ظلت العلاقة بينهما فى أخذ ورد حتى ذهب الحجل ، وقل العناد ،
وبدأت تنمو عواطف مبهمه تجاهها حتى فكر ذات مرة أن يخطبها
فهي بنت ناس ، ولطيفة ، وتحب القانون ، ولكن مسألة قبولها
المجيء معه كانت تقض مضجعه وتجعله يرفض مبدأ الخطوبة رفضا
باتا . غير أنه ما لبث أن صرف النظر عن التفكير فى الخطوبة
والزواج ، فقد استطاعت علاقته بنانا أن تعلمه أشياء كثيرة ،

ويكفى أن تعرف فتاة واحدة لتدرك منها الكثير من أسرار الفتيات
أجمعين ، وتصبح جسورا بعض الشيء ، وتستطيع اذا آن الأوان أن
تشى على ذوق صاحبة لها ، ثم تنتقل من صديقة الى صديقة ، وتتعلم
أكثر ، وتنمو لديك الخبرة ، وتستطيع أن تجيد نوع الكلام الذى
يحببه الفتيات ، وتعرف دقائق الفروق بين لون فستان ولون فستان
وكشكشة وكشكشة ، وأين يكمن السكس آيبل فى نظرات
جريجورى بيك ، وتستخدم خبرتك تلك فى الحديث ، ثم لا يعدم
الامر بعض القفشات والنكات والكلمات ذات المعانى ، وابتسامات
مطعمة بدعوات ، ونظرات آخر ما يقصد بها أنها نظرات ، واذا بك
قد وصلت ، واذا بالاستاذ عبد الله يصبح لديه ثلاث أو أربع فتيات، واحدة
لدعوات السينما ، وواحدة كانت تعلمه الرقص أو على الاصح تجدد
معلوماته عن الرقص فاخته كانت قد علمته وهو لا يزال (صبيا)
وواحدة تأتى وأخرى تذهب ، حتى أنه ذهب الى كباريه مرة وتعرف
هناك بشلة ، فوجيء أن بينها أكثر من واحد من الاسرة القضائية ،
وتعرف براقصة أو على الاصح هى التى عرفتة بنفسها ، وجلست
معه وفتح لها زجاجة (السينالكو) ذات الثمن الغالى ، وفتح المحفظة
وأصرت هى وهما عائدان منتشيان أن تفتح بنفسها باب الشقة .
مستحيل أن يكون جعفرى هو الذى أخذ الساعة .

لابد أنها شهت .

كان احساس الاستاذ عبد الله بالفرحة لانه وجد موضوعا عجيبة
يملاء حياته ، يكاد يطغى على أى احساس آخر ، أحس أيضا أنه لا
يستطيع السكوت على هذا الموضوع الكبير وحصره فى نطاق تفكيره
الخاص . أحس أنه لابد من مناقشة ما يدور فى رأسه من خواطر
وافتراضات مع أحد ، لابد من شرف ، وقام الى التليفون وطلب نقابة
الممثلين .

وكان من يراه وهو يدير القرص ، والحماس يطل من عينيه
يحسبه يود مفاجأة صديق بخبر مثير أو أنباء سارة . كان الخط
مشغولا ، ومع هذا ظال يدير القرص وحماسه لا يفتر . انه لن يجد
فى العالم كله من يصلح لمناقشة هذا الموضوع معه سوى شرف ،
ولابد أن شرف فى نقابة الممثلين ، ولابد أن يعثر عليه ، هذا
اللعين شرف ، صديقه مذ كانوا يقطنون فى بيت العائلة فى المنيرة .
شرف أيضا كان يقطن هناك ، ولكنه كان من عائلاتها الفقيرة ،
ولهذا ، ولأمر ما كان الاستاذ عبد الله لا يحس أمامه بأى تعقيد
ولا يخجل أن يقص عليه أدق خلجات نفسه دون أن يحس بكرامته تهان .

أو بتأنيب ضمير : كان يقول له كل ما لا يستطيع قوله لاصدقائه
الاغنياء وأقاربه ، ولهذا فقد كان يحبه أيضا أكثر من كل أصدقائه
الاغنياء وأقاربه . هذا برغم أنه لا يحتل مثله أحد مناصب الدولة
المهمة أو غير المهمة ، فقد ترك المدارس وعمل فى عشرات الاعمال
ثم احترف التمثيل الذى كان يهواه دائما ، وأصبح ممثلا فى الاذاعة
وأدواره كلها قصيرة ، وأطول دور كان ثلاث كلمات ، ورغم ذلك
فهو يعتد بنفسه كفنان اعتدادا كبيرا ، وله آراء فى الفن والمسرح
والحياة ، ومكانه الدائم فى نقابة الممثلين .

ورغم ما كان بين الاستاذ عبد الله وبين شرف من حب فقد كانت
العلاقة بينهما لها طابع غريب نوعا . الاستاذ عبد الله لديه مشاغل
كثيرة ، ولكن ، أحيانا تتبخر كل مشغوليته ولا يجد ما يعمل به ،
وتصبح الدنيا خاوية مملوءة بفراغ متثائب لا نهائية له . حينئذ
يأتى دور شرف . يدق التليفون فى نقابة الممثلين ، وهو التليفون
الوحيد الذى يدق ويطلب شرف الدين . تعالى يا شفشف ، هكذا
كان يناديه الاستاذ عبد الله . ودون أن يسأل شرف من ، يأخذ
طريقه الى شارع الجبلية ، أحيانا راكبا تراما ، وأغلب الأحيان
سائرا على قدميه . هناك كان يجد شقة أنيقة عالية مطلّة على النيل ،
وما مثلجا ، وطعاما ، وعلبا محفوظة ، وأحيانا زجاجات بيرة ،
وكرسيا مريحا يسترخى عليه ليؤدى دوره .

ودوره كان دور المستمع . كان ينصت لصديقه عبد الله وهو يتحدث . واذا تحدث شرف مع عبد الله فلا بد أن يكون الحديث كله عن عبد الله . وأشخاص قليلون جدا هم الذين يستطيع الانسان أن يحدثهم طويلا عن نفسه دون أن يفكروا فى قطع حديثه ليتكلموا هم عن أنفسهم . وكان شرف من هؤلاء ، كان عبد الله يشرق ويغرب ويسرد أدق الحواطر ، والأشياء التى لا تدور إلا بينه وبين نفسه . وشرف ينصت ولا يعمل ، وكان فنانا فى انصاته ، فهو لا ينصت وهو ضيق بالحديث أو متعجلا لنهايته ، ولا وهو فقط متابعا للكلام يهز رأسه وينفخ دخان سيجارته . أبدا . كان ينصت بحماس ، وتبرق عيناه حين يتأزم الموقف ، ويبتسم حين يحتاج الحديث الى ابتسام ويقهقه حين يستدعى الموقف قهقهة ، وتحس وأنت تتحدث الى أنه أنك تحدث انسانا يهمله أمرك ، ويحفل بكلامك مهما كان ، احتفالا كبيرا .

وأحيانا يعثر الانسان على مستمع كهذا تماما ، ولكنه يكون عالما أنه ينصت ويتحمس وينفعل مجاملة له لا أكثر ولا أقل ، غير أن شرف لم يكن من هؤلاء ، كان حماسة حقيقيا ، ومشاركته فى الحديث مشاركة ايجابية ، فهو يستمهل ويستوقف ويناقش ويسأل عن تفاصيل أخرى .

ولابد أن لحظات حديث الانسان عن نفسه تمتعه ويسعد بها ،

خاصة اذا كان لهذا الحديث مستمع كهذا ، لابد ، لان عبد الله كان يحس براحة عظمى بعد هذه الاحاديث . ففي حياته الاعادية كانت تمر عليه اوقات كثيرة لا يرى نفسه فيها سوى انسانا تافها لا قيمة له ولا وجود ، خاصة حين يجد نفسه في مجتمع غاص ، والجميع يتكلمون بانطلاق وانتعاش وهو وحده الذى يخرج كلامه باهتا معقما كالماء المقطر لا طعم له ولا رائحة . كان فى جلساته مع شرف ينطلق ويحس بكلامه يخرج موزونا له ثقل ، وفيه حكمة غريبة عليه ، وبلاغة ، حتى فكر عبد الله ذات مرة أن يشتري جهاز تسجيل ليسجل به أحاديثه تلك ويعود ليستمع اليها بعد ذهاب شرف ، ويسمعها لاصدقائه ومعارفه ، ويريهم أنه ليس به عيب ، وانما العيب فيهم وفى مجالسهم . فى حديثه مع شرف كنا ينطلق ، وينطق بأشياء معجزة ، والا لماذا كان يقسم شرف ويقعد لدى سماعها ويطلب منه أعادتها كما يطلب المستمعون من المقرئ إعادة التلاوة وقد بلغ بهم الاستحسان مداه .

كان يبلور فى أحاديثه تلك كل فلسفته فى الحياة وآرائه فى الناس . والانسان اذا وجد فى حضرة الجماعة وكان عليه أن يدلى برأى فى موضوع فانه فى العادة يقول ماتواضع الناس على قوله ، يفعل هذا احتراما للجماعة أو خوفا منها ، أو استسهالا ، فقد يجره رأى مخالف الى نقاش قديخرج منه مهزوما مهيض الجناح . قليلون

فقط هم الذين يملكون آراء شخصية ، وأقل منهم أولئك الذين يستطيعون الجهر بأرائهم تلك دون وجل في حضرة الناس ، ونادرون هم أولئك الجريئون الذين يستطيعون الذود عن آرائهم اذا هوجمت وأقل القليلون هو من تنفق له الجرأة والمنطق فيستطيع ليس فقط أن يعبر عن رأيه ، ويدافع عنه اذا هوجم ، ولكنه يستطيع فوق هذا اقناع الناس به . نادرون جدا أولئك الناس ، ولكن هذا لا ينفي الحقيقة ، والحقيقة أن كلا منا حكيم في حدود ، ولكن ليس كلا منا قادر على التبشير بحكمته .

وكان عبد الله ، كأي انسان له حكمه استخلصها من تجاربه وما مارسه ، وكان يغلق عليها نفسه ولا يفتحها الا في حضرة شرف ، ولا يبشر بها الا له وحده .

والغريب أنه لم يكن يؤمن بحكمته تلك . كان شرف هو الوحي الذي يقتنع بكل آرائه ، أما عبد الله فكان لا يقتنع بها ولا ينفذها ، ويفضل أن يتبع آراء الآخرين ، فان نعتنق آراءنا عملية في حاجة الى جرأة هي الاخرى .
ودخل شرف . .

كان طويلا نحिला ، له شعر مهوش وملامح طويلة ممطوطة ، تحس اذا ما رأيته أنه لا بد « فنانا » من الفنانين ، له ابتسامة خجولة يحتار

دائما أين ينداريها ، واذا ابتسم برز له ضب صغير لا يكاد يلحظه أحد .

وكعادته توجه الى المطبخ فور دخوله ، وعاد ومعه كوب من الماء المثلج ظل يرتشفه على قطرات ، ثم خلع جاكتته وعلقها على المسند ، وتمدد . ولم ينس وهو يمدد نفسه أن يضع ساقا فوق ساق ، ويتناول سيجارة من العلبة التي قدمها له عبد الله .

ظل القاضى يراقبه حتى انتهى من عملية جلوسه ونظراته ترتجف باللهفة وكأنما يختزن فى جوفه بركانا . . . وكان واضحا أن شرف قد أدرك هذا ، وتعمد المغالاة ، ولكنه نطق أخيرا وقال وهو يحدق فى ملامح عبد الله ويحاول أن يستشف الامر ، وهل هو احساس بالوحدة هذه المرة ، أم حب جديد ، أم رأى طازج عن نشأة الجريمة بين الاحداث .

سما وراؤك يا همام .

فقال الاستاذ عبد الله :

- حصلت أبداع حاجة النهاردة .

- خدت الدرجة الرابعة .

- لا . . . شهرت سرقت الساعة . .

- شهرت مين . . الرقاصة . .

لم تكن شهرت هى الرقاصة ، ولا صديقة أخرى لنا ، ولا تمت

بصلة الى هذا الصنف من النساء كله . انها هدية فرغلى الحاجب .

وبدأت المسألة فى ثورة من ثورات الاستاذ عبد الله على نفسه .
أو بمعنى أدق على صديقاته . لم يكن يستريح أبدا لعلاقاته بين .
كان هناك شىء ما يحد من سلوكه أمامهن ، كان لا يستطيع أن
يطلق نفسه على سجيته أمام نانا أو غيرها ، لابد أن يكون مؤدبا
ولابد من الرقة والكلمة الحلوة ، ولابد من ابتسامة لا تذبل يضعها
فى عروة فمه طوال الوقت الذى يقضيه مع الواحدة منهن . كان
من فرط احساسه بقله مواهبه أمامهن يحاول قدر طاقته أن يكون
خفيفا كالنسمة وأن يرضيهم ما أمكنه ، ولم تحاول واحدة منهن
ارضاء أبدا ، وان حاولت ، كان يحس أنها تفعل ذلك لسبب ،
وأن وراء الارضاء ما وراءه .

وفكر مرة فى شىء جديد على حياته ، لم لا ؟

واصطنع الديمقراطية . ووقف فرغلى الحاجب أمامه فى حجرته
قبل الجلسة ، وظل هو يشكو من أزمة الخدم ، وكيف أن الرجال
لصوص ، والنساء العواجيز متعبات ولا يستطعن العمل . وكان
فرغلى لا يكف عن احناء رأسه علامة الموافقة على كل كلمة ينطقها
القاضى ، بل أحيانا كان يحنى جسده كله ليدل على الموافقة التامة
وفى يوم آخر بدا على القاضى الضيق الشديد وأدعى أمام فرغلى أنه
طرده الخادم الجديد ، وأبدى فرغلى أسفه البالغ ، وراح يصب اللعنات

على الخدم أجمعين ، وعلى ذلك الخادم المطرود بالذات وكأنه كان يعرفه ويعلم أنه جدير بكل تلك اللعنات .

وفي المرة الثالثة قالها القاضي صراحة وسأل فرغلي أن كان يعرف امرأة أمينة مخلصه تقبل العمل عنده . واشترط أول الأمر أن تكون كبيرة فى السن ، وهز فرغلي جذعه مؤمنا على الشرط . ولكن سعادة البيه تصنع تفكيراً عميقاً ثم قال له وكأنه يعدل عن رأيه : الأفضل ألا تكون عجوزة جداً ويستحسن أن تكون نصفاً . وهز فرغلي جذعه موافقاً . ثم عدل عن رأيه مرة ثانية وقال : والا الأفضل تكون شابة تستطيع أن تقوم بشئون البيت خير قيام ثم أن سلم الخدم مرتفع والشقة فى الدور السابع . ولم يكتف فرغلي بهز جذعه موافقاً ولكنه ابتسم هذه المرة ابتسامة المدرك الفاهم المقدر .

وكان اليوم التالى يوم الجمعة ، وهو الميعاد الذى اتفق مع فرغلي على المجئ فيه . وكانت الساعة الثالثة . ودق الجرس . ولم يكن جعفرى موجوداً بطبيعة الحال ، كان قد أدى عمله ومضى ، فقام الاستاذ عبد الله بنفسه وفتح الباب . ووجد ابتسامة فرغلي تملأ فتحته . كان فرغلي اذا ابتسم يفتح فمه ويغمض عينيه علامة الانبساط . وكان يرتدى بدلة ملكية غير بدلة الحجاب ، بدلة لا بد قد أنعم عليه بها قاضى سابق فقد كانت قديمة وواسعة متهدلة لم

تعرف المكوى أبدا طريقا اليها • وكان للبدلة قميص كان يبدو كالجلباب الذى له ياقة لا أول ولا آخر ، ومع هذا يصر فرغلى على احاطتها برباط عنق من كثرة استعماله أصبح كفتلة الدوبارة ، وأصبحت عقدته رفيعة متينة كعقدة الحبل • ابتسم فرغلى وقال :
- الطلب موجود يا سعادة البيه •

ورنت موجود رنيننا حلوا فى أذن الاستاذ عبد الله وقال بلهفة :
- فين ••

- تعالى يا شهرت •

وجاءت شهرت • ودخلت • لم ينظر اليها الاستاذ عبد الله أول الامر فقط ، لمحها • وأحس بخجل حين رآها ترتدى ملاءة لف ، وخاف أن يكون أحد من سكان العمارة قد لمحها وهى داخلة شقته وحين أغلق الباب استراح • ووقفت فى ركن من الصالة قريبا من الباب ، ودخل هو وفرغلى حجرة المكتب • وجلس • وأمر فرغلى أن يجلس ، ولكن الرجل أصر على الوقوف وتشبث • وأصر القاضى على أن يجلس • ومع هذا حين رضى للامر وجلس أحس القاضى بنوع من خيبة الامل وكأنه شك أن يكون قبول فرغلى الجلوس فى حضرته ، ولو بناء على أمره ، يعنى أنه بدأ يتساهل فى احتراماته وازداد اضطرابه وأصبح يكسوه مزيج من الخجل والتردد والحيرة لم يكن قد رأى وجهها بعد فقام ، وانتفض فرغلى لقيامه ، وغادر

الحجرة الى الحجرة الاخرى ، ورمقها بنظرة ، وكان فى نيته أن تكون خاطفة حتى لا تدرك أنه يتفرج عليها ، ولكن نظرتة تلكأت طويلا عند وجهها وكادت الا ترتد لولا أن انتزعها انتزاعا . لم تكن بالصورة التى تخيلها . كانت تبدو كامرأة بلدى مثل غيرها من آلاف النساء . اراة تحس أنها زوجة وأم ولا تبدو عليها أبدا سمة الخادemat . الشئ المحير أن وجهها كان يبدو مختلفا غريبا ، يلزمه أكثر من نظرة ليستطيع أن يحدد ملامحه وليعرف ان كانت جميلة أم عادية الجمال . ولكنه وافق . وخين عاد الى فرغلى سألته عن الاجر . ورفض فرغلى رفضا باتا أن يتحدث فى هذه الماديات ان أعجبته فليعطها ما شاء وان لم تعجبه فغيرها موجود . ومع أنه لم يحس بالارتياح لما قاله فرغلى الا أنه أعطاه سيجارة . وكانت الخطوة التالية هى التخلص منه . ولهذا ناوله خمسين قرشا : أجر المواصلات . واحتج فرغلى بملامحه وما يصحش وعيب وأشياء من هذا القبيل ، ولكنه أخذها وكاد يقبل يده . وأخيرا ذهب . .

كانت لا تزال واقفة فى الصالة وكان هو قد عاد الى حجرة المكتب وجلس فقال لها :

- م تيجى . .

وجاءت ، والملاءة لا تزال ملتفة حولها ، ووقفت تواجهه وتسند

ظهرها الى الباب المفتوح . وعبرها بنظرة أخرى . كانت ملامحها
قوية ناطقة . وكان وجهها مشربا بحمرة . وتحت ستار ملامحها
القوية أنوثة لا تستطيع أن تحدد موضعها . وقال لها وهو
يتعمد الخطأ :

- أسمك عفت . .

فأجابت :

- خدامتك شهرت . .

ولاحظ أن صوتها له رنين انشوى مبجوح يدغدغ الاذن . ثم
انها نطقت خدامتك بلهجة أقرب الى التأدب منها الى الذلة
والاستسلام .

- متجوزة ؟

وسكتت قليلا ثم قالت :

- أيوه . .

- ومخلقة ؟

فقالت :

- بنتين وولد . .

وعاد يرمق وجهها بعيون جريئة لا ترمش ولا تخجل . كان
يبحث عن شيء ما . ذلك الشيء الذى علمته خبرته أن يبحث عنه
كلما التقى بامرأة ، الشيء الذى يعنى أن لا مانع لديها مثلا . ولكنه

لم يجد . فقط فطن الى أنها لا تزال ممسكة بالملاءة ، وقبضتها
شديدة عليها . وسألها ، وكانت الساعة الثالثة :

- اتغديتى ؟

وأنزلت وجهها الى الارض وقالت :

- الحمد لله ..

وفهم أنها لم تفعل ، بل خيل اليه أنها لم تتناول افطارها أيضا
وأمرها أن تذهب الى المطبخ فهناك بقية من طعام ، وغمغت تصر
على أن الحمد لله ، ولكنه ألح وأغلظ ، وحين وجدها لا تعرف مكان
المطبخ قام وأراها بنفسه أين الطعام . وعاد الى الحجرة . وجلس
يفكر . لم يكن يتوقعها هكذا . فيها قوة تلك المرأة . انها غلبانة
وترتدى الملاءة النف ، ولكن ما يضيف على شخصيتها مهابة قل
أن تتوفر لامرأة مثاها . لعلـه ما يصبغ ملامحها من براءة . هل
يستطيع ؟ أنه خائف . ان البراءة تحتاج الى جهود صعبة للتغلب
عليها . وأحس من حركتها أنها انتهت من تناول طعامها . فأتجه
الى المطبخ ووقف على بابه . وكان يود أن يبدأ حديثا

- انتى اشتغلت عند حد قبل كده ؟

- لا .. دى أول مرة

ولم يصدقها . انها تريد أن تبدو فى نظره من ربات البيوت
اللائى دفعتهن الحاجة الى العمل . تمثيلية قديمة . وانتهى عند

هذا الحديث • وكان لا يريد له أن ينتهى • ووجد موضوعا ، وأمرها
أن تخلع الملاءة وكانت لا تزال تلفها حول نفسها • وخلعتها
واحتارت أين تضعها وكل ما فى المطبخ أنيق ونظيف لا تجرؤ على
وضع الملاءة فوقه • ووضعتها على السجادة فى ركن الصالة •
وكانت ترتدى تحت الملاءة فستانا من الحرير الباهت جدا •

وقال لها وعلى فمه ابتسامة مأكرة :

— تعرفى تعملى قهوة ؟

فأجابته وهى تنظر فى وجهه باستقامة .

— سكر ايه ؟

النظرة صريحة • والطريقة التى تنظر بها اليه فيها انوثة قوية .

فأجاب فى ببطء :

— م • • • مضبوط •

وضحك دون سبب يدعو للضحك • وأضاف دون أن يكون فى

نيتة أن يضيف :

— واعملى لك فنجان •

وأجابته وهى مشغولة فى اعداد الكنكة :

— كتر خيرك •

وتملكه ارتباك غير قليل • أحس كما لو كانت هذه المرأة شهرة

تعرف كل شىء عن نواياه ، والدافع الذى حدا به الى أن يكلم فرغلى ،

وتعرف لماذا صحت من نوان ، ولماذا هو واقف أمامها الآن يحاول أن
يسمحك غيب ، ولا بد أني بيننا وبين نفسي تسخر منه ، وتضحك على
القاضي القاضي .

وتملكه عند . ولو . فليكن هذا . فلتكن تعرف كل شيء . لم يعد
معه خيار .

كانت شمرت في ذلك الوقت واقفة أمام الموقد وممسكة الكنسكة
بيدها ورأسها منحنية ، وعيناها مستغرقتان (أو على الأقل هكذا كانتا
تبدوان) فيما أمامها . فغادر مكانه عند الباب واقترب خطوات . ثم
قال :

- وانتي ساكنة فين ؟

قل هذا دون أن يحفل بالجواب ، وقاله وهو يضع يده على كتفها ،
ن قاله ليستطيع أن يضع يده على كتفها . ولم يعلم بماذا أجابت
لأنه في تلك اللحظة كان يحاول أن يقيس بأصابعه مدى استجابتها .
وأحس بكتفها تحت أصابع يده يتململ ولا استسلام فيه . واقترب
منها بلا وعي متحديا تلك المقاومة . وأصبح واقفا خلفها مباشرة .
وأحس بجسدها كله ينتفض أمامه ويتململ . واقترب منها أكثر ،
وجذب كتفها ليمنع حركتها ، وانتفض جسدها انتفاضة كبيرة استدارت
أنفائها وسألته :

- الفناجين فين ؟

ونبتت نقط عرق كثيرة فوق جبينه .

وحاول أن يبتلع ريقه الجاف .

وأمرها بلهجة حادة أن تنظف الشقة بعد أن تنتهي من القهوة .
وعاد الى الكرسي الهزاز . وأحضرت له الفنجان في أدب ووجهها
جاد . وفي أقل من ثوان كانت الشقة كلها يغمرها الماء ولا شيء على
أرضها . وكانت هي منحنية تنظف وتمسح في نشاط زائد . وكان
وهو في مجلسه يلصق جسدها المنحني كلما أصبح في متناول بصره .
وكانت سيقانها من الحلف بيضاء محمرة . ومن خلال ثوبها المتناكل
كان يلصق بعض جسدها وكان منظر تلك الدوائر من اللحم الحى وهى
تطل من النوافذ المبعثرة قى ثوبها تفور له دماؤه .

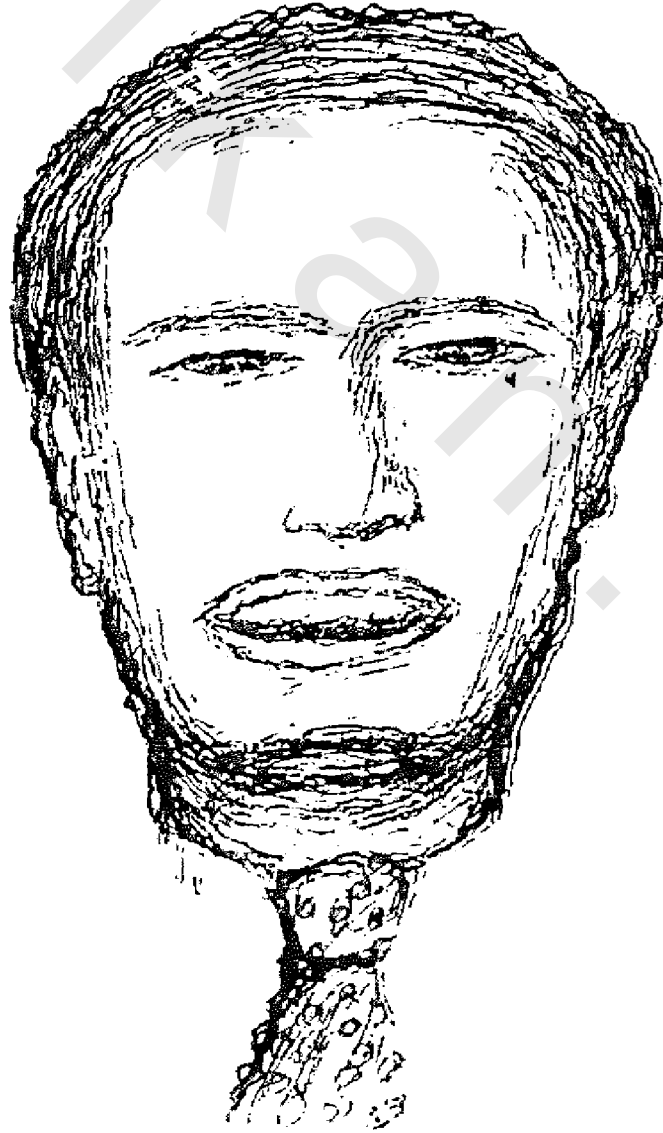
وقام من مجلسه ، واقترب منها مدعيا أنه يشرق على عملية
التنظيف . وأخذ يأمرها . الحثة دى لسة . كمان هنا . وطى شويه
عشان تطوليهها . ووجهها الى الأرض وجسدها كله طوع نظراته .

وانتهت من عملها .

وسألته ان كان هناك شيء آخر . وأجاب بالنفى . وحينئذ سألته
عن الوقت الذى يجب عليها أن تحضر فيه . وقال لها : كل يوم
الساعة الثانية والنصف بعد الظهر . وكان هذا مناسبا جدا
خفرغلى يذهب فى الثانية .

ورأودته نفسه أن يحاول معها محاولة أخيرة فى ذلك اليوم ، ولكنه

خائف من فشل آخر • فأجل المحاولة • ولتت شئ الملااة حول نفسها •
ومضت بخطوات قوية فيها منابة ورجلال •
وظل الاسناد عبد الله يلعن ضعفه بعدما ذهبت • امرأة مثلها
لا يقدر عليها ؟! امرأة آتية بارادتها ، والشقة خالية ، وهو مهما كان
شاب ذو مركز ، ولا يستطيع ؟!



وكانت تأتي بعد هذا • في الثانية والنصف تماما • وفي كل يوم يفكر • وفي كل يوم يؤجل • الى أن كان يوم • وكانت تعيد تنظيم الفراش بناء على أمره (اذ كان جعفرى يقوم بهذا فى الصباح) وأطبق عليها فجأة ، وأخذها بين ذراعيه ، وحاولت أن تتخلص وتقول أنا فى عرضك وأنا فى طولك ووالنبي • ولم يأبه هو بهذا ، ولا لمقاومتها وفى الحقيقة أتعبته كثيرا حتى أجبرها على السكوت •

وما كاد يجبرها حتى انتابته موجة فرح غامرة • وود أن يعرف أن كانت ساكنة لأنها لا تملك شيئا أمام قوته القاهرة ولا تستطيع دفعه ، أو ان كانت ساكنة لأنها قد سلمت وخضعت أخيرا • فكف عن إجبارها ، ولكنها لم تقاوم ولم تدفعه ، اذ ما الفائدة بعد كل الذى حدث ؟!

وتركها •

وعاد اليها بعد قليل • كان يود أن يحدق فى ملامحها القوية ويرى ما حدث لتلك الملامح ، ويرى ما جرى للحمرة التى تلون وجهها • وفوجئ بعينيها محتنقتان ، وخدودها تلمع • وتضايق وسألها :

- مالك ؟

وكان يتوقع أن تغفم كعادتها بشيء مثل : ولا حاجة - ولكنها
سكتت . فكش فيها :

- مالك ؟! فيه ايه !

وحدقت في الفراغ وسكتت

وعز كتفها حزة يختلط فيها قليل من الأسفاق بكثير من الضيق :

- مالك ؟

فقالت : أصلى عمرى ما عملتها .

وانهمرت الدموع من عينيها .

ولم يصدقها أبدا . تمثيلية قديمة أيضا تجيد ادائها تلك المرأة

ذات الشخصية . تريد أن تضحك عليه وتوهمه أن تلك أول مرة -

حسبته عبيطا أو ساذجا ، أو لا بد تريد زيادة .

غير أنها لم تطلب زيادة فى أجرها ، ولم تسمح لعينيها بعد ذلك

أن تلتقى بعينيها . كانت تحدثه ، وقليل ما كانت تحدثه ، وهى اما

خافضة بصرها الى الارض أو متشاغلة بشيء .

وكانت قد أعجبت به . ولعل ما أعجبه فى التجربة أنه أخذ كسل

شئ بذراعه هو . لم تكن نقوده ولا أدبه ولا مركزه هى التى انتصرت -

كانت قبضته وقوته هى التى جبت له النصر . وكان النصر حبيبا

لأنه قد أنهى به ذلك الصراع الحفى الذى دار فى أعماقه بين صلابتها

وضعفه . اذا أنه كان يحس على الدوام انها أقوى منه ، وانها لو لم تكن خادمة وكانت سيدة في صالون مدام شندی لما استطاع اليها سبيلا . كان النصر حلوا يغري بتكراره .

وفي المرة التالية كانت هناك مقاومة أيضا ، ولكنها مقاومة اليأس
من المقاومة .

وتبدأ الأحداث عاصفة ثم لا تلبث أن تؤول إلى هدوء واعتياد . وكان وجود شهرت في البيت حادثا . كان مجرد أن تظهر على الباب بملاءتها ويبدأ شبحها يذوق الباركيه شيئا يستيقظ له إذا كان متناوما ، ويعتدل إذا كان جالسا ، ويبدأ يفكر ، ترى هل يفعلها اليوم أو يؤجلها للغد ، تراها كيف تبدو وماذا تقول عنه ؟ وهل يعجبها ؟ وهل يبدأ الآن أم الأنسب بعد تناولها الطعام ؟ كان لا يستريح . وكان صوت الأطباق وهي تغسل ، أو هفافة المقشاة وهي تعمل ، أو إذا سألها سؤالا وهو جالس في حجرة بعيدة ، وجاء صوتها ذو الرنين الانشوي المثير يجيبه . . ممدودا طويلا يلف أرجاء الشقة ويداعب أذنيه ، كانت أصوات مثل تلك لا تنقطع ، وكان وجيب قلبه لا ينقطع أبدا . كانت المسألة في نظره مغامرة دائمة فيها قلق الترقب ولذة المفاجأة . ولكن الأيام والأصوات ، مهما كانت ، فالإنسان سرعان ما ينساها ويسلاها ، وسرعان ما يعتادها ، ويصبح ما كان يجعله يقشعر لا يكاد يثير انتباهه بالمرّة .

• وكان كل همه أول الأمر أن يشل مقاومتها تماما حين يكون معها .
• ثم انتهى عهد المقاومة . وأصبح الأمر لا يكلفه أكثر من أن يمسك
• بيدها مسكة ذات معنى ، أو يحدثها عن أى شئ ويبتسم بركن فهمه
• ابتسامة محملة ، أو يسألها عن (صحتها) ويضحك ، وكانت تحاول
• حينئذ أن تبتعد عنه ، فإن كانت فى حجرة المكتب حاولت الذهاب
• الى المطبخ ، وإن كانت فى الصلاة وأطبق عليها تملصت منه بخفة
• وتوجهت الى حجرة النوم . ولم يكن يدري لم تفعل هذا وهى تعلم
• أنه إن أجلا أو عاجلا سينالها . كل ما يحدث أنه كان يستشار أكثر ،
• وبعد أن كان بادئا الأمر على سبيل المداعبة اذا به يتشبث ويقلبه الى
• جد يسارع فى تنفيذه . وكانت ما تكاد تلمح رغبته ، وتبدأ تراوغ
• حتى ترتسم على وجهها ابتسامة شاحبة فيها خجل ضعيف ، وقليل
• من الفتور ، وكثير من التسليم بالأمر الواقع والقضاء والقدر . غير
• أنه كان ما يكاد ينتهى منها حتى تنقلب هذه الابتسامة الى شئ آخر ،
• وكأنما تسخر منه ، وكأنما تقول له : ولو .

• ما كاد يصبح الأمر عادة حتى بدأ هو الآخر تفعل العادة فعلها
• فيه ، وينطلق على سجيته أكثر . كان يترك نفسه معها الى آخر
• ما تستطيعه نفسه . لم يعد يدقق كثيرا ولا يصطنع ابتسامات .
• وأصبحت هى بالنسبة اليه شيئا كالمرتبة الحية التى يتمرغ عليها
• ويتنأب ، ويتمطى ويعرى ساقه ويستريح . وحين بدأت العادة

تفقد التجربة ما كان لها من اثاره . بدأ يبحث عن اثاره أخرى .
بدأ يلمس فى أذنها بكلام وقع لتردده له ، ويتعمد أن يكشف عن
نفسها كل غطاء حتى يطلع على كل مكنوناتها ، حتى تلك الاشياء
القليلة التى تستحى أى أنثى محترفة أن تفرط فيها .
وبعد أن سار فى الطريق كثيرا ، اقتنع آخر الامر انها لم تكذب
عليه ، وأنه كان أول رجل ينالها بعد زوجها . ومن قد لا يقنعه الكلام .
فالتجربة ، والمشاهدات اليومية ، والتصرفات التى تحدث دون وعى .
وتلك الاشياء الصغيرة التى لا يستطيع الانسان أن يضع لها اسما أو
حتى يملك وصفها ، هذه الاشياء تكشف على الدوام الحقيقة ، وتقنع .
وذات يوم سألها وهو يضمها اليه ويواجهها ليستطيع أن يستشف
كل خلجة من خلجاتها :

- انتى بتحبينى يا شهرت ؟

لم يكن يدري الدافع الذى حدى به الى سؤال كهذا . ولكن السؤال
على أية حال كانت له فى نفسه جذور قوية ، ولم يأتى صدفة أبدا مع
أنه فوجئ بلسانه وهو ينطقه . كانت حاجة فى نفسه قد أحت
عليه .

هذه المرأة لها زوج وأولاد . وهى حلوة . وتعرق . أنها حلوة .
وقد جاءت تدفعها الحاجة الى العمل . ثم نالها . وهو ينالها كلما
أراد . أهى تقبل ذلك فقط لمجرد أنه سيدها ورب نعمتها . كما يقال ؟

أم لانيّا تريده وتتمناه ؟ وهل اذا كانت تريده ، أمن أجل منصبه ، وعيشته الفاخرة ، أم من أجل ذاته والرجل الذى فيه ؟

كانت هذه النقطة تؤرقه . كان يتمنى ، ولو مرة واحدة فى حياته ، أن يكون رجل امرأة ، أية امرأة . ، ولو كانت شهرة . وظل يتلمس الشواهد . ولكن الشواهد لم تفده . أنيا لا زالت تفرح كلما ترك لها باقيا من نقود . انيا أحيانا تسأله أن يقرضها ريالاً أو نصف ريال . هل الحاجة هى حقيقة ما تدفعها أم هى ترغّب فقط فى تغفيله . وابتزاز نفوده ؟ وهل مواظبتها على ارضائه هو من أجله ومن أجل رجولته ؟ أم هو تماما كمواظبتها على تنظيف الشقة ومسحها ؟

الشواهد لم تفده . أوقعته فى حيرة ، لا لانيّا متعادلة الجوانب ، ولكن لانه أيضا لم يكن يفكر فى شهرة بكل ما حولها وبكل ما يربطه بها الا فقط فى تلك الدقائق التى يريد فيها . كانك حياته تمضى ، كما اعتادت أن تمضى ، العمل ، والقضايا ، والحشيات المتأخرة ، والبريدج ، ومدام شندى ، ولقاءات مع فتيات أخريات ، ونزهات بالعربة وغيرها مما يصنع حياته . كانت الأسئلة تشغل باله فى تلك اللحظة التى يخفق قلبه ويدق حين يخطر فى باله ذات لحظة أن ينالها . ولهذا لم تشغل الأسئلة تفكيره كثيرا .

ولماذا اللف والدوران ، قل أنه سألها لمجرد العبث أو لمجرد حب الاستطلاع أو لانه كان يتمنى فعلا أن تكون قد أحبتته .

ومكنت شهرت . وأسلبت جفونها . وجفونها المسبلة ليست شيئا
جديدا عليه . فبرغم مما فى عينيها من جمال كانت لا تكاد تحدثه الا
لوجفونها مسبلة .

وضغط عليها وضحك وقال : حيه . . بتحبينى
فابتسمت . وتساءلت :

- هو الى بيحب حد يقول له أنا باحبك ؟
وخرجت كلماتها ساذجة بسيطة . ولا بد أن الكلمات البسيطة
تنبع من الصدق لأنها تنفذ مباشرة الى النفس بطريقة لا يستطيع
الإنسان حتى أن يراجع أذنيه ليتشكك فى صدقها .
وجعلته اجابتها يختار . من أين أتت تلك المرأة بهذه الإجابة .
انها تذكره بمحاورات سقراط وأفلاطون . هؤلاء الناس البسطاء ،
كيف يفكرون بمثل هذا الصدق والحق ؟ لو كانت متعلمة لكان قد
قال لنفسه أنها لا بد قد قرأت تلك الإجابة فى كتاب ، ولكنها غير
متعلمة ، بل هى لا تعرف القراءة والكتابة . وأعجبه الحديث فمضى
يحاورهما :

- ازاي ؟ طبعا . . . لازم يقول له أنا باحبك
فأسلبت جفونها وقالت :

- ده لما يقول كده يبقى عايز يضحك عليه .
- يضحك عليه ازاي ؟

— الحب فى القلب واذا طلع على اللسان يبقى مش حب .

وأعجبه الحديث جدا . ترى ماذا تعرف تلك المرأة عن الحب ؟ وما
الحب فى نظرها ؟ انه يقرأ عن الحب ، ولكن الذين يكتبون عنه أناس
مشتقون وحكماء . وهو يخوض المناقشات حول معنى الحب ومصدره
والدافع اليه ولكنه يخوضها مع أمثاله من المتعلمين ، ويألها من فرصة
تلك التى أتاحت له أن يناقش امرأة خام مثلها فى الحب . وسألها :

— قولى لى يا شهيرة . . . الحب ده ايه ؟

فأشنت وأشاحت بوجهها وقالت :

— يوه . . . أنا عارفة بقى . . .

وأخذ يرجوها أن تجيب ويلح فى الرجاء ، فقالت :

— أنا عارفة . . . أهم طول النهار يقولوا الحب الحب

فقال بعصبية :

— لا . . . أنا عايز رأيك انتى . . . يعنى فى نظرك الحب ده ايه ؟

— الحب ده حاجة من الله .

— يعنى ايه من الله

— يعنى لما ربنا يريد الواحد يحب

— يحب يعنى ايه . . . يبقى عايز ايه . . . يحس بايه ؟

— والنبي يا بيه أصلك رايق

وسكتت . وكان يبدو أن سكوتها لا لأنها لا تجد اجابة ما ولكن

لأنها لا تستطيع أن تقولها .



والانسان قد يبدأ الشيء بمجرد التسلية، وإذا به يتحمس له وينقلب الامر الى جد خطير . وهكذا أثارت له تلك المناقشة مشكلة . أنه لا يعرف زوجها ، ولا حتى يذكر اسمه ولا يعرف ان كان صالح أو محمود . سألها عنه مرة ، وأحيانا تردده أمامه ، ولكنه لم يعلق بذهنه أبدا . بل انه لا يعرف ماذا يشتغل هذا الزوج . ولكنه زوجها على أية حال ، وخلف منها أطفالا ثلاثة ، فلا بد أن بينهما شيئا . ترى، ما هو ؟

ولم يسأل الاستاذ عبد الله نفسه هذا السؤال الا لأنه كان قد وضع نفسه بين شهرت وزوجها . ترى هل تحبه أكثر من زوجها، أم تحب زوجها أكثر . مشكلة لو كان قد فكر فيها فى أى وقت آخر لما كان قد أقام لها وزنا ولكن فى الظروف التى كان يدور فيها الحديث بينه وبين شهرت بدت المشكلة مبهمة جدا فى نظره . ولهذا قال لها وقد احتواهما الفراش :

- شهرت ...

فقالت : نعم !

- انتى بتحبينى أكثر والا جوزك ؟

خجل من نفسه حين نطق السؤال ، وكاد يغير الموضوع ، ولكنه

ع ان نطق به حتى بدأ قلبه يدق وكأنه ينتظر نتيجة امتحان • أجل •
من تحبه أكثر من زوجها ؟

وكان ما غاظ الاستاذ عبد الله انها سكنت • لم تفتح فمها • فقط
سبلت عينيها • وابتسمت • وخجلت • وسكنت • ماذا كان يعنى
سكوتها ؟ بالتأكيد لو كانت تحبه أكثر لأخبرته ولو من قبيل التظاهر
ولكنها لم تجب • وملاه غيظ صبياني • هذه الحقيرة ماذا فى زوجها
الذى لا يستطيع الاتفاق عليها ويجعلها تفضله عليه ؟ أيحسم الأمر
ويطردها ؟ فعلا يطردها • ولكن الخطوة كبيرة ولا يستطيع تنفيذها
الآن ، وهو قد تعود عليها ، ثم أنها عرفت مزاجه وما يرضيه
وما يسخطه ، وهو يستريح لوجودها ، ثم هذا الشيء الذى لا يمكنه
تحديده والذى يشده اليها • والمسألة مسألة زمن • لقد أمضت مع
زوجها سنين ولم تقض معه هو سوى أيام معدودات • لا بد أن يعلمها
كيف تحبه ، هذه المرأة ذات الملاة اللف الغلبانة ألا يستطيع أن
يعلمها كيف تحبه ؟!

وأفضه التفكير فى هذا • كيف يجبرها • كيف يستولى عليها •
كيف ؟

وازداد غيظه حتى كاد ينفجر •

ولكنه لم ينفجر ، بعد ساعة واحدة كان جالسا الى المكتب غارقا فى
خضم أربعين قضية عليه أن ينظرها فى الغد ، وقد نسي كل شيء تقريبا

عن شهرت وزوجها والمشكلة التي أثارها بنفسه ، حتى أنه حين أمر
شهرت أن تعد له فنجالا من الشاي، أمرها بنفس اللهجة التي يستدعى
بها فرغلي شاهدا من الشهود

- ٤ -

كانت التجربة فى أول الأمر يلفها التزمّت واجد . يستند عليها
بخطّة وإصرار ، ويرهب وجودها ، ويرحقه ذلك الوجود وتشغل باله
كل حركة من حركاتها . غير أن الموضوع كله لم يثبت أن أصبح
عادة . ثم أصبح عادة مملة

لم يعد فى وجه شهرت ما يخيف أو يجبر على الرعب . أصبح
وجهها وجه امرأة عادية تحت أمره فى كل وقت وكل لحظة . وأصبح
جسدها فى يده كالورقة المهيّلة التى يستطيع متى شاء أن يكوّرها
ويلقيها فى سلة المهملات .

وحين وصل الأمر الى هذا الحد امتلأت نفسه بنشوة الفوز . لقد
انتصر . ولم يعد يفكر فى شهرت كثيرا أو قليلا . أصبح وجودها فى
الشقة شيئا عاديا مثل (الفاز) الموضوع فى ركن (الانتريه) ، كل
الفرق بينها وبينه أن زهور الفاز تتغير كل يوم أما شهرت فملازمها
كالزهور الصناعية التى لا تذبل ولا تنضر ولا يتغير تفتحها .

غير أنه فى أحيان قليلة جدا كان يسأل نفسه : ترى هل انتصاره
هذا انتصار حقيقى . ترى هل استحوّز على شهرت تماما . ترى هل

أنسأها زوجها وأحبته ؟

فى معظم الأحيان كان لا يحفل بالاجابة على تلك الاسئلة . الامر لم يعد يهمه . فحتى لو كان قد أخذها كلية أم لا تزال لغيره ، فسيان . ولكنه فى نوبة من نوبات تلك الاسئلة تحمس وشغله الامر حيناً فقرر أن يجرى تجربة .

قرر أن ينقص ماهية شهرت ، فان كانت قد تعلق به فستقبل الامر حتماً . فاذا لم تكن فستتركه . ولم يخالجه أدنى خوف أن تتركه ، بل كان فى الواقع يتمنى أن تتركه ، وقد بدأ كلما سألته فرغى متملقاً عن الحال يعقد وجهه ويحدثه عن أخطائها الكثيرة ، ويحوم حول عيوبها ، وملاءتها ، وعدم قدرتها على القيام بعبء الأعمال فى البيت . كان يريد شيئاً جديداً .

وفى أول الشهر نفذ الفكرة ، وأنقص جنيهاً . وأحمر وجه شهرت وهو ينهى اليها بالخبر . أحمر جداً حتى خيل اليه انه لأول مرة يشاهد أحمراراً حقيقياً فى وجهه . أحمر وجهها وتلقت منه الماهية ووضعتها فى حافظتها الصغيرة الكالحة ، ولم تنطق بحرف .

وفى ثانى يوم لم تحضر . وقلق الاستاذ عبد الله . وأنبه ضميره قليلاً ، ولكنه لم يشأ أن يؤلم نفسه أكثر فنفض عن نفسه مهمة التفكير والتأنيب ، وقرر أن يطلب من فرغى أن يبحث له عن (طلب) آخر ، ولكنه نسى أيضاً أن يكلم فرغى ، اذ كان فى تلك الأيام قد شغله

موصوع مبهمة . فقد رأى نانا ذات مساء خارجة من سينما راديو بصحبة
سبب . وظل يتتبعهما ويسأل ويستقصي حتى عرف كنه ما بينهما من
علاقة . وحينئذ تجدد كل ما دار بينه وبين نانا بشكل حاد وأصبحت
استعادتها هي كل ما يشغله .

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة كان عائدا الى بيته داخلا بالعربة الى
الجراج الذى يحتل بدروم العمارة التى يقطن فيها ، واذا به يجد
شجرت جالسة على الارض بجوار باب الجراج .

لحمها ، وتضايق ، وقرر أن يتجاملها ، ولهذا صعد من الباب
الصغير الذى يصل الجراج بمدخل العمارة مباشرة ولكنه ، وكما توقع
تماما ، سمع الجرس يدق بعد دخوله الشقة بقليل .

وفتح . وكانت شجرت . وابتسم ابتسامة صفراء وسمح لها
بالدخول .

لم تتكلم هي . وكان لا يدري ماذا يقول . وراح يراقبها
باستخفاف وهى تمضى الى المطبخ وتخلع ملأتها وتعمل

كان جالسا فى حجرة المكتب فنادى عليها . وجاءت . وصحیح
أنه كان خجولا ، ولكنه أصبح لا يخجل من شهرت . بل انها الشخص
الوحيد فى العالم الذى أصبح لا يخجل منه أبدا . قال لها :

- جيتى ؟

فأجابت وهى تنظر الى أصابعها المبللة :

- واحنا نقدر نستغنى

فازدادت جرأته وقال :

- امال كنتى مشيتى ليه ؟ عشان الفلوس نقصت يعنى ؟
وتملكته وهو ينطق السؤال بعض المرارة ، فقد تذكر أن انقاص
الماهية كان امتحانا لتمسكها به ، وأنه فشل فى الامتحان . وأجابت :

- أصل البنت كانت عيانة وخذتها المستشفى

ورأى فى اجابتها كذبا لا يوصف .

غير أن نسمة اشفاق هبت ، لعل مبعثها كانت ملامح شهرت .
كانت شاحبة بعض الشيء ، ووجهها يلمع وفيه استسلام ، وملامحها
كلها ذابلة ومدلاة الى أسفل ، وكأن كرامتها قد استحالت الى سائل
ذليل يقطر من أنفها وفمها وذقنها . . فقال لها :

- هى التلاته جنيه مش كفايه والا ايه ؟

ف قالت :

- نعمة . . . بس منعم أصله ساب الشغل .

- منعم مين ؟

- جوزى

- آه . . وساب الشغل ليه ؟

- بيقول توفير ولا مش عارفه ايه

- هو بيتستغل ايه ؟

- دباغ

- دباغ ايه ؟ . فين ؟

- فى المدبغة فى المدبح

وزام الاستاذ عبد الله ولم يجب . وأحس فى التسو يكره هائل
لا يدري لمن يوجهه . وكلما نظر اليها ورأى ذلك الشئ اللامع يتساقط
من ملامحها ورآها مستكينة ، ووراءها زوج عاطل وأولاد ، كان يزداد
ما يحس به من كره وغثيان . ويبلغ الغثيان مداه حين علم أن زوجها
يعمل فى مدبغة ، وتختلط فى ذهنه أشياء . . جلد قذر ورائحة بهائم
وغراء وعناق شهرة وفراشه ، فينفجر قائلاً :

- طب روحى

ومضت عنه

ولعن الاستاذ عبد الله نفسه مرارا بعد هذا الحديث فقد جبر عليه
مشاكل . كانت المرأة أول الامر مغلفة لا تفتح فمها بكلمة ، فبدأت
تشكو . اليوم زوجها عشر على عمل فى محل ألبان ، وغدا ترك العمل ،
والبنت عندها حمى واسهال . البنت ماتت . صاحبة البيت تطاردهم
ودوشة كبيرة جرّها على نفسه بلا أدنى سبب .

وأصبحت شهرة عالية .

وأصبح التخلص منها ضرورة

ولكنه خجول ، وليس هذا كله شئ فهو انسان على أية حال ،

وهل يقبل على إنسانيته أن يضرد هذا . وهم يجتازون هذا الكرب ،
عن أين يأكلون . كان عليه أن يحتمل ، والاحتمال له حدود ، لذلك
كانت ما تكاد تفتح فمها بالشكوى حتى يقفله .

ثم انه رجل وشهيرة لا تزال هي المرأة التي أعجبتة يوماً ولا تزال
امامه مشاكل الجسد رغم أنه يأنف من عمل زوجها السابق في
المدبرة .

وفوجيء الاستاذ عبد الله ذات يوم بضحكة . ضحكة رنت في
أذنيه رنيناً غريباً مختلطاً أذهله وحيره .

كانت شهيرة رغم كل ما مر بينها وبينه امرأة ذات وقار . كان
يراهما دائماً في ملائتها . جسدها ملفوف ، وقامتها طويلة ، ولا
انبعاج في أعضائها أو ترهل . وكان وجهها جادا في أغلب الأحيان
ولكنه ذلك النوع السمج من الجد ، وفي أحيان قليلة كانت تبسم ،
ابتسامة كل ما تفعله انها تزيد السماحة في وجهها وتدفع بهريق
معين الى نظراتها .

وكان ، رغم كل ما بينه وبينها ، يكن لها نوط من الاحترام كانت
هي بالتاكيد مبعثه . فلا يذكر أنها لوثت لسانها مرة بخطأ ، ولا
قللت من احترامها له ، ولا طلبت منه مطلباً باهظاً ، وكانت مطالبها
كلها متواضعة بسيطة ولا تلجأ الى سؤاله الا في أحوال نادرة .

غير أن تلك الضحكة أزعجته . كانت فيها ميوعة واستهتار : وهو
لم يعهد فيها ميوعة أو استهتاراً . ونادى عليها :

- يا شبرت

- نعم

- وخيل اليه أن (نعم) تخرج أكثر طراوة من فيها .

وجاءت . لم يدري ماذا يقوله لها ، أو لماذا ناداها . ووجد نفسه يسألها ان كانت تخلصت من الصرصار الذى فى المطبخ ، وكان قد رآه وأمرها أن تقتله . وابتمت له وقالت وهى تتدلل :

- ده لقيته لايف على صرصراية

وأطلقت ضحكة رفيعة واشماز منيا وحدق فيها . وخيل اليه أنه يلمح فى وجهها أشياء لم تكن موجودة ، أو أن وجهها ينقصه شىء . كان موجودا . كانت أيام أن جاءت امرأة مصرية بلدى تنظر فى وجهها فلا تجد فيه غير زوجة لها أولاد ، وإذا به يراها الآن . . أجزاء قد غارت من ملامحها ، وأجزاء برزت ، وعيناها داخلتان فى وجهها وحولهما دوائر ، وعلامات غير بريئة ، علامات تدل على تحول أصابها ، حتى ابتسامتها ، لم تعد بسيطة ساذجة كعادة ابتسامتها ، أصبحت تحمل جزءا صناعيا ملحقا بها ومفتعلا .

وراعه ما وجدته من تغيير

وظل الأمر يشغل باله . هل هو مسئول عما حدث ؟ وهل هو فعلا الذى أحدث فيها هذا التغيير . وهل هو الذى انهار على ملامحها المخلصة المتزوجة فأحالها الى ملامح امرأة تباع وتشترى ؟

وقى الواقع أحس بنفسه مسئولا ولكنه تجاهل احساسه بتأنيب
الضمير . ان الانسان لا يؤنب نفسه الا اذا خاف من عقاب يتبع
فعلته . وهو لم يكن خائفا من أى عقاب

السبب الحقيقى الذى شغل باله كان شيئا بدأ ينهش صدره .
خوف غامض محير . ترى ، هل هو وحده المسئول عن ذلك التغيير أم
أن شهرت قد أنشأت علاقات أخرى مع أناس آخرين . أحس بالغيرة ،
غيرة من نوع غير مطروق ، ليست غيرة الحبيب على الحبيب ولكنها غيرة
السيد على خادمته ، أو غيرة السيد على نفسه . كان خائفا جدا أن
تكون شهرت قد ساوته بصبى مكوجى أو بائع خبز ، ولهذا كان قلقا ،
ولهذا تزايد قلقه .

وفيما توالى من أيام كان لا ينظر الى شهرت الا والشك يملأ
عيونه . واذا أرسلها الى قضاء حاجة يستجوبها بدقة بعد أن تحضر ،
ويحاول أن يستغل فراسته كوكيل نيابة سابق ، وكل معلوماته عن
علم النفس الجنائى لادراك ما اذا كانت تخذعه أم تقول له الحقيقة .
وكان يسمعها تتضحك أحيانا وهى تصعد السلم فيسألها حين
تدخل ، مع من ولماذا كانت تضحك ثم ينتهز أول خطأ ويعاقبها
يشدة .

وكان يعجب ويستغرب فقد تحولت شهرت . كانت أول ما جاءت
لا تكاد تستطيع أن ترفع عينيها فى وجهه فاذا بها الآن كلما نهرها

حدثت فيه وغضبت ، لولا بقية من حياء لقالت : وانت مالك . ثم بدأ يلاحظ أن قسوة ما قد صارت لها ، وان شخصيتها تخدم فيها روح الزوجة الام وتتصلب وتأخذ شكلا فيه حدة وعصبية وجود . كانت تناقشه ، وهي التي لم تكن تجرؤ على نقاشه ، وترد على حججه بحجج . وكان يلعن ضعفه ، وأحيانا ينتهر نفسه ويسألها : ما الذى يمنعه من طردها . ولكنه منذ أن بدأت تقوى بدأ ينكمش وأحيانا لا يستطيع الاستمرار فى مناقشتها .

هل كان خائفا منها ؟

هل كان يخاف ان هو أغضبها أن نفضحه مثلا وتسود سمعته . أم كان فقط يخجل من مجاببتها وهو العليم بلسانه المتواضع ؟ لعله كان يخجل . ثم أنها كان لها منطق ، ومنطقها كان دائما قويا دامغا . كان هو يعتمد فى مناقشته لها على أوهام وافتراسات وتخمينات مبعثها ما يدور فى رأسه عن سلوكها . وكانت هى تعتمد على حقائق تكاد تدفعها فى وجهه دفعا .

والغريب أنها كانت كلما اشتطت فى موقفها منه ازداد هو أدبا ، بل أحيانا كان يتملقها ، لا ، لم يكن ذلك النوع من الملق الذى يرفه كعادة الرؤوسيين للمفتشين وكبار رجال الوزارة الذين كانت تربطه ببعضهم العلاقات ، لا ، نوع آخر أكثر تخفيا . مثلا بدأ يسألها عن زوجها بشكل منتظم وعن أولادها . وكان الزوج يحيره . كانت

شهرت لا تكف عن الشكوى منه ولعن اليوم الذى دخلت فيه بيته ،
وسب كسله وخيبته ، ولكنها كانت تتلفظ بالشتائم من فوق لسانها
فقط وكأنها تنهر ابنها البكر ولا تعنى ما تقول . كان أياما يعمل وأياما
كثيرة لا يعمل ، وهى على الدوام تعمل ، وأولادها باستمرار موضوعا
مفضلا لأحاديثها ، وهى المسئولة عن كل شئ ، أمام صاحب البيت ،
وحتى أمام صاحب العمل الذى يشتغل عنده زوجها . ويعمل زوجها
بمسمط يوما وفى يوم يوزع جبنة على الزبائن وأحيانا قهوجى وأحيانا
تجهز له هى عجينة الطعمية ويقف على رأس حارتهم يقلبها ويبيعها .
وكان يأخذ له فى كل عمل يومين ويولى . وكان الاستاذ عبد الله
يتولاه الدهول كلما فكر فى تلك العائلة التى تحيا معلقة بين الارض
والسماء ، ويتساءل : ترى كيف كانت تحيا لو لم تكن شهرت تعمل
عنده . ولكنه يفكر فى كل ذلك كما يرثى الانسان لزلزال يحدث
فى الملايو ويطيح بالقرى ، رثاء ، مجرد رثاء يقضى عليه الملل الذى
بدأ يتسرب اليه من شهرت ومشاكلها وعائلتها .

وجاءته فى منتصف شهر تطلب منه جنيها . ولم يكن
صدفة أن تطلب منه ذلك فى اليوم التالى ليوم نالها فيه . وحز طلبها
فى نفسه ، وسألها لم ؟ فقالت وهى تضحك وتتدلع وتتمادى :
سلف . ورمقها فوجدها تنظر اليه بعينين لا تردد فيهما ولا خجل .
فخجل . وأعطاهما الجنيه . وصمم أن يكون هذا شهرها الاخير .

وقال لها بابتسامة فُسلّة : وتجيبييه أمتى ؟

فأجابته : نقسطه .

واعقبت اجابتها بضحكة ارتعشت لها أذنه

وفوجيء بها بعد أيام وقد حضرت لأول مرة دون ملاءة .

كانت ترتدى (جيب) من قماش كاروهات رخيص ، ولكنه جديد .

وترتدى فوقه خرقة قديمة ممكن تسميتها مع كثير من التجاوز (بلوزة)

ولم يكن يغطي شعرها شيء . كانت رأسها عارية ، وكان ثمة أحمر

خفيف ، لعله صنع بقلم كتابة أحمر ، على شفتيها . وكان منظرها

يبعث على الاشمئزاز .

كانت الملاءة تضيء عليها جدا ، وتجعل لها منظر الام . أما هذا

الزى ، صحيح لم يكن فاضحا ، ولكنه ليس رداء أم بأية حال من

من الأحوال . ثم أن رأسها حين كشفته غير من وجهها وبشعرها ،

وأظهر ما كان خافية فى وجهها وشعرها وأصبح للامحها تعبير

عمومى . كانت ملامحها فيما مضى لها طابع خاص ونكهة تميزها عن

أية امرأة أخرى ولكنها بدت مجرد امرأة ذات شعر خشن لم ينسكب

عليه طلاء أو نعمة زيت وقد أصبح مفضوحا لا يحجبه منديل ولا

تحفظ عليه كرامته ملاءة .

وقال لها باستغراب حقيقى : عملتى فى نفسك كده ليه

فأجابته بصوت كأنما كشف عنه الغطاء هو الآخر فأصبح

مبحوحا ذا نبرة غربية : أعلى بانسكف من الملاية لما باجى العمارة .

وأضافت وهى تخطر أمامه . .

- مش كده أحسن .

قالت هذا وهى تنظر اليه عبر كتفها وتلفت خلفها بعينين فيهما

نفس الجراءة والاستهتار .

ومطشفتيه علامة اليأس وقال لها :

- جوزك يا ترى قال ايه ؟

وطرق شىء فى فمها ، وقالت :

- يا خى دا اهدى . . هو حد بيشوفه .

- ليه . . سافر والله ايه . .

فقالت وقد تغيرت ملامحها :

- يقاله بسلامته ثلاث أشهر قاعد فى القهوة . .

- ليه .

- فنش شغل . .

وضحكت ضحكة ذات شهقة ، وقالت وهى تغير الموضوع وتخطر

أمام مرآة الانتريه :

- مش بذمتك أحسن من بتوخ السيما يا بيه ؟

وأقسم فى سره ، أن يكون هذا شهرها الاخير . .

وعوجت وسطها وقذفت بيدها فى حركة تمثيلية متراخية على

وحبيب في المرأة وقالت :

- من أنفع يا بيه اشتغل في السيم :

ومضت تصنع (البوزات) وتعقص رقبتها • ولما لم يرد قالت

وكانما ترد على نفسها :

- الناس يقولوا اني أنفع في السيم •



وثانى يوم حضرت بالملاءة . وسألها عن السبب وهو يضحك .
بسخرية . فقالت وهى واجمة أن البلوزة التى كانت ترتديها لا
تصلح وأنها فى حاجة الى بلوزة جديدة ، وقد اشترت القماش .
ولكن يلزمها جنيه آخر للترزى .

رسم أن لا يعطيها أى مليم . صمم والامر يشغله . ترى لماذا
هذا التغيير ؟ ولماذا تصر على ارتداء ملابس كتلك وهى تبدو أجمل
بالملاءة . ولم يفترض حسن النية وهو يجيب . واستمر يتساءل :
ترى ماذا تفعل بعد انتهاءها من عملها عنده ؟ وكيف يأكلون ؟ لا بد .
أنها تخرج فى الشارع . وذوى الملاءات لا بد أن سعرهن قليل
ولهذا تريد الجيب والبلوزة ليرتفع ثمنها .

ومع يقينه فى صدق ما يخمنه الا أنه راح يستنكر أن يكون ما
يفترضه هو الحقيقة . ولم يشأ أن يتعب نفسه . كانت شهت
بالنسبة اليه قد انتهت . بضعة أيام فقط ويطردها بلا رجعة .
فلتفعل ما يحلو لها .

وألحت فى اليوم التالى وهى تطلب منه أن يقرضها الجنيه مدعية:
أن البلوزة قد تم تفصيلها . ورفض بجفاف . كانت قد استنفدت كل

منائها من نقود . وأى سلف لن يسترده ، وهو قد صمم على إزاحتها
ولن ينتظر الى آخر الشهر . غدا يقول لها : مع السلامة .

ولكنه كان يحدث نفسه بهذا كل يوم . وكل يوم ينسى .
يخرج من الشقة فى الصباح وفى نيته أن يفعل ، ثم يهبط الى
الجراج ويدور حول العربى ويتأكد من نظافتها . ولا بد أن يجد فيها
شيئا يستحق أن يلوم صبي الجراج من أجله . ثم تتبادى به العربى
الى المحكمة . وما أن يصل حتى تدب الحياة فى بنائها . تحيات
من اليمين ومن اليسار ، وقيام وقعود ، وهرولة وهرجلة . وفرغى
ما يكاد يلمح العربى حتى يقبل لاهثا ، ويفتح بابها وينحنى ويلفح
الشنطة ، ويتبعه من بعيد ، والناس من حولهما راكعة الرؤوس ،
ولا مجال للكلام . ويدخل حجرة الانتظار . بعض القضايا لم يكن
لديه وقت لمراجعتها وقد أشبعها تأجيلا ، ولا بد من مراجعتها قبل
بدء الجلسة . ويدخل الكاتب عجوزا وله منظر وبطؤه أكثر كآبة
من منظره ، ويأخذ أكثر من خمس دقائق ليقول صباح الخير
ويتلأ . وتأتى القهوة . ويفر دوسيهات القضايا . ويحس بالوقت
يمضى بسرعة ، والساعة تقترب اقترابا جنونيا من العاشرة ،
والجمهور فى القاعة يتملل وقد بدأ يسمع باذنه أصوات الاستنكار
والهمس الخافت حين تعثره موجات ارتفاع ، فيغادر مكتبه . وفرغى
واقف على الباب ، وتدوى كلمته : محكمة . تكاد من فرط علوها

وملابتها أن تصنع قوس نصر ينفذ من تحته القاضى الى كرسيه .
وتبدأ القضايا . سريعة متلاحقة يهتم بتتبعها أول الامر ، ثم
يؤجل تتبعها ويسرح أو يحدق فى وجه أعجبه أو لم يعجبه لشاهد
من الشهود أو يستثقل دم محام أو تطرق بآله أحيانا فكرة أن
يستقيل من الحكومة ويعمل محاميا .
وينتهى اليوم وتمضى به العربة ويتركها على باب الجراج ويصعد .
وما أن يفتح الشقة ويجد ملاءة شهرت راقدة فى الانتريه كالراية
السوداء حتى يتذكر أنه نسي أن يفتح فرغلى فى أمر طردها .
ويصمم أن لا ينسى فى اليوم التالى . وينسى فى اليوم التالى .

انتبى الاستاذ عبد الله من سرده وهو يخطب كفا على كف . كانت المسألة فى غاية الوضوح . شهرت أخذت الساعة لتبيعها وتدفع ثمن البلوزة بعدما رفض اقراضها ، وعندما أحست أنه ينوى طردها وكانت المسألة من كثرة وضوحها تدعو الى الغيظ . لماذا الساعة بالذات ؟ ولماذا اليوم بالذات .

وكان شرف لا يزال ممددا قبالته يستمع ، ويبدو أن طول ما رواه عبد الله قد عمل عمله فجعل عقل شرف يسترخى . كان جالسا يكاد يكون لا حول له ولا قوة .

وبلغ الغيظ بالاستاذ عبد الله منتهاه وقد أحس بنفسه يجابه الموقف وحيدا وجاء بشرف ليعينه فاذا به فاطر الحماس والامر لا يكاد يهمه . خادمة مثلها تأخذه ساعته عينى عينك وهى تعلم أنه حالا سيعرف . انها ليست سذاجة منها أن تفعل ذلك ، انها وقاحة وتحدى . وانفجر يحدث شرف ويتحول كلامه الى صياح . كان منفعلا وكان كرامته هى التى سرقت ، وامرأة فاجرة هى التى سرقتها لتحترف بها . انه لن يسترجع الساعة فقط ولكن شهرت لن تنفذ من يده . سوف يريها أنه ليس بالضعف والطيبة التى

تتصورهما وأنه ليس من الطير الذى يؤكل لحمه .
وأخذ الرجلان يكدان تفكيرهما ويتشاوران فيما يمكن عمله .
نصف جالس ممدد الساقين .
وعبد الله يروح وييجى ولا يستقر فى الحجرة .
كان يومها يوم الاحد وهو اليوم الذى تعودت شهرت أن تأخذ
فيه أجازة . وهى لم تتعود ، هو فى الحقيقة الذى عودها . ولم يفعل
ذلك أول ما جاءت . بل هو تقليد وضعه مؤخرا بعدما ضاق بشهرت
ولم يعد نوالها يكفى شغفه ، وأصبح لابد من العودة الى الطريقة
القديمة وإخلاء الشقة لزوار آخرين .
وفكر أول ما فكر أن يبلغ البوليس ، ولكنه راجع نفسه ،
وراجع كل ما نظره فى حياته من قضايا ، وكل ما سمع عليه ،
 فلم يجد أن البوليس قد أفلح مرة فى إعادة مسروقات صغيرة كتلك ،
ما أن يبدأ البوليس يتدخل حتى تغوص المسروقات فى سابع أرض
وليس هذا كل شيء ، فإبلاغ البوليس يحتم عليه أن يقر ، وهو
القاضى الأعزب ، أنه يستخدم عنده امرأة . ثم قد تتوقع شهرت
وتفقت منها ألفاظ ، ولهذا كان من المستحيل عليه أن يبلغ البوليس
وكان فرغلي أول من خطر له . هو مفتاح القضية . لابد من
استدعائه وشرح ما حدث له وتحميله المسؤولية باعتبار أنه ولى
أمرها وهو الذى أحضرها . ثم عليه بعد هذا أن يكلفه باستدراجها

والحصول على الساعة منبها . ولكن شرف لم ت نظره الى شيء . شهرت
ليست بالسذاجة التي قد يتصورها . ولئن تقع عكذا من أول هجوم .
ثم من يدري ، لعل حب الاستطلاع يدفع فرغلي الى توجيه اسئلة ما ،
تؤدي الى أسئلة أخرى . لابد أن يكون هو المتحدث اليها بنفسه ،
حتى يستطيع أن يرد في الوقت المناسب ويزن الامور .
ولكن ... كيف يقابنها ؟

هي الآن في بيتها . والساعة الثالثة . وهو لا يعرف بيتها .
فرغلي هو الذي يعرفه . وفرغلي الآن في بيته . واذا صبر الى الغد
فلن يضمن بأي حال أن تبقى الساعة تنتظره . انه مؤمن ايمانا راسخا
أن لو أمكنه بطريقة ما أن يفاجئ شهرت في بيتها الآن فسوف
تروع وتعترف وتناوله الساعة . ولم يفلح شرف في زلزلة هذا
الايمان واضطر في آخر الامر الى متابعة أفكاره والى أن يبحث معه
مشكلة العثور على فرغلي .

وظل عبد الله يعمل فكره . وتذكر شيئا . تذكر أنه نسي المفاتيح
مع فرغلي مرة ثم استطاع العثور عليه وعلى بيته واستعاد المفاتيح
بطريقة ما . ما هي تلك الطريقة ؟

وكان الرجل في قمة توتره ، كان عقله يعمل بسرعة وقوة لم
يعمل بها منذ سنين ، وذهنه حاضر لامع متدفق ، وثمة دافع جبار
يتفجر في نفسه ويغذيه بالمشا ط ولا يكف عن تغذيته . كان

كقائد جيش يعد للميجوم فى الفجر ويعمل حسابا لأدق الاحتمالات .
وتذكر أمرا . صبى الجراج . تذكر أنه كانت له علاقة باستعادة
المفاتيح . وفى الحال استدعى البواب . وأمره أن يستدعى صبي
الجراج . واستمر يروح ويجيء حتى دق جرس الباب ودخل الولد
وفى أعقابيه البواب الضخم الاسمر .

كان الصبى شابا قمحى اللون مهلهل الملابس ، يبدو الريف على
سيماه ، بل يبدو أنه هارب من أهله فى الريف . وظل الاستاذ
عبدالله يسأله على الاقل خمس دقائق قبل أن يستخلص منه شيئا .
كان يبدو على الشاب أنه مروع باستدعائه أمام القاضى ، مذهول
بالشقة والناس المتطلعين اليه .

وأخيرا هدا الشاب بعد أن حاول ابتلاع ريقه الجاف وكاد يبتلع
حنجرته ، وسأله عن فرغلى . وأنكر الولد انكارا تاما أنه يعرفه أو
له به صلة . وحاول القاضى أن يسترضيه بسيجارة ولم يشأ أن
يزيده اضطرابا ويأمره بأشغالها أمامه وعاولد يسأله وهو يطمئننه
ويربت على كتفه . وبعد جهود اشتركت فيها شرف البواب ،
تطوع الشاب أن يحاول تذكر بيت فرغلى والبحث عنه . ولكى تتوفر
السرعة الواجبة أمر القاضى البواب أن يستصعبه ، ويأخذا تاكسيا
ولا يعودان الا بفرغلى . وأعطاه جنيها يدفع منه مصاريف الانتقال .
وافترض الاستاذ عبد الله أن فرغلى قد جاء ومضى يكمل الحطة .

ان الموقف صعب . فرضنا أنه عشر على شهرت وواجهها . حل
بضمن نفسه ؟ انه هنا . وعى غى بيته ، وعى خادمته ، كان فى
أحيان كثيرة لا يستطيع أن يبقى عينيه فى عينها طويلا ، فما بالك فى
ظروف كهذه . ولم يستقر خاطر فى ذهنه لحظة . كان الغضب
يجتاحه ويؤكد له أنه قادر على مواجهة مائة شهرت وأنه ما أن يراها
حتى يصبح فى مكانه أن لا ينتزع منها الساعة فقط ولكن ينتزع
روحها أيضا .

ولكى يطمئن كان لابد له من الاستعانة بأمر آخر . اذا عن لها
أن تكابر وتنكر واذا استطاعت أن تتماسك أمامه فلا بد من تهديدها .
وهو لا يملك وسيلة لتهديدها سوى تخويفها بالبوليس والسجن .
ولكى تخاف من البوليس يجب على الأقل أن تراه بعينها . وهو
يعرف معاون بوليس قسم ثان الجيزة ، وممكن أن يستصحبه الى
بيتها فقط لمجرد تهديدها واخافتها . ثم أن معاون البوليس هذا
شاب مرح لطيف ، يستطيع أن يشرح له الامور اذا تفوهت شهرت
بأقوال تشين . ولكن . ماذا لو رفض المعاون أو اعتذر ، وبيت
شهرت بالتأكيد ليس من اختصاصه ألا يكون قد كشف نفسه
دون داع ؟

ولا يدري كيف ساورته الفكرة ، ولكنه صافح شرف فى التو
وهو يهنئ نفسه على ذكائه واكتشافه حلا عبقريا . لماذا لا يقوم

يقوم شرف بدور الضابط ؟ ضابط مباحث قراه شبرت من بعيد
فتخاف .

وفوجيء شرف بالاقتراح وظل يقارب حاجبيه ويعقد جبنته
ويتذبره . ثم قام الى المرأة وجرب نفسه . وعاد الى الحجرة متمهل
الوجه وقد قبل أن يقوم بالدور .

ومن لحظتها انقلب . بسو المتحفز . وتصاعدت ضحكات القاضي
عالية جوفاء يهيجها الغيظ وشرف يتصور نفسه ويقوم فعلا بتمثيل
دور الضابط ، والاتنان يتعاونان على اعادة النظام الى شعر شرف
المهوش حتى تصلح رأسه لضابط .
ودق الجرس .

وخرج الاستاذ عبد الله ووجد فرغلي واقفا يلهث وقد رفض
البواب أن يجعله يصعد في الأسانسير وجاء به من يده عن طريق
سلم الخدم . وفرغلي ببدلته الواسعة القديمة المعتادة ، وطربوشه
الغامق المائل والعرق ينز من وجهه . وفي كلمات مقتضبة قليلة أنبى
اليه القاضي بما حدث .

وما كاد فرغلي يتحقق حتى تراجع الى الورا كالمنعور ، وقال وهو
لا يزال يلهث : ازاي ؟ ازاي ؟ ازاي بنت ال . .

وظل يردد الجملة لا غيرها وثلاثتهم يهبطون السلم .
وركبوا العربدة .

القاضي أمام عجلة القيادة في المقدمة ، وشرف بجواره ، وفرغلي
جالس على أطراف الكرسي الخلفي يكاد يقف لو كان سقف
العربة يسمح . وكان هو أيضا الذي يتكلم طوال الوقت أو بالاحرى
يسب ويستنكر ويعد القاضي أنه سيخرب بيتها ويقتلهم أولادها ،
ويطردها من الحقة .

وكان فرغلي يتكلم عن (الحقة) كما لو كان القاضي يعرفها وسأله
الاستاذ عبد الله عنها فقال فرغلي بلهجة الواثق : جنب حارة الروم على
طول . وعاد القاضي يسأل وفرغلي يجيب بأسماء لم يسمع عنها
القاضي ولا حتى شرف . وأدرك الاثنان أخيرا أن (الحقة) التي يقصدها
فرغلي هي الحارة السد التي تقع في مكان ما وراء الجامع الازهر .

بدأ الاستاذ عبد الله الرحلة وهو في قمة انشراحه . ضمن الوصول الى شهرت . ضمن المفاجأة . ضمن العثور على الساعة . ضمن الحطة . بدأ الرحلة نماما كالتلميذ المجتهد الذاهب الى امتحانه وهو متأكد من النجاح . وعلى وجهه اشراقة النصر . ولم يكن منشراحا فقط ، بل كان أيضا نشوان ، ففوق أنه سيستعيد ما أخذ منه غدرا فقد كان في الطريق الى اختبار ذكائه ومقدرته على التفكير . والمغامرة في حد ذاتها لذينة . مغامرة جديدة رائعة . ان يضبط شهرت بنفسه ويضبطها متلبسة ، ويراقب انفعالاتها بدقة ، ويرى ارتباكها ورجفتها وانكارها أو قد يحدث حادث مفاجيء لم يعد له حسابا ولكنه لا بد سيكون ممتعا وسيكون التغلب عليه أكثر امتاعا . المغامرة رائعة حافلة في كل خطوة منها متعة ، وفي رواية تفاصيلها بعد ذلك لاصدقائه سعادة .

الاحاسيس الدافئة كانت تملؤه والخواطر السوداء كان يطردها فقد لا تكون شهرت هي السارقة رغم دقة ذكائه أو تكون قد تصرفته في الساعة أو يفشل في مواجهتها ومفاجأتها

وتتآمر عليه عشرات الاحتمالات ولكل احتمال منها وجاهته ، ويحس برأسه يكاد ينفجر . منذ أن عاد من المحكمة وهو لا يكف عن

التفكير ، والانسان له عقل واحد ، وعقله قد تحمل فوق طاقته وما عاد
فى استطاعته المضى .

وقرر ان يوقف التفكير فى شهرت والساعة ، وما قد يكون ، فى
الحال . ولم يستطع . فى كل مرة يظهر طرف سؤال أو احتمال ثم
لا يلبث أن يتكامل . . ويصبح مطالبا ببحثه والاجابة عليه . ولهذا
قرر ان ينصرف عن الموضوع كلية ولم يجذأروع من ان يجعل عقله
يسترخى ولا يفعل شيئا سوى استقبال ما يتتابع أمامه من مشاهد ،
وتأملها وحصر نفسه فيها .

ومن تلك اللحظة بدأ يحس بنفسه ينزلق ، ويتوه ، ولا يستطيع
ان يحدد واقعة بذاتها أو يتذكر دقائق حدث معين أو يعثر على سبب
واضح لما اعتراه ، وكأنما قد حدث كل ما حدث وهو نائم يحلم أو ان
شيئا مما رآه لم يحدث . انه لا يزال يذكر علامات باهتة للبداية ،
وكان فى شارع الجبلية والشارع طويل نظيف تحفه أشجار مقلمة
فروعها ومرسومة ، والمساحات واسعة والعمارات شامخة وعالية
وكل عمارة لها نمط وشخصية والمارة نادرون . . والهواء مخيم
والسكون تام لا يسمع فيه الا حفيف العربات السارية ، وكلها من
ماركات فاخرة وموديلات حديثة ، والهواء مفتوح النوافذ يسرى ناعما
رقيقا فى حرية ، وموج النيل يمشى على أطراف أصابعه حتى لا يعكر
قدسية السكون المستتب . .

والعربة تمضى وكأنها تمضى فوق بساط من حرير ، وصدره
ممتلئ بأحاسيس جياشة وحواسه تستعد للمشاهد المثيرة المقبلة
تشرف بجوارحه يدخل فى صمت ولذة ويبتسم كلما تذكر دوره ،
وفرغى جالس فى المؤخرة متشبث بالمسند الامامى يكاد يشم رائحته
ورائحة بدلته ، ورذاذ كلامه يتطاير ويغرق أذنه اليمنى . .

وعند أول الكوبرى تلتقى العربة بأسراب العربات القصادمة من
الزمالك والجزيرة والدقى والجزيرة ، أسراب جديدة رائعة الألوان
كأسراب الطيور تعبر الكوبرى وهى تكاد تطير ، وفى دوامة ميدان
قصر النيل تتسرب الموديلات القديمة وعربات الاجرة ويوزع الميدان
محتوياته ويملاؤها شوارع المدينة حيث الحركة دائبة والاتساع
أقل ، والبنائيات متلاصقة متقاربة والاصوات قد بدأت تشغل الاسماع
والألوان تتعدد ، والماشون على أرجلهم قد بدأوا فى الظهور . وفى
العتبة تختلط العربة باللاتوبيسات وعربات الترام والمارة والكارو،
وتبدأ الجلابيب ، وتعنف الحركة ، ولا يبقى ثمة نظام . .

وحين يدلفون الى شارع الازهر يصل الصراع الى قمته ويختلط
فى بطن الشارع الحابل بالنابل والراكب بالمشى وعويل العجلات،
وصراخ الكلاكسات وزمامير الكمسارية وزئير الموتورات ، وسرعة
أجراس الأحصنة ، وصفافير عساكر المرور ، وزعيق الباعة والمارة
والحرارة تصل أوجها والازدحام منتهاه ويصبح لا مكان لفرد وكل

شيء بالجملة . الركوب بالجملة والشراء بالجملة والحوادث أيضا بالجملة
والآلات هي التي تتصارع والبقاء للأكبر وبين الحين والحين تسمع :
حاسب .. كالصرخة الأخيرة لقتيل يفرق

وتصبح قيادة العربة عذاب، وروحه تبلغ الحلقوم، والمارة لا يكفون
عن سبه وفرغى لا يكف عن رد السباب بأحسن منه وتصميمه على
تأديب شهرت يزداد ، لم يعد كافيا ان يخيفها ويستعيد الساعة .
لا بد من الانتقام لكرامته .. آه لو يخنقها .. أجل يلف أصابعه
حول عنقها ويظل يضغط ويضغط على زورها .. ويضغط على
النفير ، ولا يسمع له صوتا ويشدد من ضغطه والضجة تمتص
الاصوات وتمنع الصرخات ، والازدحام هائل ، والتقدم بطيء يفجر
المرارة ، وجامع الازهر يبدو عاليا مغبرا أحجاره كبيرة ، الحجر يبنى
بيتا ، وجداره متين تملأه الحرايبش والحفر ولا يهتز بما حوله ويشهد
الصراع القاتل من مئات السنين ولا يحرك ساكنا ولا يستطيع ساكن
ان يحركه .. وتنحرف العربة الى اليمين ..

ويتركونها بناء على نصيحة فرغى وتحت مسئوليته ويكملون الرحلة
سيرا على الاقدام ، وبعد خطوات قليلة يحس بفراغ فى رأسه وكأنه
أصبح وحيدا فى مكان عريق مهجور والضجة مائت والهدوء قد أصبح
شيئا ملموسا وكل ما حوله قد بدأ يهوى أمام ناظريه . أنه مصرى مائة
فى المائة أبوه من المنيرة وأمه من العباسية وله أقارب فقراء فى

الصعيد وسسافر ورأى وانتقل وحقق ولمس بنفسه أقصى درجات الحاجة وهو متأكد انه لا يزال فى القاهرة لم يغادرها وان المكان الذى يمشى فيه حى من أحيائها ولكن المراثيات تتابع كلما تقدم ويحس بالذهول وبأنه يدلى بحبل فى بئر لا قرار له ..

الشوارع أول الامر مستقيمة ذات طول وعرض وأسماء مشهورة .. وأسفلت واضح وتلتوار ... والبيوت على الجانبين مزدحمة ومكدسة .. ولكنها بيوت لها أرقام وبلكونات ونوافذ بشيش وزجاج وبوابات ذات زخارف ، والحركة مائجة هائجة .. والدكاكين لها أصحاب ومكن وعمال ويفط مكتوبة بخط أنيق ، والمارة وجوههم حلقة فاتحة فيها دماء ، وملابسهم كاملة زاهية ذات ألوان وتفصيل ، واللغة راقية مكونة من جمل وكلمات والجو تملؤه رائحة الوقود المحترق والمانيفاتورة والعطور ..

ويتقدمون ، وتضييق الشوارع وتقل شهرتها وتفقد البيوت أرقامها وتنقص أدوارها وتصغر أبوابها وتصبح نوافذها بلاشيش ، وتتحول الدكاكين الى حوانيت ، صاحبها هو عاملها ويداه هى المكنة ، وتشحب وجوه المارة وتزداد سمرة ، وتبهت ألوان الملابس ويتقدم بها العهد ، وتتحلل اللغة وتصبح كلمات ونداءات وشتائم ، وتهب رائحة العطارة والجلود والغراء والخشب المنشور ..

ويتقدمون ، وتضييق الشوارع وتفضى الى حارات تصك أسماؤها.

الآذان وتأخذ مكان الاسفلت كتل صلبة من الاحجار وينتهي التلوار،
وتتقدم البيوت ويفصلها عن الحاضر أحقاب وأحقاب ، وتصبح النوافذ
فتحات ليس فيها غير الحديد، وتخفت الحركة ، وتندر الحوانيت وتتقطع
ويصبح بين البقال والبقال مشوار . . وتتضخم الملامح وتغمر الوجوه
وتنبت اللحي وتغزر الشوارب وتتناقص الملابس ويصبح البنطلون
بلا قميص والجلباب بلا سروال وتفتت اللغة الى أنصاف كلمات
وأرباع وتعبيرات لا يفهمها سوى أصحابها وتخفى روائح الدكاكين
وتمتلئ الأنوف بروائح الثقيلة والملوخية متصاعدة من البيوت . .
ويتقدمون، وتخرج الحوارى وتتداخل وتؤدي الى أزقة لها أسماء
تضحك غرابتها ، وتصبح الارض من التراب ، وعلى التراب أوساخ وماء
وطين ، وتموت الحركة ، وتخفى الحوانيت وتنتقل البضاعة الى عربات
يد أو صناديق معلقة فى الحيطان . . وتفقد البيوت ما فوقها من
طلاء وما فى نوافذها من حديد ، ويقل المارة من الكبار ويظهر الاطفال
ويتكاثرون وكذلك يفعل الذباب ، وتتضخم الملامح وتتورم وكأنما
فرصتها دبابير ، وتتهرأ الملابس وتمزق وتفقد الكثير من أجزائها
ويظهر أناس بلا لباس ، وتصبح اللغة سرسعة وأصوات وحروفا
تتصاعد من حناجر شديدة البروز، وتلاء رائحة الطين والقدم الأنوف
ويوغلون فى التقدم ، وتتلوى الأزقة والمسالك وتؤدي الى مكان
ليس له كيان ، كل ما فيه يختلط بكل ما فيه ، الارض المرتفعة المكونة

من أجيال متعاقبة من القاذورات والأتربة بالابنية المنهارة التى ناعت بما فوقها من أكوام وأعمار ، ولون الأرض ذات الطين بلون الجدران ذات التراب ، والملابس بالخرق المبعثرة فى الطريق ، ورائحة الناس برائحة الأرض برائحة البيوت ، والهمهمات المتقطعة بهبهة الكلاب بالابواب الكبيرة وهى تزيق وتفتح ، والحركة البطيئة الميتة بالهوام الزاحفة . والمساكن المنخفضة المتربة بالقبور التى ترقد على مرمى البصر، وفرغى المخلول لا يتغير احترامه ويسبقه بنصف خطوة لا يريد ان يسبقه كثيرا ولا ان يتأخر ، ولا يريد ان يوليه ظهره ولا يستطيع ان يسير ووجهه الى الخلف، ويجامله بعقد ملامحه اذ المهمة التى جاءوا من أجلها خطيرة تستدعى عقد الملامح ، والناس تحييه وهو يرد تحيتهم فى اقتضاب . الناس تحييه وتساءله عن الاحوال ويحف به احترام هو الحاجب الذى لا حول له ولا قوة ، ولا أحد يعرفه فى شارع الجبلالية هو للقاضى الذى له الحول والقوة

ويمضون وحولهم خراب وبيوت تتساند حتى لا تنهار والناس هى الاخرى تتساند حتى لا تنهار ، والعجوز يتحامل على شاب والاعمى يسحبه صبي والعليل يسنده جدار والنبي وصى على سبع جوار وخيط خفى يجمع الكل ويربطهم معا وكأنهم حبات مسبحة وكأنهم روح واحدة تحيا فى أجساد كثيرة متفرقة ، والزمن لا قيمة له ، فالطفل الرضيع على كنف أمه هو الطفل الذى يحب ويختلط بأكوام

الزبالة هو الطفل الماشى الذى يتمنطق بالاحجية خوفا من العين هو
الطفل الميت أو الذى عاش ، هو الصبى فى ورشة أو محل ، الغادى
الرائح يقلد الممثلين والاراجوز ويتهمجى ألفاظ لسباب ، هو الشاب
فى عفريته أو فى جلباب يجذب أنفاس السجائر المصنوعة من
السبارس ، هو الرجل العامل أو الرجل العاقل ، هو الغائب عن الوعي
بجوار حائط ، هو الدائح من الافيون والبطالة والسيكونال ، هو
الشيخ الذى يقضى النهار يصلى ويدعو للأولاد ويترحم على ما فات
ويجمل لنفسه الآخرة

والبنت العروس المخطوبة ، هى الام ذات الأطفال ، وصاحبة
المنديل بأوية هى المتشحة بالسواد ، وضاربة الطفل هى المضروبة
من الزوج ، والطابخة هى الملهوفة التى تبحث عما تسد به الأفواه
ويأتيه صوت فرغلى وهو يشير الى البيت الوحيد المتماسك ويقول :
بيشى • ويعزم بقوة ويشدد ويلعن شهرت التى جعلت رقبتة
كالسمسة •

ويسأل عن الحارة السد ومتى يصلون ، ويجيب فرغلى أنهم
فيها ، فى الحارة السد وان بيت شهرت قريب ، بعد خطوات •
ويمضون وتحف بهم نظرات مستغربة تتوجس ، وراء كل نظرة كلمة
غريب ، ووراء الغريب تساؤل ، ووراء التساؤل خطر ••

والنساء الجالسات على العتبات ينسجن من السامة أحاديث ومن

الإحاديث بمقدمات حزر . يرونهم فيتعجبون وتميل الرؤوس على
الرؤوس وينتقل الهمس من عتبة الى عتبة . وكان بين العتبات
أسلاك . . ويقول بعضهن : بوليس ، وتتحشرج الأصوات وهي
تنطق الكلمة . . وأخريات يتفعلن ويقعلن : صحة ، ثم يرين فرغلي
ويتحققن منه ، فتتخفض الهمسات أكثر .

وأطفال ، وأطفال ، وأطفال يتجمعون أمامهم وخلفهم وعلى الجانبين .
عيونهم ذابلة فيها رمد وعمارص ، ووجوههم صغيرة تحمل كل ما فوق
الطريق ، وتتوافد معهم جيوش الذباب . ويصرخ طفل وهو يقذف
فرغلي بطوبة ويقول : محكمة ، ويلعنه فرغلي وينهره بلين . ويلتفت
الباقون الى اللعبة ، وتصيح (محكمة) على كل لسان ، ويطير فرغلي
وراءهم فيهربون ، ويهجم الذباب ، ثم يعودون الى التجمع . ويعود
الذباب الى الطنين .

ويتأكد فرغلي من بيت شهوت ويسأل احدي الجالسات فتشير الى
بيت قريب ، وينتقل الاسم من لسان الى لسان وكل لسان يضيف
كلمة وتخميناً . . ويترك الجالسات جلوسهن ويضمهن موكب الاطفال
ولا يصبح فارق كبير بين سواد النساء وسحنة الارض وزعيق الاطفال
وهمهمة الكبار ، والشمس تصب أشعتها وتجعل كل ما فوق الارض
يغلي ويفور وتتصاعد منه الروائح ، والنهار يظهر كل شيء ولا يخفى
شيئاً ، يظهر عن عمد واصرار وكأنه ينتقم ويشمت .

وينتظر فرغنى وشرف على الباب وحولهما الركب وبهم . . . هو
وحده . البيت مظلم ، وبابه كفوحة العجوز الاترم وعود الكبريت
لا ينفع ويبوى الى أرض المدخل ، اذ الارض منخفضة ولزجة وكلها
طين . والمدخل واسع كقبوة القرن المجور ، وشبهت فى الدور
الثانى ، هكذا قالوا ، والدور الاول سواد فى سواد ، والرائحة
لا تطاق ، والجدران متآكلة وكانما نهشتها أفواه ثعابين ، وعليها تموجات
رشح وأملاح ، وكان النيل فاض وأغرق البيت ثم انحسر ، وامرأة
جالسة على عتبة حجرة فى المدخل تغسل وساقها بيضاء مكشوفة
تضىء فى الظلام تحديق فيه وتتوجس خيفة ، وتنعقد يداها فلا تترك
الغسيل ، ولا تغطى فخذاها العارى ، والسلم متآكل ومتداعى وخشبه
مخوخ ودرجاته تنقص درجات ، والقدم تزيق ، وخطر السقوط
محدد ، وعود كبريت عاشر ينطفىء ، تطفئه ريح تهب من مكان خفى
لا يرى ، ريح باردة رطبة والجو فى الخارج حار ، ريح باردة تنفذ الى
النخاع فتخرج النخاع ، والدور الثانى لا هو دور ولا هو ثان ، عروق
عارية كضلوع هيكل عظمى تصنع السقف ، بينها مهاوى وحفر ،
وحيطان شاخنة ومالت وانحنت ، وباب قريب من السلم ، باب مكون
من ألواح قديمة غير ممسوحة ولم تجر عليها فارة ، والخشب قد تغير
لونه وأصبح رماديا أزرق ، وعلى الباب عجيب جاف ، وبراز طيور
وحوانات ، وكف دم بنيه ، ووجه رسمه طفل بالطباشير كوجه جنينه

ويمد يدا لا تريد ان تمتد ، ويدق بابا لا يحتمل الدق ، ويطل وجهه
يقولها بها - عايزك فى كلمة - ويصفر وجهها وكأنما سلط عليه كشاف
فى أول الامر ما أن يراه حتى يشحب ويظل يشحب ولا يكف عن
الشحوب . والعينان صاقيتان أول الامر يعكرها ارتباك مفاجيء
وخوف ثم يمتد الشحوب الى بياضهما ولا يستقر للحدقتين قرار .
هى شهرت قد رحبت به . وخرج صوتها متداعيا منها را كله ذهول
وحيرة واستغراب . وتفتح الباب ويبدو جسدها يلفه جلباب رجالى
قديم فيه شق يقسمه نصفين بالطول ، والشحوب قد وصل الى قدميها
وجعل أظافرها تبيض . ويضطرب . هذه المرأة المرتعشة سرقت
ساعته . الساعة معها لا بد فماذا يمنع من خنقها ، ولماذا لم يعد
لديه الحماس الاول ، وعقله يتأرجح بين التقدم والتأخر . لقد جاء وانقضى
الامر .

وكما دبر تماما ها هو ذا يقولها ولكن بغير اللهجة التى دبر أن
يقولها بها - عايزك فى كلمة - ويصفر وجهها وكأنما سلط كشاف
أصفر ، وتخاف ، وتدعوه للدخول ، وتحاول أن تمحو ارتباكها وتبتسم
وترتعش شفاتها وتفشلان فى أداء الابتسام ، يدخل هو ويعد العدة
للتراجع فممكن أن يحدث أى شئ ، قد يقتلوه أو يسرقوه أو تصرخ
شهرت وتستغيث . ومن مكان فى الحجرة يندفع اليها أطفال ثلاثة ، بنت
فى العاشرة طويلة ورفيعة جدا وسمراء وعيونها ضيقة وسوداء

ترو وجهها رفيع جامدميت لاينفعل ولايتجرك ولم يعرف الضحك ،
وعمرها أسود يلمع ، ورائحة جاز ، وشفيرة مجدولة وأخرى سبائبه ،
وسط خشبي مغرورز في قمة الرأس ، وطفلان آخران ، بنت وولد أو
بنتان أو ولدان تشبها بأمهما وأمسكا بثوبها ، ومن الظلام المشبع
برائحة الجاز تنصب عليه أربعة أزواج من العيون المستغربة تتطلع
والسؤال وترتعش • ويبتلع ريقه ويردد كالاسطوانة المعبأة : عايزكم
في كلمة • وتفريق شهرت وكأنما أعطيت حقنة

تطرد الاولاد وتغلق الباب ومع هذا يتشبث الاولاد بالباب المغلق
وتنبو عيونهم لامعة من خلال الشقوق كعيون الصراصير ترقب
مخبري في الحجرة • ويلهث ويدور برأسه ، الحجرة ضيقة كالصندوق
الذي ضاع مفتاحه ، الضوء يختنق وهو يتسرب اليها من نافذة
سارية ، وسرير قديم كالح ذو عمدان رفيعة كالبوص ، وحديده كله
سدا ، ومرتبته أغمق من الصدا ، وفي ناحية شيء كالدولاب قديم
وجوال فيه ثقب مملوء لحافته ومركون بجوار الحائط وعليه أرنبة ،
مرتبة في الركن الآخر وكراكيب وصفائح وأخشاب متناثرة ، وعلى
الحائط صورة الامام علي يشق بسيفه رأس كافر ، والكافر رأسه
مشمق ومع هذا لا يزال ممتطيا حصانه واضعا قدميه في الركاب ،
والمرتبة يتحرك شيء ، وإذا بالشئ رجل ، رجل طويل أسمر
رأسه كالزلمة الراقدة بجوارها ، وعلى وجهه رغم نعاسه

تكشيرة ، وجبهته معقوبة ، ممدد بطوله على المرتبة وحزامه مفكوك ، وملابسه الداخلية قديمة سوداء وظاهرة من فتحة بنطلونه ، واللمرة الثالثة يقول : عايزك فى كلمة ..

ويعود الكشاف الاصفر ينصب على وجهها وتقول : : خير .. وتخرج الكلمة مرتعشة معتقدة تماما أن لاخير هناك ، ويقول كالمنوم : الساء فىن ؟ ويتخشب جسدها وتدب على صدرها بيديها ، وتنكر برموشها ، وتقسم بازدياد شحوبها ، ويعيد السؤال ، وتغلظ فى القسم ، وتصر على الإنكار وشئ رفيع ثاقب يخرق عقله ويؤكد أنها السارقة ، ويمضى كالمحكوم عليه فى الحطة يكيل لها الكلمات ويركن الاتهام ، وتختنق وهى ترد ، وتتحشرج الكلمات على اقم وهى تنكر ، ويأخذ دور وكيل النيابة ، وتأخذ دور المتهم ، ويصبح صاحب حاجة ، وتحاول أن تكون صاحبة كرامة ، ويصرخ كالسيد المسروق وتتمسكن كالحادمة السارقة ، ويطغى على الحوار صرخات تأتي من الباب .. البنت الكبيرة تبعد اخوتها وهى تسمع ما يوجه الى أمها ، والطفلان لا يريدان ترك مكانهما ، وكأنما يدركان بغريزتهما ان أمهما شهرت فى خطر ، ولا يستطيعان تركها تواجه وحدها الخطر .

وتزداد عصبيته ، ويهدد بالبوليس وبأن ضابط المباحث على الباب ويبدو عليها عدم التصديق ، فيفتح الباب ويعوى الباب وهو يفتح ،

يأخذها الى النافذة ، وتطل ، ويطل ، ويقول يا حضرة الضابط
ويقول شرف أيوه يا سعادة البيه ، ويفمز بطرف لسانه ويكاد
ك ، ثم يذهب الهزل عن وجهه فجأة . . وتتجمد ملامحه
ويخاف عليه ان تنكشف النمرة ، فيرتد عن النافذة ، وتراجع
شهرت الى الحجرة ويتبعها ويقول . . يا الساعة يا سينة سجن .
وترتجف خطواتها ويعود ويقول : وانتى عندك أولاد يتبهدلوا ،
ويلاحظ توقفها عن المسير وهو ينطق الأولاد ، فيردد ما قاله ويشدد
على الأولاد .

ه جاول ان ترغم نفسها على البكاء وتعتصر عينيها ، فلا تبكى ،
ولا تهبط دمة واحدة ، ويتقلب الرجل النائم ويغمغم وكأنه يحلم
تصبح شهرت : جوزى ، ويزداد عصبية ، وتتوتر أعصابه ويهمس
بالتهديد ، وشئ فى داخله يهمس . . الام تدافع عن وجود العائلة
. . والزوج يائس نائم . . ويزداد حدة ، ويكسى وجهه بقناع مخيف ،
يطلق تهديده الاخير . وتتعلق عيناها بعينيها ، وعيناها ليس فيهما
ذرة رحمة ، وليس فى نفسه ذرة قسوة ، ولا يدري لماذا يهدد ولماذا
هو مصر ، ولماذا لا يرحم ، ولماذا لا يزداد قسوة ، وتقول له : فتش .
ويتأكد لديه انها السارقة ويندفع يفتش بقدمه ، الجوال مملوء «بقوالح»
الذرة وتحت السرير عروسة خشب وخرق قديمة كالجلابيب والعطن
بملا خياشيمه ، وعدة أحذية متهالكة لا تصلح للارتداء فوقها غبار

كثير ، وماسورة حديدية ، والدولاب طوله متر وطلاؤه بنى وفوقه طبقة سوداء سميكة . . وداخله حبة بطاطس مسلوقة عليها صرصار وبصلتان وورقة ملح لم تفتح ، وعند الجزء الأسفل منه لمعت عيناه فقد وجد أشياء تخصه ، علب ملبس ذات زخارف ، وصندوق خشبي مطعم ، وأقلام حمراء ورسااص وغطاء قلم حبر ، ونصف ولاعة قديمة ، وتجيثه غمغمة شهرت تفسر وقد أدركت سر لمعة عينيه وتقول : للاولاد . . يلعبوا بيها . ويجد جوربا من جواربه ممزقا وقديما وفيه رقع ومغسول ، ويحس بنجل كثير يهبط بقلبه الى قدميه ويرتفع بدمه الى رأسه . ويشور في نفسه بركان ، ويخرج فحيحا ملتها من ملامحه وفمه ولسانه ، ويسألها لآخر مرة عن الساعة .

ويتململ الزوج ، ويدفع الذباب بيد نائمة ، وتعلو ضجة الاولاد عند الباب ، وتفتح شهرت فمها وتطبقه ، وتخرج من حلقها أصواتا ، وشعرها منكوش ، ورعها ينكش شعرها أكثر ، وجسدها يهتز في الثوب الرجالي الواسع ، ويدها مشلولة على يدها الاخرى ، وعيناها تبرقان في سرحان تائه ، وهو أحيانا يفيق لنفسه ، ويدرك أنه يمثل ، وأنها لا تمثل ، وأنها تستحق ، وأنها لا تستحق ، وأن ملامحها القوية التي أذلته تجف أمامه من العذاب ، وأنه لا يحس بنشوة النصر ، وقوى عديدة تتجاذبه ، ويزداد تحديقه خطورة . وأخيرا تفر دمة واحدة من عينها ، وتفر من فمها كلمة ، وتتبع الدمة

دموع ، والكلمة تتبعها كلمات ، ويتبين أنها تقول :

أنا لقيتها والنبي وكنت ناوية أرجعها .

السادجة ! يا للسهولة !؟ كيف تعترف بمثل هذه السرعة !؟ لقد

أعد نفسه لمعركة طويلة

وتتحرك وتمد يدها الى الدولاب المفتوح ، وتستخرج من رفه الاعلى

كوباً زجاجياً مكسوراً ، وتمد اصبعين يرتجفان داخل الكوب ، ويخرج

الاصبعان ببطء ، وبينهما الساعة . ساعته ! وتمدها اليه دون أن

ترفع بصرها . ويهبط عليه ماء صاعق بارد . ويهدأ كل شيء في

صدره . ويحس بصدره يضيق ، وبالحجارة ثنته بشعة ، وتبرق

الساعة في اليد المدودة ، ويجذبه البريق ، ويتناولها ، وبتفحصها ،

ويفرح بها فرحاً صبيانياً كما يفعل الاطفال ، ويزجر نفسه ويفرح ،

ويقلب الساعة بين يديه ، ويضعها على أذنه ، ويجدها دائرة ،

وحشرات رقاصها لم تزل كما هي ، ويجدها مضبوطة ، وتشير الى

الرابعة وخمس وعشرين دقيقة ، ويجد نفسه على السلم .

ويتنبه ويتوقف ، ويركبه احساس خفى أنه أخطأ ، وينادى على

شهرت ، وتبدو عند بابها قائلة نعم ، وأولادها قد عادوا يتشبثون

بها ، والبنت الكبيرة عيونها سوداء رهيبة واقفة ترقب أمها بوجه

جامد ومن بعيد ويداه ممسكتان بالصفيرة السائبة . وهي ثابتة في

مكانها لا يتحرك لها رمش أو ذراع . ويتردد ، ويسألها لماذا أخذت

الساعة . وتجيبه وتقول : الماهيسه ماتكفيش .. وحضرتك ..
مرضيتش .

ويسألها وتقول : البلوزة .. كنت عايزه أدفع حق خياطتها .

ويسألها فتقول : الملايه تكسف

وعيناها لا أثر فيهما لأى انفعال ، محدقتان فى الفراغ ، تهبط
منهما الدموع بلا بكاء ، كالسماء حين تمطر بغير سحب ، وتجيئه
الاجابات ملفوفة فى ضباب ، ورأسه يهتز راقضا أن يصدق ، ويسألها
وكانه يشارك فى حل مشكلتها لم لم ترهن السرير أو تبيعه بدل
السرقة . وتسيل دموع كثيرة من عينيها وهى تقول ان السرير ليس
سريرهم . أمال سرير مين . سرير أم هانم . أم هائم مين . شريكتهم
فى الحجرة .

ويكاد يوقف الكلمات ليفكر فيها قبل أن تلمس آذانه ، ولكنه
يبتلعها ، ويتركها تخيب فى لاوعيه .

ويرتفع صوت خشن من الداخل يسأل عن الضجة والحكاية
ويشتاب .

وتستدير لتجيب . ويستدير هو ليهبط على عجل .

وحين يصل الحارة يتنفس بقوة ، وينطلق غير غابىء بالواقفين أمام
البيت ، ويسرع والهمسات تنمو وتبلغ أستماعة ، وتنتشر ، ثم تبرد
وتذبل وتأخذ مكانها همسات جديدة .

ويستحثة فرغلي وهو يبتسم في قبح بشع : هيه !؟ ولا ينطق بحرف ، ويمضي وأناس من حوله تمضي ، وأسئلة تترى ، والعيون المنصبة من الجانبين تتكاثر ، عيون واسعة عميقة مستفهمة تزيج رموشها في ثاقل مريض وتتساءل عما فعل الافنديه القسامون بواحدة منهم ، وتلتقي النظرات عبر الطريق ، تكاد تصنع أمامه أسوارا شائكة توقفه وتقيده ، والحاح فرغلي لا ينقطع ، والرذاذ المتطاير من فمه لا يكف ، ويحس بالناس تكاد تطبق عليه حبا في الاستطلاع ، فيخرج الساعة من جيبه ويلقها حول معصمه ، ويقفل الابرزيم . وتتصاعد الهمهمات من خلقه ، ويزعق فرغلي ، ويسرى الخبر . وتتلاصق النسوة ، وتنخفض الهمسات ، وفي أعقابها ترتفع دعوات ، تطلب للولاية الستر . ويزمجر الرجال ، ويتضاحك الصبية ، وينتشر الحادث من نافذة الى نافذة ، وعبر السطوح ، ويحس بشهرت تتمزق ، وتهتل ، وتتقاذف الافواه أشلاءها ، وهي شاحبة صامته خائفة مستسلمة لا تماك من أمر نفسها شيئا .

ويدرك العربة وكأنها طوق النحاة ، ويتبين أن شرف غير موجود ، ويسأل عنه فرغلي ، فيقول انه نفضر يده من الامر كله فجأة وقال انه لم يعد يستطيع ومشى . ولا يحس بأية غرابة وكأنه كان يتوقع من شرف هذا . ويهرب من اعتذارات فرغلي التي يعقبها بوعيده وتهديداته وكأنه سارق الساعة ، وكأنه المسئول عن الكون وعمدة الحتة .



ويدلف الى العربى ويضغط على محركها كأنها يضغط على ضمير يؤله ،
وتندفع الى الامام .

وتعود الشوارع تنتظم وتتسع ، ويصبح لها طول واستقامة .
وتعود الملابس تتكامل وألوانها تجدد وتزدهر ، والذقون تزال ،
والشوارع تنمق ، والملاح تصغر وتندق . وتختلط الحركات
بالسابلة . عربات كارو أول الأمر ، ثم أجرة مستهلكة ثم أبسوة
وملاكى وأوتوبيس . ويتسع صدره وكأنما انزاح عن نابوه ،
ويزداد اتساعا ، ويخف الهواء ويخف ، وتقل أحماله وتكبر رقعته ،
والدنيا تتفتح وتتفتح .

ويجد نفسه فى ميدان قصر النيل .

والنسبات بدأت تهب ، والوجوه تفيق من حر اليوم ، والكوبرى
يمتلئ بالمتنزهين ، والماء كثير كثير ، والعمارات بعيدة بيضاء كأبراج
الحمام ، والمدينة جميلة جميلة ، أجمل من أية مرة رآها فيها ، والمنظر
ضخم وحاشد ، وأنفاسه تتلاحق فى نهم ، ورأسه يدور .
وما يكاد يصل الدور السابع من عمارته بشارع الجبلية حتى
يسرع الى الشرفة ، ويتهاوى على مقعد ، ويسند رأسه ويحاول أن
يستعرض من جديد كل ما مر به .

بعد ساعات قليلة كانت حجرة المكتب لا تزال كما هي ، ولا تزال
لها نفس شرفتها الشامخة المظلة على النيل .

وكانت الشرفة تشهد - كماداتها كل ليلة - ما يطرأ على القاهرة
من تغيير ساحر مذهل .

النور القوي الذي كان يضيء المدينة طيلة النهار أخذت حدته تهمد ،
ولونه يشحب ويتغير وكأن يدا خفية قد امتدت الى شعلة الشمس
الموقدة ومستنها . واصفر الضوء فاصفرت المدينة . وانطلقت من
خلالها آلاف من شعاعات الشمس الغاربة وزجاج النوافذ يعكسها
ويزغلل بها الناظر .

واحمر الضوء .

وتلبدت السماء وحدها بالحمرة . أما المدينة فقد كستها رمادية

مغربية زرقاء .

ثم اسودت الارض .

وأظلمت السماء .

وكاذ الليل يبثلع المدينة لولا ملايين من أضواء صغيرة بذرت فوق
سطح الارض ، وما لبثت أن نبتت ، وتغذت على الظلام وترعرت ،
واصبحت أنوارا براقه تلمع وتبرق .

ثم نضجت الاضواء ، وتفتحت لها أزهار ، وانتشرت في جو
المدينة أنوار حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء ذات أشكال وأسماء
وأنواع .

واستحال الظلام إلى كرنفال .

كانت الشرفة وحدها هي التي تشهد التغيير رغم أن الاستاذ عبدالله
كان لا يزال جالسا فيها ، مستلقيا على الكرسي المريح ، رأسه ثابتة
لا يتحرك ، وعيناه ساهمتان مشيتان كعيني ميت ، وعقله هائم تائه
غير مكترث بالنهار الذي ولى أو الليل الذي أقبل . يحدث في الفراغ
المطبق المظلم ، ويجوب ، دون أن يحرك رأسه ، سماء المدينة ذات
المحصول الوافر من الاضواء ، ويحاول أن يركز انتباهه
وبصره في نقطة تائهة في ظلال الليل ، بعيدة عن الاضواء ، واقعة
لابد هناك ، هناك في أقصى المدينة ، وراء مئذنة الأزهر - يهيم يهيم
وبين الحين والحين يبرق معدن الساعة الملفوفة حول معصمه فيخطف
بصره ، ويجذب عينيه الغارقتين في الظلام ، ويحس بشيء ملتهب
ينبثق في صدره كالنزيف ، ويكز على شفتيه دون أن يدري كشته

ما يملكه . وينفجر في رأسه خاطر ملح : أن يخلع الساعة ويرميها
على طول يده في النيل .

غير أنه لم ينفذ الخاطر أبدا . وطبعاً لم يقض الليل في الشرفة .
وفي الصباح كان يتوجه الى عمله كالمتعاد فقط كان قد عاوده ذلك
الصداع الملعون .

ولا تزال الساعة حول معصم الاستاذ عبد الله . كلما رآها تذكر
تلك الرحلة الغريبة ذات الكابوس ، وازداد اعتزازاً بساعته ، وبنفسه ،
بل انه ظل يريها لأصدقائه ومعارفه وكل من يلقاه أياما كثيرة .
وكان يفعل هذا كمقدمة لا بد منها لرواية ما حدث له . وكان يغفل
في قصته كثيرا من التفاصيل ، ولكنه كان ما يكاد يصل الى الحارة
السد حتى يعاوده ذلك الاحساس بالزيف ، فيندفع يبتري الوصف ،
وينتقل الى الجزء التالي من القصة ، ويصف الهجوم الخاطف الذي
انهال به على شهرت فتهاوت أمامه . وناولته الساعة .

ولم يسمح لفرغلي أبدا أن يتحدث أمامه عنها . ورغم هذا كان
يسمح لاذنه أن تلتقط منه بعض أخبارها ، وما يوجه اليها من سباب
واتهامات . مبينا كيف فسدت ، وأصبحت ذات سمعة ، وسمت
نفسها أميرة .

كل ما حدث أنه ذات يوم رآها . رأى شهرت فى شارع الملكة وهو
مار بعربته ، فأبطأ من سيره . كانت واقفة على محطة الاوتوبيس ،
وكان واضحاً أنها لا تنتظر الاوتوبيس ، وكانت تصبغ شفيتها بروج
حقيقى ، وترتدى الجيب الرمادى الذى كانت تأتى به .
وأهم شيء أنها كانت ترتدى فوق الجيب . . بلوزة جديدة .



(انتهت)